تأثير العلوم العربية

على نشوء الجامعات في أوربا

للدكتور هينريخ شيبرغز

Heinrich Schipperges -Heidelberg

ترجمه عن الألمانية الدكتور محمد يحيى الهاشمي

١ - موقع البحث :

ذكر هوبرت غروندمان من اكادمية لايبزيغ في تقرير موثوق عام ١٩٥٧ الآراء المتواترة عن منشأ الجامعات في اوروبا في القرون الوسطى . ويؤكد هذا المؤلف أهميـــة الجامعـات في الغرب كأسمى مظهر من مظاهر الفكر الأوروبي الخـــاص وتاريخه

(*) هاينريخ شيبرغز رئيس معهد تاريخ الطب في هايدلبرغ بألمانية الاتحادية .

نشر هذا الموضوع في Nova Acta Leopoldina بمناسبة بلوغ البحاثة رودولف تساونيك Rudolph Zaunik رئيس اكادمية البحث الطبيعي في هاليه بالمانية الديموقراطية سن السبعين، عام ١٩٦٣ . وان تكريم وتعاطف علماء الالمان من القطاعين دليل على ان المانيا (كما هي الحال عند العرب) وحدة لاتتجزأ .

الاجتماعي(١) ذلك المظهر الذي لم يأخذ قسطه اللازم من التقدير . وتساءل بالحاح عن كيفية نشوء هذه المنظمات العلمية ؟ ويأتي غروندمان بهذه النتيجة المقررة: بأن الجامعات تكونت دون الاستعانة عن بصيرة بنموذج سابق ، انها نشأت اذن بصورة عفوية تحقيقا للرغبة الشديدة في العلم ، وانتظم عقدها حسب الوضع الزمني كأشكال مؤسسات القرون الوسطى . واننا في هذه الدراسة سوف نقوم بنقد هذا الرأي ما أمكننا ذلك .

مما هو جدير بالتساؤل : ماهي اسباب ظهور هذه المؤسسات في ذلك الزمن ، وكيف يمكننا تفسير بروز الحاجة الملحة اليها فجأة ؟

مما لاشك فيه أن غروندمان كان على علم بهذه المشكلة ، ورغم تبيانه بأن نشوء الجامعات في الغرب كان المرة الاولى دون مصدر سابق ، يبقى التفسير عن كيفية بروز هذا الحادث بصورة مدهشة ناقصاً . ويعد وعي هذه القضية ـ التي تستدعي الانتباه ـ امراً غير عادي . فمع ان براهين غروندمان هي طبعاً ذات قيمة من أجل منطقة اقليمية كايطالية العليا ، وتنطبق على بولونية في دراسة الحقوق ، ولكنها تبقى غير واضحة من أجل معاهد الفلسفة الطبيعية والعلوم الوصفية والطب ، لأن هذه المعاهد بصورة عامة مؤسسة على نمط القرون الوسطى . وانسجاماً مع هذا الرأي يتحدث خنو Cheno عن الجامعة كمنظمة مسيحية ويقول بأنها من « ابداع الحاجة الاجتماعية » ، ويدعي خلافاً لغروندمان بأنه لا

---

(١) راجع بحث غروندمان عن منشأ الجامعات في القرون الوسطى ، تقارير اكاديمية العلوم السكسونية في لايبزيغ (فرع الفلسفة والتاريخ) ج ١٠٣ عام ١٩٣٧ ، ٩

Herbert Grundmann:Vomursprungder Universitat im Mittelalter.Berichte Ueber die verhandlungen der saechsischen Akademie der Wissenschaften zu Leipzig, Philo. - hist. Klasse Bd. 103 (1937) 9.

يمكن ارجاع حدوثها الى تشبثات الدولة او الكنيسة في الغرب. يتابع التحري كريستلر في معارف القرن الثاني عشر والثالث عشر في الغرب الاخصائي في دراسة الجامعات ذات النزعة الانسانية (١) — مدعيـاً بأن الجامعات من ابداع القرون الوسطى (٢). يرى هذا الباحث اسوة بغروندمان وبروكها وزن عفوية الجامعات في اوروبا دون نموذج سابق، معتقداً بأنه لا يمكن ارجاعها للمدارس العليا للأوائل، فيفسرها بتنظيمات مستقلة ومؤسسات عامة معترف بها مكلّفة برسالة التدريس العالي ضامنة لتتابع التعليم. بيد ان غروندمان عندما يعالج منهاج التعليم والدراسة يأتي على الأهمية العظيمة للترجمة اللاتينية والعربية، وهكذا يفضي البحث الى معارف ارسطو طاليس الجديدة ومنهاج الثقافة الاولية للجامعات. وقد كان الاعتناء في الغرب وخاصة في سالرنو في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بدراسة العلوم الطبيعية والطب. وكان الاطباء هم قادة التدريس. وكانت العلوم الطبيعية لا الالهيات هي مقدمة دراسة الطب وأدت هذه النظرة التقليدية والانسانية الى تحول هام في تاريخ العلم، فقد كان لعلم الضوء مثلاً في القرن الثاني عشر حركة وعي خاص وتتج عن ذلك موجات من الثقـافة اليونانية العربية كانت الاساس الهـام لنشأ الجامعات التي كانت في القرن الثالث عشر. وبلغت هذه الثروة الثقافية العربية اقصى مداها، وانتشرت وتغلغلت في اراض خصبة، وفتحت المراكز العلمية الفتية ابوابها للعلم الأرسطو طاليسي بالثوب العربي.

هذا هو في الحقيقة الوضع التاريخي كما ذكره كارل بانتل بصورة خاصة في كتابه «تاريخ المنطق» (لايبزيغ ١٩٢٧). ولقد اعطى هاينريخ هيزر

---

(١) المقصود بالنزعة الانسانية الثقافة الانسانية المستمدة من الأدب اليوناني واللاتيني. (المترجم)

(٢) كريستلر، الجامعات الايطالية في عهد الاحياء (باللغة الألمانية)، كتابات ومحاضرات معهد بتراركا في كولونياج ١، كريفلد، و، ج، س، ٧

مفهوماً جديداً لحركة الترجمة في طليطلة (التي كان فيها نموذج الجامعة الأولى) بأنها الأصل (والمقصود بذلك قبلة) العلوم الجديدة . وادخل كارل سودهوف (وهو من كبار البحاثين في تاريخ العلوم) هذا المفهوم في الكتب التعليمية لتاريخ الطب .

في موضوع اساس الجامعات في الغرب ، بين (هلمان) بأن العلوم التي ادخلت في الغرب من جديد كانت مصدر الجامعات الناشئة ، وان النزعة الانسانية القديمة قد انقرضت وحلت محلها احياناً الطريقة المدرسية (سكولاستيك) (١) . ورغماً عن محاولة هذه التوضيحات المتناقضة فأنه لوسلمنا جدلاً بنشوء الجامعات المغوي على غير مثال ، فاننا نصطدم ببعض مقدمات لا بد منها ، لأن دوائر المعارف للدرسة الأولية المرتبطة بمدرسة الاسكندرية وابطالها امثال كاسيودروس وايزودور وهارباتوس ، ليس لها القدرة الكافية برغم فنونها السبعة المتوارثة ، لإحداث تقلبات واسعة تفضي الى نشوء الجامعات . وهناك محاولة تفسيرهذا النشوء من التتابع العلمي عن طريق الترجمة التي كانت سائدة منذ القرن الثاني عشر ، كما قام بذلك اوتوفون فرايزينغ ، ولم يكن الدافع الى دراسته من الوجهة التاريخية ، بل من وجهة النصر المسيحي ، فهو يتحمس للنصر الثقافي منذ القرون الوسطى ويتابع جريانه عن طريق الشرق وروما عبر شارلمان (المعاصر لهارون الرشيد) الى زمن الباحث . وقام كذلك هونوريوس من رغنسبورغ باعطاء معلومات عن « مرشد الرحلة النفسية » ، وقد تجاوزت رحلته الفكرية الفنون السبعة المعروفة في الاسكندرية ، ووصل بالنهاية الى الفن الثامن

(١) تهدف هذه الطريقة الى التوفيق بين العلم والدين ، وقد نهج هذا النهج ابن رشد ايضاً في كتابه الشهير « فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة من الاتصال » .

الا وهو الفيزياء (العلوم الطبيعية) ، ويجد هناك ابقراط جالساً يعلم قوى الطبيعة وعن طريق دواء الجسم يصل الى شفاء النفس .

يتكلم كوريتوس عن الاساليب المستقرة في الثقافة والتي عرفت « بالفن الحر » الذي ابدع منظمات اساسية للقرون الوسطى والتي يمكن اعتبارها كنموذج اولي للجامعة والذي اعطى على الأقل الوسط اللازم لذلك ، ولم يكن من شأنه ان يبلور النواة لهذا الغرض . وكانت تشاد المباني المشتغلين بالتشريع والإلهيات والطب ، كما بنيت معابد الحكمة وظلت باقية حتى عام ١٤٦٠ ، عندما القى رئيس جامعة فرايبورغ وعظه المأثور من امثال سليمان « الحكمة تبني بيتها » ولكن يعتبر هذا التصريح عن معبد وليس له صفة بناء شامل من أجل « حكمة مدرسية (١) » لجامعة ما .

ان هناك سوابق من اجل العمارة الداخلية وبناء الكليات ، فنماذج بناء الحقوق كانت مقتبسة من مدرسة بولونية (في ايطالية) وخاصة الحقوق الرومانية، وكان نموذج الالهيات مدرسة باريس ، ففيها تطورت فكرة تجسد الكلية الهلينية، وكانت الضرورة ماسة لأنشاء مدرسة للاختصاص في الطب كما هو الحـــال في سالرنو . وكان وضع هذه الاخيرة غامضاً يحتاج الى توضيح ، ومع ذلك كله فهذه منشّطات وتوصيات ، ليس فيها دوافع مركزية ولا مقدمات ثقافيــة تقرر مصير خمسة قرون .

كان الوزن الثقيل في الحركة الثقافية الغربية يقع على تواتر الادراك العربي وتمثله . وجدير بالباحث الوقوف قليلا عند هذه النقطـة واستشارة العالم العربي

---

(١) هكذا في الأصل ، وهذه مأخوذة من الكلمة اللاتينية : **Sapientia Scholastica** (المترجم)

المقارنة والمشابهة ، ساعياً لكشف النقاب عن الابحاث غير الثابتة للقيام بايضاحات جديدة اي محاولة اعطاء تفسير نقطة انطلاق تاريخ العلوم الذي لم يسبر غوره بصورة منتظمة حتى الآن ، متابعاً تواصل تاريخ الطب وخاصة الادراك الغربي الشخص لفهم ومعرفة تمثله عن طريق القرون الوسطى اللاتينية والتي تشمل ايضاً الجامعات الأوروبيــة .

٢ — رائد عهد التأسيس :

يلزم قبل كل شيء سؤال مناهج ومواد تدريس الطب في دائرة الحضارة العربية والفكر المبدع لها . وانه بمقارنة مراكز الدروس العلمية في الشرق والغرب نتوصل الى اثبات قرابة جديرة بالملاحظة في هذا الحقل التاريخي . وتشبه المدرسة العربية المحدودة بالحجرة والجامع ، مدارس العهد القديم والتي كانت متواصلة حتى القرون الوسطى بمدارس الاديرة اللاتينية والكاتدرائيات بعد ذلك. ويوافق مخطط هذه المباني معاهد التراث العلمي حسب نموذج الاسكندرية. نجد امثال هذه المدرسة في نصيبين وأديسا وفي دار الحكمة في بغداد ، وبعد ذلك في قرطبة وطليطلة . وقد وجد تيار الثقافة طريقـــه الى مراكز جديدة في سالرنو وكارتيس ومونبليه وباريس ، واخيراً في اكسفورد وبالرمو . ان هذا هو مسير خطوط موحدة ومعقدة تحمل في كيانها رحابة الصدر ، وبدون معرفة هذا التتابع لايمكننا فهم تأسيس الجامعات في اوروبا، واذا كنا واقعيين اكثر من ذلك فعلينا الاعتراف بان المدارس العربية التي كانت حرة الاسلوب منذ القرن العاشر والحادي عشر الميلادي ، كانت بمثابة اكاديميات خاصة ، وتكاد تكون غير محدودة بأقليم وكان تدريس الطب فيها موحداً . وان البيمارستانات (المشافي) العربيـة والصيدليات ومستودعات العقاقير والمكتبات القيمة ذات الاختصاص تابعة لها .

اثرت حركات الحجاج شرقاً وغرباً منذ القرن الثاني عشر على التنظيات الغربية الظاهرية ، ولكن تأثيرها كان بطيئاً . تبتدىء الجامعات في الغرب عند القرن الرابع عشر ، وكان تحت تصرفها حجرات خاصة . وفي نهاية القرن السابع عشر فان احد فروع الجامعة في كيل قد تأسس في كلية الالهيات وسبب احتجاجات صارخة ، فعدا عن اندية الشعوب وبيوت الزملاء فان ابنية الجامعات لم تقم قبل القرن السادس عشر .

كانت الأهمية في تأسيس الجامعات في اوروبا تعطى للمناهج المستمدة من الحضارة السامية العربية ذات الميزة الخاصة ، ولم تكن هذه الحضارة جامدة تفرض اعتقاداً خاصاً ، بل كان اعتمادها على العقل . وكان الاهتمام في العلوم الطبيعية ايضاً بتفسير النصوص وتجويدها وتواترها ، وكان ذلك عائداً للثقافة الخاصة : القراءة والجدل وهما العاملان الهامان في الثقافة الدرسية اللاتينية . وكانت كل من المناقشة والعرض تخلق جواً من الترويض الذي يضفي ميزة الكفاح الفكري .

ان الهجرة العلمية والنظام المدرسي كانا يتطلبان — كما هو متواتر — « السير في طريق الله حتى يوم القيامة » ، هنا تفتحت الآفاق وحدث الناس على ضوء هذا المنهج لتكون في الشرق والغرب نخبة ممتازة . ومن ذلك نشأت حركة رحلات منقطعة النظير وهي رحلات من اجل التنوير ، وقد شيدت بعض الحجرات لاقامة امثال هؤلاء الرحالة . وقد كان تثبيت المدارس في الغرب في القرن الثاني عشر اي قبل اتخاذ النموذج العربي بمئتي عام . كانت بعض المراكز الثقافية امثال سالرنو وكارتيس ومونبيليه تهيء الراحة للرحالة وتساعد على نضوجهم وبلورة افكارهم . وكانت هذه هي ارض بذور مدارس المستقبل العليا .

يخف حوار العلماء المصريين وجدالهم حول تأسيس وتطور الجامعات

الأولية في الغرب عند التنور بالنظرة العلمية . ففي القرن الثاني عشر تشكلت لجنة ترجمة في طليطلة للمفاهيم العلمية العربية . وترجم بعد ذلك بقليل تراث ارسطوطاليس العربي والطب العربي ايضاً . وكانت هذه الترجمات تتناول حقبة الف عام من الزمن ، وكل ماجاء بعد ذلك يمكن عده من الاضافات .

وضعت اسس التدريس الطبي في القرن الثالث عشر ، وترجمت آثار جالينوس وابقراط ، ولكن لاعن الاصل اليوناني ، بل عن الترجمة العربية ، وترجم كذلك قانون ابن سينا وبعض اقسام كتب الرازي والايساغوجي لحنين بن اسحاق وبعض منتخبات اسحاق اليودوسي (نسبة ليودوس) . وترجمت في القرن الثاني عشر في مونبيليه مجموعة طليطلة وفي مطلع القرن الثالث عشر كانت معروفة في اكسفورد وتشمل بصورة خاصة الطب ، ويمكن اثبات ذلك من مصنفات جميع الكليات . وقد قدم احد المرشحين للدكتوراه في جامعة كيل عام ١٨٢٩ بعض تفسيرات لمقتطفات ابقراط . ويمكن البرهنة في — دون صعوبة — على أن المجموعة الطليطلية في القرن الثاني عشر كانت اساس مواد التدريس في جميع الجامعات الأوروبية . وهكذا كتب كليان الخامس في ٨ ايلول ١٣٠٨ بأن الشرور المشؤومة والأمراض والكوارث والأزمات والاحراجات تقضي عليها الأدوية المفردة والابداعات الصحية . ويأتي على امثلة من ذلك من قانون ابن سينا وطب الرازي وقسطنطين واسحاق وابقراط حسب التواتر العربي . وفي عام ١٥٣٣ — اي بعد مضي ٢٢٥ عاماً على الترجمة الطليطلية — كان المعوّل في الطب ايضاً على ابن سينا وجالينوس وابقراط . وكانت مونبيليه في اواخر القرن السادس عشر تقوم باصلاحات علمية مستعينة بكتاب القانون لابن سينا (فهذا الكتاب كان العمدة في تدريس الطب حتى ذلك الزمن) :

ان حركة الترجمة التي قامت بها طليطلة كانت تتناول ايضاً الطب المنصوري للرازي وتشريح ابي القاسم الزهراوي وقانون ابن سينا وغير ذلك من المصادر العربية ، كما بين غرهارد القرموني ، وكانت هذه الحركة مسيطرة على اوروبا مدة تقرب من خمسة قرون، وكان يلحق بالأكاديميات على نمط طليطلة المجادلات ومناهج التعليم ومراكزه . وبينما كان الاساتذة في البدء فقراء ولا وطن يؤويهم ولا راتب لهم ، يعيشون مشردين، تدفع لهم مساعدات من الطلاب في ايطاليا ، اصبح لهم في مجال الطب منظمات ورواتب ثابتة ، ويعطى للطلاب الشهادات والاجازات مع أخذ موافقة الحكومة ايضاً ، وبذلك قطع دابر التدجيل . اننا لنجد امثال هذه التنظيمات عند روغر الصقلي وجنديسالينوس الطليطلي في القرن الثالث عشر وكذلك فريدريك الثاني الشهير (ملك صقلب) وبعد ذلك في انظمة كليات الطب المختلفة .

ان هذه التنظيمات المقدة المتحدرة عن الحضارة النامية العربية ، نجدها في مدرسة الطب في سالرنو والتي اتت عن طريق طليطلة في منتصف القرن الثاني عشر والتي انتشرت الى المراكز العلمية في كثير من المدن الغربية ، وبذلك نكون على علم تام بحركة الوعي هذه وفي جميع تحولاتها وتدرجاتها[١] . ونشاهد كذلك كيف كان روّاد الدراسة العربية امثال قسطنطين الأفريقي في سالرنو وادولار الباثي في انكلترة ودومو نيكوس جنديسالينوس في طليطلة يسيرون تحت راية العلوم الحديثة . ولا يمكن فهم ازدهار الجامعات وتقدمها في الغرب دون الرجوع الى هـذا التمثل الغربي للتراث العربي في المراكز الثقافية مثل سالرنو وكاوتس

(١) كتب المؤلف موضوعاً بعنوان مدرسة طليطلة واهميتها للغرب، تقرير جلسة ماربورغ (باللغة الالمانية) ٢٨٢ ١٨/٣/١٩٦٠ .

واكسفورد وبالرمو وباريس . وعن هذه الطريق يمكننا معرفة النبضات الجديدة للحوادث المتشابكة . وليس من قبيل الصدفة مشاهدة هذا التمثل يمشي مع نشوء الجامعات جنباً الى جنب. ولمعرفة هذا التمثل علينا القاء نظرة عابرة على تنظيم المدارس العليا في القرون الوسطى .

٣ ــ حول تنظيم المدارس العليا :

ان الابحاث الجديدة حول ماهية الجامعات في القرون الوسطى لم توصلنا الى تحديد الجامعات بصورة نهائية ، ولكن تمطينا معرفة الميزة الخاصة في نشوء الدراسات الشاملة وتنظيم المدرسين والدروس . وتظهر هذه الميزة في قبول المعلمين والتلاميذ وبعد ذلك في الأوقاف التي تجري على مثل هــــذه المعاهد من البابوات والملوك بتشريع خاص . ويضاف الى ذلك منح الاجازات التي فيها ضمان متابعة جهاز التدريس .

ولتنظيم هذه المؤسسات المشكلة من هيئة التعليم والتعلمين كان لا بد من الاهتمام بالمــــادة الدرسية . وبهذا التحديد يلزم أن لا يغيب عن فكرنا العناية بالاقوام (التي ينتسب اليها الطلاب) والكليات التي أعطت شكل بناء الجامعــات في المستقبل .

اشرنا سابقا الى نماذج المعاهد العربية والمادة الدراسية فيهــا ، ولاعطاء صورة صادقة عن ذلك نرى من الضروري دراسة تلك التنظيمات ذاتهــا أي تلك المدارس بعينها ، ولا يمكننا في مثل هذا المقام الا الاقتصار على مثال واحد فقط . في عام ١٠٦٥ تأسست في بغداد المدرسة النظامية . وقد انحلت في القرن الخامس عشر . ودشنت هذه المدرسة بحفلات رسمية رائعة وذلك في عام ١٠٦٧ ، ويعتبر

هذا التاريخ في الغرب تاريخ الانشاء . وان الاساتذة الذين درّسوا فيها كانوا معروفين من بينهم : ابو اسحاق الشيرازي وخليفته ابو نصر بن الصبّاغ[1]. ونحن نملك مخططات مفصلة لأبنية مثل هذه المدارس ، فقد كانت على شكل مربع تحيط بها حديقة وحاوية على قاعات للمحاضرات وغرف للجلوس ومكتبة مركزية وملحقات فنية من عنابر ومستودعات ومطبخ وحمام .

كان يجري تعيين الاساتذة في هـــذه المدرسة بمرسوم وزاري . وكان الاستاذ الجديد يلقي المحاضرة الاولى أمام أصحاب المناصب وتعقبها المناقشة وتكريم الاستاذ الجديد ، و كثيرا ما كانت تجري هذه الحفلات بحضور الخليفة ذاته . وبعد ذلك يدعو الاستاذ الى مأدبة ، وينظم الاساتـــذة المحاورات المدرسية ويقوم المعاونون بدورهم كمعيدين . وكانت هذه المدرسة تقدم في منتصف القرن الحادي عشر منهاجا عاما في نظام المدارس الاسلامية العليا[2] ان انعكاس تأسيس مثل هذه المدرسة يمكن ان يراه الانسان في اكاديمية بغداد بعد ذلك وخاصة في المدرسة المستنصرية . وقد بعث هذه المدرسة الى الحياة الخليفة المستنصر في عام ١٢٣٢ . وكانت تشمل اربعة ابنية ضخمة وفيها بصورة خاصة بناء لتدريس الطب والصيدلة والعلوم الطبيعية وألحق بها ايضا بيارستان (مستشفى) ومطبخ مركزي وحمامات ومستودعات . كانت العلوم الوصفية تحظى بأهمية كبرى في هذه المدرسة والرياضيات

---

(١) كان الامام الغزالي المعروف بحجة الاسلام مدرسا في هذه المدرسة التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا الى الكتاب الذي ألفه المرحوم الدكتور أسعد طلس باللغة الفرنسية عن التعليم عند العرب وعن المدرسة النظامية وتاريخها ، ونشره في باريس عام ١٩٣٩ . ومن دواعي الفخر أن نجد كتابه هذا صداه في الغرب (المترجم)

والطب وكان يعتني باللغة الى جانب دروس الدين . وكانت تدرس الهندسة والمعرفة الطبيعية والصيدلة والصحة بصورة افرادية . أدرك المغول أهمية مثل هذه المدرسة، فبعد أن خربوا قسماً منها عند اغارتهم على بغداد في عام ١٢٥٨ ، قاموا هم بأنفسهم باعادة بنائها من جديد . مما لاشك فيه ان هذه الاكاديميات الجديرة بالاعتزاز والوعي الحماسي لموادها الثقافية ، كانت معروفة في شكلها الظاهري منذ منتصف القرن الثاني عشر عند اولئك الذين كانوا يشدون الرحال الى الشرق. وكانت تنمو في بغداد العربية وقرطبة الاندلسية بذور جمهوريات العلماء ، كما هو الأمر في طليطلة الاسبانية وباريس الفرنجية . واصبحت منذ القرن السابع عشر تعرف باسم « جمهورية الأدب » وتشابه الى حدما تطور الأدب الشامل المبسط (١) . كان يهدى الى الناشئة من العلماء من كلتا الحضارتين (العربية والأوروبية) مايلزم من كتب أدبية ، وتعرف هذه الهدايا في المحيط اللاتيني بالزاد ، وقد استفاد من ذلك قسطنطين الأفريقي في سالرنو . وكان قد طبقها العرب منذ عصور قديمة ، واعطوا لها عناوين مزدهرة مثل « مؤونة الطريق » او « منارة الصراط » . مما يجلب الانتباه ان تأسيس الجامعات في القرن الثالث عشر في المحيط الاسباني الفرنجي الايطالي ، كان في مراكز الثقافة كسالرنو وطليطلة ومونبيليه .

وفي المحيط الاسباني في بلنسية (١٢١٢) وسالامانكا (١٢٥٤) وكوامبرا (١٢٨٨) وفاللادوليد (١٣٠٤) . اما في ايطاليا فقد كانت الدراسات الجامعية في

---

(١) يشير المؤلف هنا الى فصل (من ارسطوطاليس الى لايبنتز) من كتاب (الاوائل والغرب) ، للمؤلف اينغامبردوريغ ، ج ٤ ، عام ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ .

Ingemar Duering, von Aristoteles bis Leibniz. Antike und Abendland.

بولونيا ونابولي (١٢٢٤) وبادوا (١٢٢٢) . وفي فرانسة ، في مونبيليه (١٢٣٩) وتولوز (١٢٢٩) وباريس (١٢١٩) واوراثان (١٢٣٥) . وكانت هناك تيارات قوية الى اكسفورد وكامبريج في بريطانيا . ويمكننا اثبات تأثير العلوم العربية في هذا المحيط من عالم الغرب عن طريق المخطوطات العديدة والشخصيات العربية البارزة .

تأثير الدراسة العربية على تطور الجامعات

لايقتصر تأثير الدراسة العربية على ماهية المدارس العليا الأوروبية فحسب ، بل يتعدى ذلك الى النزعة الانسانية والاحياء والتنوير . وان فك رموز هذا التواتر وما يتبعه من ثقافة منشطة ، وكذلك من اثقال معيقة برز في الحقيقة الى حيز الوجود بطرق ملتوية في الزمن الحديث .

كانت التأثيرات بطرق مختلفة ، ولفهمها جيداً لابد من معالجتها بصورة منتظمة ، اذ يلزم فحص ذلك بصورة منهجية كافية : اولاً متابعة الخطوط الثقافية وحتى المشاكل الأدبية غير المرئية في القرن السابع عشر والثامن عشر والتي كثيراً ماكانت تسبب الحيرة . ثانياً دراسة الشخصيات البارزة من القرن السادس عشر والسابع عشر . واخيراً وليس آخراً دراسة المصنفات من القرن الثالث عشر الى الثامن عشر ، ويضاف الى ذلك متابعة مناهج التدريس .

اما مايخص تاريخ الكليات فتقدم لنا هامبورغ على مايظهر مثلاً جميلاً بأن تأسيسها كان تحت الراية الأرسطوطاليسية الباريسية (بالثوب العربي) ، وكذلك الأمر في كولونيا . ونجد تأثير الدراسات العربيـــة في الجامعات

البروتستانية(١) الريفية مثل كيل Kiel في القرون الأولى من نشوئها أي ١٦٦٥ — ١٧٦٥ ، والتي صارت مدرسية جامدة .

مما يدهشنا أيضاً تواتر بعض شهادات بعض الاطباء والبحاثين في الطبيعة من القرون الوسطى المتأخرة والمطلة على العصر الحديث . ويعتبر باراسيلزوس (٢) الشخصية الممثلة لهؤلاء الاطباء . نعم لم يكن هذا الطبيب في اي حال من الاحوال بحاثة في الطبيعة بالمعنى العصري ولا رائداً للعلوم الطبيعية الجديدة ، ولكن هذا النابغة الذي حطم المعبد المدرسي في جهوده الاصلاحية وكان مرآة للتيارات الثقافية الجديدة التي انصبّت في عهده في الغرب من ينابيع مختلفة ، كان يمت بصلة وثيقة الى التراث العربي .

أما مايخص الأدب في النهاية ، فقد عثر كورادعستوفي ماشر عن مكتبة الجامعة ، وهي اسفار الطليطلي غرها رد القرموني او مانسمى « تمثال النور » والذي احتفل به مراراً ، فهو برهان على الاعتراف بفضل المجلس الطليطلي في عهد النزعة اليونانية الانسانية (بثوبها العربي) .

اذا قمنا بتحليل المصادر العربية بدقة في تأثيرها على الجامعات الاوروبية حتى الأزمنة الحديثة ، فاننا نحصل على صورة تاريخية تسترعي النظر ، فان الرسوم الفنية بين عهد الاحياء والتي وجدت صدى في نفوسنا لا تنطبق على هذه الصورة .

---

(١) ذات النزعة البروتستانتية الدينية .

(٢) ولد هذا العالم والطبيب عام ١٤٩٣ اي بعد سنة من سقوط غرناطة واقتبس مفهوم « الكحول » عن العلماء العرب حول كلمة الكحول . انظر محاضرتي في المؤتمر العلمي العربي الثالث في بيروت ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٠ . (المترجم)

نعم قد تكون لها أهمية من وجهة تاريخ الفن والشعور بالحياة والسياسة والدين وتاريخ الاقتصاد ، اما من اجل الخطوط الكبرى لتاريخ العلم فهي اقل تأثيراً ، لأن تلك الخطوط هي اكثر تعقيداً مما نظن وليس لها مفهوم مغلق ونهائي . وان تحديد بدء تاريخ العلم المصري بعهد الإحياء قد اصبح غير كاف وليس له صلاحية التطبيق على هذه العصور .

الخلاصة : يمكننا اعطاء غروندمان الحق بأن تأسيس الجامعات في الغرب كان عفوياً ، جاء من الحاجة الملحة للعلم دون سابق نموذج عن بصيرة واعية . ونتساءل لماذا يا ترى غفلنا عن التراث العربي؟ فان هذه الحضارة الوسيطة في القرون الوسطى قامت بدور عامل التماس[1] الذي جعل تراث الاوائل فعّالا .

٢ — لا يمكننا طبعاً اعتبار نشوء الجامعات في الغرب بضاعة مستوردة من العرب فقط ، ولا من نموذج حركة الوعي ، بل ان تياري الوعي والتمثل التقيا في ذلك المركب الواقعي السامي من العلوم العربية في الجامعات الأوروبية ، وكان هذا العلم الجديد بمثابة خميرة أثرت في النزعة المدرسية وتطوراتها فيما بعد .

٣ — اما مايخص التطورات الاخرى في حل هذه المشكلة ، فاننا نجد

---

(١) عامل التماس في الكيمياء هو الجسم الذي يؤثر في التفاعل دون أن يتأثر ظاهراً ، فلا يزداد وزنه بعد التفاعل ولا ينقص كالبلاتين مثلاً في استحصال حمض الكبريت من بخار بلا ماء الكبريتي والأكسجين والماء . وهذا العامل يذكرنا بالإكسير الذي يحلم الكيميائيون القدامى بالحصول على الذهب بواسطته (المترجم)

(*) هذا ماترجمته من مقال شوبرغز مع اختصار بعض العبارات التي هي على الهامش . وان هذا البحاثة هو من علماء الالمان الذين يقدرون الحضارة العربية حق قدرها . علّ هذا الموضوع يوقظ فينا الحمية في دراسة وتقدير حضارتنا ، ويشق طريق الهمم الى اعادتها . — المترجم —

تقليداً اكاديمياً لا يستند على متابعة النزعة الانسانية ولا يربطنا بالعهود القديمة الاتباعية ولا بعهد الإحياء الذي ختم دور القرون الوسطى وظهر بصورة إعجاز وقاد الى ولادة العلوم الطبيعية ، بل نصادف في كل خطوة ومسيرة الحضارة السامية العربية .

ان هذا الوطن الحضاري كان الحقل النموذجي للثقافة العربية وترك لنا آثاراً عديدة يجب علينا اعتبارها في تفسير نشوء الجامعات في الغرب . وان تتبع هذه الآثار في دراسة الحقول الثقافية الواسعة هو من الضرورة الملحة ، لأن ذلك يعطي لنا صورة صادقة عن جهود العرب في نقل العلوم من العالم القديم الى العصر الحاضر .



افريقية والنضال ضد الاستعمار الثقافي

بقلم نعيم قداح

لايقتصر خطر الاستعمار في افريقية على استغلال اقتصاديات وثروات الشعوب . فان خطره يتبدى في جوانب اخرى من الحياة وبخاصة مايصيب منها الثقافة الافريقية .

وان السياسة الاستعمارية في ميدان الثقافة تختلف باختلاف فلسفة المستعمرين وطبيعة حضارتهم ذلك لانه لايمكن التسليم بان مايجري في المستعمرة على الصعيد الثقافي يمثل حضارة الشعوب الأوروبية لأن المتحكمين في المستعمرة هم طبقة من اصحاب المصالح تضلل شعبها في اوروبة وتستغل الشعب الافريقي .

فالمستعمر الفرنسي والبرتغالي — شأنه شأن المثقف اللاتيني — يرى ان ثقافته شرف يفتخر به اهل المستعمرات وينبغي ان يجهدوا للاخذ بها . والبرتغاليون والفرنسيون حين يعلمون الفرنسية والبرتغالية لايتيحون ذلك للافريقيين كافة بل ينتهي التعليم باللغة في المرحلة الابتدائية ولايسعف الحظ الافريقي في مواصلة تعليمه بها إلا اذا كان من الصفوة التي تثق بهما فرنسا والبرتغال ولهذا يتميز المستعمر الفرنسي والبرتغالي بظاهرتين اساسيتين .

الأولى : تجاهل اللغات المحلية بغيـة خلق جيل يتحدث بالفرنسية والبرتغالية وقطع الطريق على كثيرين بعدم انشاء المدارس الثانوية والمعاهد .

والثانية : ان فرنسا والبرتغال تقومان بتعليم الافريقيين دون شعور قوي بالتمييز العنصري ، فتنشران لغتيها بـين الافريقيين على انها تنتشران بين شعوب وفي ارض هي امتداد لفرنسا والبرتغال فيما وراء البحار . اما المستعمر الانكليزي فانه على النقيض من غيره يسافر الى المستعمرات بارستقراطيته التي تجعله يرى ان نفوذه يقوم على جهل او تجاهل من يعيش معهم في المستعمرات ، فهذا المستعمر لايرى ان يتشبع الافريقيون بتراثه بل انه ينظر اليهم على انهم بقرة حلوب صلته بهم صلة منفعة ومن هذا نرى ان المستعمرين البريطانيين يسمحون بنوع من التعليم يصل الى مستوى المعاهد العالية على ان يقوم بالتعليم في المدارس رجال تدربوا تدريباً خاصاً في انكلترا تشرف عليه وزارة المستعمرات .

والانكليز يسمحون بتعليم اللغات المحلية بقصد مواجهة الضغط الشديد للغة البلاد المستعمَرة كالسواحلية في شرق افريقية واليوروبا في نيجيريا، وكانوا يقصدون من ذلك الى اجبار الافريقيين على كتابة اللغات المحلية بالحروف اللاتينية بعد ان كانت تكتب بحروف عربية وذلك قطعاً لكل صلة بين الافريقيين والعرب .

أما الاستعمار البلجيكي فله مخطط آخر يشاركه فيـه الاستعمار البرتغالي ويقوم على عدة شعارات مثل نشر الحضارة والرعاية .

فالبلجيكيون والبرتغاليون اصحاب رسالة ، كما يزعمون ، يحملونها الى شعب قاصر كالطفل

ويتركون للمبشرين بث هذه المفاهيم في المؤسسات المختلفة . وهم ينشرون التعليم الابتدائي فقط باللغة الفرنسية ويقللون من التعليم الثانوي ، ويمنعون عن الافريقيين التعليم الجامعي . ففي يوم استقلال الكونغو لم يكن هناك أي جامعي افريقي يحمل اجازة علمية أو ادبية . وقد جاء على لسان وزير المستعمرات البلجيكي السابق تصريح يدل على تبني بلجيكا لهذا الاتجاه بقول الوزير : ان الحضارة لاتفتقر الى قليل من الافراد وحسب لأن هدف الحضارة هو رفع الشعب في مجموعه الى مستوى أعلى ، ونحن نرى أن هؤلاء الذين يزورون اوربا ويثقفون تماما عاماً فيها لايعودون الى بلادهم بروح الحضارة الاوربية التي نهلوا منها ولكنهم يعودون بروح معادية للبلد الذي فتح لهم ابواب الحضارة. ويؤكد الوزير ان ثلث سكان الكونغو قد اعتنقوا المسيحية وهو واثق من ان مستعمرات بلجيكا السابقة ستصبح اعظم دولة مسيحية وهو بهذا يؤمن بأن الحضارة مقترنة بانتشار المسيحية فعلى الافريقيين أن يعتنقوها فيكفيهم الله شر التعليم . ولكن بلجيكا منذ عام ١٩٥٤ قد اضطرت تحت ضغط الروح الوطنية الى فتح بعض الكليات التابعة لجامعة لوفان .

ومنذ عام ١٩٥٩ استيقظت القارة الافريقية ، واصبحت في تطور مستمر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ، ولذلك فهي تبذل جهوداً جبارة للنهوض بالتربية والتعليم حتى أن بعض الحكومات تنفق مايزيد على ٢٠٪ من ميزانيتها في هذا المجال . وبالرغم من ذلك ، ومن مضاعفة عدد التلاميذ الذين يلتحقون بالمدارس خلال السنوات العشر الماضية ، فاننا نجد أن حوالي ١٦٪ فقط من الاطفال ممن هم في سن التعليم يجدون لهم اماكن في المدارس . وتهبط هذه النسبة في بعض الدول الى ٢٪، بينما تصل في القليل منها الى (٦٠٪) . ويمكننا ان نجمل احتياجات القارة الافريقية في ميدان التربية والتعليم فيما يأتي : الابنية المدرسية ، والمعدات والادوات ، والكتب المدرسية والمعلمين ، والحاجة الى اصلاحات واساليب جديدة في التعليم الفني والتعليم الريفي وتعليم البنات وتعليم الكبار ومحو الامية والتعليم العالي والحاجة الى تعديل المناهج والبرامج الدراسية .

فمن ناحية المباني المدرسية تعاني الدول الافريقية نقصاً كبيراً فيها ، وخاصة بالنسبة المرحلة الابتدائية ، لأن بعض المباني الموجودة حالياً غير مناسبة على الاطلاق لاغراض التعليم ، وكما قال وزير التربية والتعليم في باسوتولاند « اننا نجد فصول المرحلة الأولية مبنية من الطين والقش ، وخالية من الأثاث تماماً » . وعلى سبيل المثال تحتاج اثيوبيا الى ٨٢ الف صف للمرحلة الاولى و ١٨ الف صف للمرحلة الثانوية ، كما أن غينيا تحتاج الى عشرين الف صف ويذكر وزير التربية في جمهورية الكاميرون في بيان له ان عدد الفصول الصالحة في بلده لايتجاوز ثلث الموجود منها . وكل هذا يعطينا صورة عن ضخامة هذه المشكلة .

ويعمل الافريقيون في كثير من الدول المستقلة على تشييد المدارس الجديدة أو توسيع الموجود منها لاستيعاب العدد المتزايد من التلاميذ ، ولكن هذا لايحل المشكلة . واذا انتقلنا الى التعليم الثانوي والتعليم العالي ، نجد ان الاحتياجات لاتقتصر على بنـــاء المدارس بل تتضمن ايضاً بناء مساكن للطلبة والمعلمين والموظفين ، وغيرهاس مقتضيات التعليم . والتوسع في التعليم الابتدائي يتطلب توسعاً في التعليم الثانوي والعالي لسد حاجة التعليم الابتدائي من المعلمين وغيرهم من ذوي الثقافة الثانوية وكل ذلك يتطلب - بطبيعة الحال - البحث عن طرق سريعة واقتصادية لتصميم واقامة مباني مدرسية مبسطة تناسب مختلف البيئات الافريقية ، مع مراعاة الاحتياجات التربوية وتزويدها بالتجهيزات والادوات اللازمة .

أما من ناحية المعدات والادوات ، فان الدول الافريقية تشعر بالحاجة الى معدات وادوات في جميع مراحل التعليم ، وبخاصة في التعليم الفني والمهني والعالي . وتشتد هذه الحاجة في الفصول والبرامج الجديدة ، التي يجب ان تكون مسايرة للتطور العلمي الحديث . وفي اغلب الاحيان تشتري هذه الادوات من خارج القارة الافريقية ، نظراً لطابعها العلمي المتخصص مما يقتضي توفير عملات اجنبية لشرائها .

أما الكتب المدرسية ، فان المدارس الافريقية تحتاج الى كتب لجميع مراحـــل التعليم . ويلاحظ ان معظم الكتب التي تدرس في المدارس الافريقية اجنبية اعدت لابناء دول وبيئات اجنبية ، ولا تتمشى مع ظروف التعليم في افريقية ، ولذلك لزم اعادة تأليفهـــا بحيث تتفق مع احتياجات التعليم الافريقي ومع المناهج الجديدة ، وتساير النهضة العلمية والثقافة الحديثة ، وتزود التلميذ الافريقي بثقافة بلاده ، وتعرفه بتاريخها وحضارتها وجغرافيتها ، وكل ذلك يتطلب وقتاً ومالاً وجهداً . وقد بدأت بعض البلاد الافريقية - مثل غانا - في هذا الطريق .

أما عن المدرسين ، فليست المشكلة مشكلة نقص شديد في عددهم فقط ، بل هي أيضاً مشكلة ضعف مستواهم ، فمعظمهم لم ينالوا الاعداد الكافي والتأهيل المهني المطلوب ، وتقتصر مدة اعـــدادهم على برامج قصيرة مؤقتة لمن اتموا الدراسة الابتـدائية او الثانوية على الاكثر . في الوقت الذي يجب فيه توفير عدد اكبر من المعلمين ، ينبغي العمل على رفع مستوى المدرسين العاملين عملياً . ولا يمكن في اغلب الاحيان اعطاء أولوية لمرحلة على مرحلة أخرى ، اذ ان التوسع في التعليم الابتدائي يتطلب توسعاً في التعليم الثانوي لسد حاجة التعليم الابتدائي من المعلمين ، كما أن التوسع في التعليم الثانوي يتطلب توسعاً في التعليم الابتدائي لتزويد المدارس الثانوية بالتلاميذ . إذن يجب على الدول الافريقية ان تعمل على ايجاد توازن بين هذه المراحل . كما يجب عليها ان تعالج مشكلة عدم الاقبال على مهنة التدريس ، بسبب ضآلة المرتبات التي تعطى للمعلمين .

وبالنسبة للحاجة الى اصلاحات واساليب جديدة في بعض انواع التعليم فان هذه الحاجة تنبع من صميم الحياة الافريقية . فاننا نجد أن التعليم الفني والمهني يكاد يكون منعدماً في كثير من الاقطار الافريقية سواء في المستوى المتوسط أو الثانوي او العالي . ولذلك فان الحاجة الشديدة تدعو الى ايجاد هذا النوع من التعليم في البلاد التي لايوجد فيها والى التوسع فيه وتطويره في البلاد الاخرى ، حتى يمكن توفير القدرات اللازمة من القوى البشرية على مختلف مستوياتها وهنا لابد أن يتضمن التعليم الفني برامج في الزراعة والصناعة والحرف المختلفة والاعمـــال التجارية . وان اقتصاد افريقية يعتمد اعتماداً كليـــاً على الزراعة ، ولذلك يجب أن تكون مناهج التعليم الابتدائي والثانوي متمشية مع البيئة الريفية ومسايرة لاحتياجات الريف ، بقصد زيادة الانتاج الزراعي ، وتحسين حياة المجتمع الريفي ، وزيادة فرص العمل في انحاء الريف ومكافحة النزوح من القرى الى المدن . كما ان التخلف في تعليم البنات واضح جداً في الأقطار الافريقية وتشير الاحصائيات الى ان ثلاثين في المئة فقط من تلاميذ المرحلة الابتدائية من البنات . ولا تزيد نسبة البنات في التعليم الثانوي عن (٢٢٪) . ولذلك فان الحاجة ماسة الى الاهتمام بتعليم البنات ، لشدة الحاجة الى جهودهن في الاعمال التي تصلح لها المرأة بطبيعتها كالتدريس والتمريض وتربية الاطفال وغير ذلك . والامية شائعة في افريقية لدرجة كبيرة ، حتى أن عدد الذين لايعرفون القراءة والكتابة في افريقية يزيد على مائة مليون نسمة ، مما يعوق تقدم هذه القارة . ولذلك يستدعي الامر بذل الجهود الجبارة لتنفيذ برامج محو الامية بين الكبار ، على ألا تقتصر هذه البرامج على تعليم القراءة والكتابة والارقام فقط ، بل يجب أن تتضمن ثقافة خاصة ، تعمل على تنمية الوعي بين الكبار ، وعلى تحسين مستوى انتاجهم ومعيشتهم . ومعظم الدول الافريقية تحس احساساً عميقاً بالنقص الشديد لتعليم العالي ، واثنان في الالف ممن هم في سن الدراسة الجامعية هم الذين يلتحقون فقط بالمعاهد العليا في افريقيا ، وتوفير احتياجات التعليم العالي في الوقت الحاضر في افريقيا يتطلب جهوداً كبيرة في وضع الخطط لتشييد المعاهد العالية الجديدة وانشاء الجامعات والكليات الفنية ومعاهد البحوث والمعامل وغير ذلك .

أما عن الحـــاجة الى تعديل المناهج والبرامج الدراسية في افريقيا ، فان البرامج والمناهج الموجودة حالياً في معظم انحاء القارة دخيلة وغريبة ولا تتفق مع المجتمع الافريقي وتقاليده وحضارته ولذلك يجب تعديلها تعديلا جذريا ، بحيث تتمشى مع البيئة الافريقية ، وتعمل على تنشئة ابناء القارة تنشئة قومية .

هذه باختصار الاحتياجات التعليمية في افريقيا ، وقد وجهت هيئة الامم المتحدة للتربيـــة والعلوم والثقافة — اليونسكو — اهتماماً كبيراً لهذا الموضوع . فناشد المؤتمر العام الحادي عشر

لهذه الهيئة ، الذي عقد في باريس في اواخر عام ١٩٦٠ ، الدول الاعضاء أن تساهم في التوسع في التعليم في افريقية ، وان تكون هذه المساهمة في ميادين مختلفة كالابنيـــة المدرسية ، وانتاج المواد اللازمة للتعليم ، وايفاد الخبراء ، وتقديم المنح الدراسية .

ثم دعت منظمة اليونسكو واللجنة الاقتصادية الافريقية للامم المتحدة ، الى عقد مؤتمر في أديس ابابا في المدة من ١٥ — ٢٥ ايار سنة ١٩٦١ لدراسة تطوير التعليم في افريقية . وكان هذا المؤتمر هاماً حقاً في تاريخ اليونسكو وفي تاريخ افريقية ، فقد اشتركت فيه ٦٣ دولة منها ٣٦ دولة من افريقية . كما اشتركت فيه عشر من المنظمات الدولية المتخصصة التابعة لهيئة الامم المتحدة ، كمنظمة العمل الدولية ، ومنظمة الصحة العالميـــة ، ومنظمة الاغذية والزراعة . هذا بالاضافة الى اثنتين وعشرين مؤسسة وجمعية دولية غير حكومية ، مثل المعهد الدولي للعلوم الادارية ، والاتحاد الدولي لحرية التعليم ، والاتحاد النسائي الدولي .

وقد بحث المؤتمر في جلساته العامة اربعة موضوعات هي :

١ — الاحتياجات التعليمية التي يتطلبها التقدم الاقتصادي والاجتماعي .

٢ — التعليم باعتباره احد الأسس التي تنهض عليها التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٣ — أشكال التعاون الدولي في وضع وتنفيذ برامج التوسع التعليمي في افريقية .

٤ — تطوير التعليم من حيث علاقتـــه بالاطار الثقافي والاجتماعي في افريقية .

وناقشت اللجان الفرعية المنبثقة عن المؤتمر موضوعات : تمويل التعليم ، وعملية تخطيطه ، وبرامجه ومستلزماتها ، واعداد المعلمين وتدريبهم ، والتعليم المهني الفني وتعليم الكبار .

وقد اتخذ المؤتمر قرارات هامة في هذه الموضوعات ، أهمها أنه وافق على مشروع اطلق عليه اسم « خطة أديس أبابا » ، ووقع على هذا المشروع مندوبو ٣١ دولة افريقية وانكلترا وفرنسا وبلجيكا واسبانيا . ويتضمن هذا المشروع برنامجين : أولهما قصير المدى (١٩٦١ — ١٩٦٦) والآخر طويل المدى ، يمتد من ١٩٦١ — ١٩٨٠ .

ويتعلق البرنامج الأول ، بصفة خاصة ، بمسائل التعليم الابتدائي ، بحيث يزيد عدد التلاميذ

من ١١ مليونا الى ١٥ مليونا في عام ١٩٦٦ ، أي من ٤٠٪ الى ٥١٪ من مجموع الأطفال ، الذين يبلغون سن دخول المدارس ، وبحيث تزيد أيضاً نسبة التلاميذ الذين ينتقلون من المرحلة الابتدائية الى المرحلة الثانوية من ٣٪ سنة ١٩٦١ الى ٩٪ سنة ١٩٦٦ .

أما برنامج السنوات العشرون، فيتضمن تعميم التعليم الابتدائي في جميع أنحاء القارة الافريقية ، وزيادة نسبة التلاميذ الذين ينتقلون منه الى التعليم الثانوي الى ٣٠ ٪ ، ويتضمن هذا البرنامج أيضاً تقدماً كبيراً في التعليم العالي ، فبمقتضاه يتاح لعشرين في المائة من الحاصلين على شهادات انهاء التعليم الثانوي الالتحاق بالتعليم العالي . ومعنى ذلك أن نسبة الجامعيين التي لم تتعد ٠٫٢ ٪ من مجموع طلبة التعليم الابتدائي في سنة ١٩٦١ سوف تزيد الى ٢٪ أي بزيادة قدرها عشرة أمثال .

يتضمن المنهاجان تنمية واسعة فيما يتعلق بتكوين المعلمين في جميع المستويات وكذلك التوسع في التعليم المهني والفني وتعليم الفتيات ومحو الأمية ، ووسائل سد النقص في المباني المدرسية ، وتحسين الكتب المدرسية كما وكيفا .

ويقع جزء كبير من الأعباء المالية التي يقتضيها هذان البرنامجان على عاتق الدول الافريقية نفسها . وبهذه المناسبة وافق مؤتمر أديس أبابا على توصية تقدمت بها اليونسكو مع اللجنة الاقتصادية تقضي بأن ترفع الدول الافريقية النسبة المخصصة للتعليم في ميزانياتها من ٣٪ سنة ١٩٦١ الى ٤٪ خلال السنوات الخمس التالية فالى ٦ ٪ خلال سنة ١٩٨٠ . وتقدر الاحصائيات تكاليف برنامج السنوات الخمس بـ ٣٧٩٠ مليون دولار . تدفع منها الدول الافريقية ٢٤٨٠ مليون دولار ، والمبلغ الباقي وقدره ١٣١٠ مليون دولار يسدد من معونة خارجية أهلية ودولية .

ووافق مؤتمر أديس أبابا في جلسته الأخيرة على قرار ينص على دعوة منظمة اليونسكو الى الاتصال بجميع المنظمات الدولية والحكومات والمعاهد العامة أو الخاصة التي يمكنها أن تتقدم بمساعدة صادقة ، ومطالبتها بالمساعدة المالية في المشروعات التي أوصى بها المؤتمر . وبصدد هذه المعونة الأجنبية بدت الحاجة ماسة الى الخبراء والفنيين من المستويات العالية ، الذين تكون مهمتهم المعاونة في وضع الخطط وتشكيل هيئات الاشراف والتوجيه ، وروعي أثناء مناقشة نقطة المعونة الأجنبية أن تكون غير مشروطة وحرة من أي قيد ، وان تكون موقوتة بفترة معينة ، تعمل خلالها الدولة المانة على تطوير نظمها بحيث تستطيع تحقيق الاكتفاء الذاتي لوطنها ، وان ترتبط المعونة بالمنظمات الدولية حتى تكون بعيدة عن أي صبغة سياسية معينة وتتفق مع السلام العالمي والتفاهم الدولي . وفي هذا الشأن جاء في خطاب مندوب الجمهورية العربية المتحدة في المؤتمر ما نصه :

« ان أية دولة تعتمد على المعونة الخارجية لفترة طويلة من الزمن ، انما تقوض دعائم استقلالها ، اذ من غير المعقول أن تستمر أية دولة من الدول المعينة على بذل المعونة الى أجل غير مسمى . يجب أن تكون لدى الدولة المعانة الثقة التي تمكنها من الوقوف على اقدامها فوق أرض ثابتة والاعتماد على نفسها في نضالها في معركة التربية والتعليم ، ومن أجل ذلك ، يجب أن نضع نصب أعيننا أن أية معونة خارجية انما هي معونة موقوتة ، وعلى كل دولة معانة أن تضاعف جهودها في سبيل استثمار مواردها الطبيعية وزيادة دخلها القومي وتنمية مواردها البشرية وتدريب شبابها على تحمل المسؤولية الكاملة لكي يتسنى لها أن تستغني عن المعونة الخارجية في أقرب وقت مستطاع » .

وقد ساهمت دول كثيرة في مشروعات التعليم في افريقية . من هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية ، وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، والهند ، والجمهورية العربية المتحدة . كما يقول السيد مندوب الجمهورية العربية المتحدة في مؤتمر أديس أبابا « ان الجمهورية العربية المتحدة لتؤمن في هذا السبيل ايماناً راسخاً بضرورة التعاون المشبع بروح الاخلاص بين الدول الافريقية ، لما بين هذه الدول وبينها من روابط ثقافية وتاريخية وبشرية ، وهي تضع في سبيل ذلك تحت تصرف شقيقاتها الافريقيات كل ما تستطيع من أجل النهوض بالتربية والتعليم ، بل اننا نضحي ببعض احتياجاتنا في كثير من الأحيان لكي نوفر لاخواتنا في افريقيا احتياجاتهم الضرورية » .

واعتماد خطة أديس أبابا لتطوير التعليم في افريقيا الى حد كبير على المساعدات الدولية ، يتطلب اجراءات ادارية واقتصادية عديدة في الدول الافريقية ، ولذلك دعت هيئة اليونسكو وزراء التربية والتعليم في جميع دول افريقية الأعضاء في المنظمة الى اجتماع عقد في باريس في أواخر شباط سنة ١٩٦٢ لدراسة هذه الاجراءات وتنسيقها ، ولدعم نشاط المنظمة في ميدان التعليم في افريقيا .

ثم دعت اليونسكو الى مؤتمر عقد في تاناريف عاصمة جمهورية مدغشقر في الفترة الواقعة بين ٣ و ١٢ ايلول سنة ١٩٦٢ لدراسة تنمية التعليم العالي في افريقيا وقد وضع مؤتمر تاناريف في اعتباره قرارات مؤتمر أديس أبابا . وقد بحث مؤتمر تاناريف موضوعين هامين هما : هيئات التدريس في التعليم العالي في افريقية وتمويل هذا التعليم واتخذ عدة توصيات في كل من الموضوعين .

ومن أهم التوصيات بشأن هيئات التدريس ضرورة العمل على أفرقتها بحيث يصبح كل أعضائها أو أغلبهم من الافريقيين في عام ١٩٨٠ ، والاعتماد على الجمهورية العربية المتحدة كواحدة من دول افريقية في المساهمة بنصيبها في تحقيق هذه الرغبة وذلك بقبولها أكبر عدد من الطلبة الافريقيين سواء منهم المنتظمون في مراحل التعليم العالي أو المراحل السابقة واللاحقة لها .

ومنها أيضاً الانتفاع من برنامج المنح الموضوع بمعرفة اليونسكو لاعداد وتدريب مدرسي الجامعات والمعاهد العالية في افريقية .

ومن أهم التوصيات التي اتخذها هذا المؤتمر بشأن تمويل التعليم العالي في افريقية اقامة علاقات تعاونية وثيقة بين المعاهد والكليات الجامعية في الدول الافريقية لضمان الاستفادة من الموارد الممكن الحصول عليها لفرص التعليم العالي ، افادة كاملة وبطريقة فعالة .

مؤتمر أبيجان :

عقد في آذار عام ١٩٦٤ مؤتمر وزراء التربية الافريقيين تحت رعاية اليونسكو في أبيجان بساحل العاج . وقد تجمع في عاصمة ساحل العاج حشد من المشتغلين بالثقافة والتعليم في افريقية واشترك فيه مراقبون من احدى عشرة دولة منها الجمهورية العربية السورية .

وكان الغرض من هذا المؤتمر استعراض ما تم من منجزات في ميدان التربية ووضع خطة تستهدف تطويرها في القارة الافريقية كلها وتعميم التعليم الابتدائي في عام ١٩٨٠ كغاية نهائية واتاحة السبيل لعشرين بالمئة من الذين اجتازوا مرحلة التعليم الابتدائي للالتحاق بالمدارس الثانوية عند حلول هذا التاريخ وقد تحققت خطوات هامة في مضمار التعليم الابتدائي وبموجب الخطة الموضوعة لهذا التعليم ينبغي أن يزيد عدد التلاميذ المنتسبين الى المدارس الابتدائية بنسبة ١٥٪ في مدى خمس سنوات من عام ١٩٦٠ وقد وصلت الزيادة بالفعل الى ١٥٫٣٪ عام ١٩٦٥ . أما التعليم الثانوي فكان ابطأ خطأ من التعليم الابتدائي الا أن عدد المدارس الثانوية قد تضاعف وهذه المدارس تعكس حاجات البلاد الحقيقية والى جانب ذلك تنمو المدارس الفنية التي كانت معدومة في سنة ١٩٦٠ . ولعل السبب الهام في تقهقر التعليم الثانوي يعود الى عدم وجود المدرسين الافريقيين اللازمين وأن ٩٠٪ من المدرسين في المدارس الثانوية الافريقية قادمون من بلاد افريقية بموجب اتفاقيات ثنائية للمعونة الفنية ولكنها غير كافية وهنا برزت مساعي اليونسكو بشأن فتح دور المعلمين في مالي والكونغو ونيجيريا وساحل العاج وستزود هذه الدور افريقيا بألف وخمسمائة مدرس في العام وفيما يتعلق بالتعليم الجامعي فقد اصر مؤتمر ابيجان على ضرورة التنسيق في عملية انشاء المعاهد العالية على مستوى القارة الافريقية وقد اقر انشاء جامعة في رواندي وستانلي فيل وزامبيا وللمعهد الافريقي للتخطيط والتنمية الذي انشأته لجنة الامم المتحدة الاقتصادية الخاصة بأفريقيا وقد درس المؤتمر المذكور المشروعات الوطنية للتعليم وادخل التعديلات عليها ووضع الخطط الوطنية طويلة الامد المستندة الى المسلمات المختلفة .

وقد تباحث المؤتمر في موضوع هام جداً الا وهو مكافحة الامية وتنظيم تلك المكافحة،

ذلك لأن الاغلبية الساحقة من الافريقيين الذين تجاوزوا الخامسة عشرة هم من الاميين وسيزداد هذا العدد اذا لم ينتسب الى المدارس اكثر من ٥٠٪ من الطلاب الذين هم في سن الدراسة .

وقد تأكدت في هذا المؤتمر ظاهرة الافرقة في بحث المشاكل التربوية وقرر المؤتمرون تقوية الصلة بين اليونسكو ومنظمة الوحدة الافريقية . وقــد عرف السيد رونه ماهو الافرقة بما يلي :

ان هذه اللفظة تعني عدم العودة الى الماضي القديم ، انها السبيل الى امتلاك الدول الافريقية الجديدة لثرواتها الخاصة بعد ان اخذت زمام مقدراتها لتصبح في وضع يمكنها من المساهمة بنصيب وافر في الحضارة العالميـــة . ان الافرقة هي اعداد الفنيين الذين سيتمكنون من استغلال موارد القارة لمصلحة افريقية ، واعداد القادة والثقافيين الذين يوجهون الطاقة الانسانية التي ينطوي عليها الثقافة الافريقية .

حول مشكلة اللغة والقومية في التعليم

ان لغة التعليم من المشكلات الاساسية في الدول النامية ومعظم البلاد التي كانت خاضعة للاستعمار تستخدم لغة المستعمر ولمشكلة اللغة اهمية لانها اداة تحقيق القومية التي تحتاج بعض الدول الافريقية الى تأكيدها ونشرها ولا شك ان الحل الامثل هو جعل اللغة القوميـــة لغة التعليم في جميع مراحله. والحال اليوم تتطلب السرعة الملحة لاستخدام اداة تعبير مفهومة سواء في العلم اوفي غيره . وهذا يذكرنا بقول سيكوتوري في المؤتمر الخامس للحزب الديمقراطي الغيني الذي عقد عام ١٩٥٩ حين قال : اننا اذ نستخدم اللغة الفرنسية نعني بذلك ان هذه اللغة يجب ان تستخدم لكي نبصر الشباب بما هو افريقي .

ومن الغريب حقا ان اللغات الافريقية لم تكن تدرس في افريقية وانما في (مدرسة الدراسات الشرقية الافريقية) التابعة لجامعة لندن و (المدرسة الوطنية للغات الشرقية فيباريس) و (معهد اللغات الافريقية) بهامبورغ ، وان كانت بعض الدول الكبرى الاخرى اخذت تهتم بهذه الدراسات مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

وان انشاء بعض الجامعات الافريقية كان له اثره في ان تعود دراسة هذه اللغة الى ابنائها فهم بحكم الطبيعة،وكما يعترف خبراء اللغات الافريقية من الغربيين ، اقدر الناس على تعلمها وتعليمها .

على انه يجب مراعاة الاحوال اللغوية التي خلفها الاستعمار في مختلف المناطق ، فالاستعمار الفرنسي قد عمل على محو اللغة الاصلية للسكان في حين سمحت بريطانيا بتعليم اللغات المحلية في مراحل التعليم الاولى وتحت ضغط الظروف : مثل اللغة السواحلية المنتشرة في شرق افريقية والتي

تسود الى حد يجعل الانكليز انفسهم على تعلمها ، ومع ذلك فقد عملوا على تغريبها من لغتهم واخضاعها لها من حيث الشكل فصارت هـــذه اللغة تكتب بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية التي كانت تكتب بها اصلا مع العلم بأن هذه اللغة مازالت تحتفظ باثر اللغة العربية فيها اذ ان اكثر من ٣٠٪ من مفرداتها عربي الاصل .

ومن الطريف حقا ان نذكر هنا مقالا للسيد عبد العزيز السحاق اقترح فيه جعل اللغة العربية لغة دولية للقارة الافريقية مستندا في ذلك الى الاهمية الثقافية والانسانية لهذه اللغة التي صارت من اللغات العالمية هذا بالاضافة الى سعة انتشارها داخل القارة وتأثيرها العميق في اللغات الاخرى .

وقد يكون الحل العملي في الوقت الحاضر هو استخدام اللغات القومية في مراحل التعليم الاولي واستخدام احدى اللغات القادرة على التعبير العلمي في المراحل العليا ، هذا مع السعي الى التعريف باللغة العربية واشاعة دراستها في الجامعات الافريقية . والمهم هو استخدام لغة قومية واحدة في الوطن الواحد مالمكن ذلك لان الغرض من استخدامها هو تأكيد القومية للتعاظم المشترك وتحوير النزعات الطائفية والقبلية الى وحدة متكاملة واعية ، وفقا للاساليب التربوية والنفسية والاجتماعية الحديثة .

وفي مجال المعونات التي تنالها افريقية النامية نذكر المراجع الغربية اسماء بيوتات تجارية اوربية امريكية مثل روكفلر وفورد وكارنيجي واورنها كم بالاضافة الى صندوق انعاش وتنمية المستعمرات التابع لوزارة المستعمرات البريطانية وفرق السلام الامريكية وبعض معونات محدودة من اليونسكو .

وهناك نقطة هامة يجب الانتباه اليـــها وهي تغلغل النشاط الاسرائيلي في ميدان التعليم والثقافة في افريقية .وقد وجدت اسرائيل في العلاقات الثقافية فرصة موانية مثمرة لدعم هذا النشاط فقامت بعقد المعاهدات الثقافية وبانشاء المكاتب والمراكز الثقافية وتكوين جمعيات الصداقـــة والجمعيات اليهودية وتبادل الزيارات والاشتراك في المؤتمرات والمعارض وانشاء المدارس والمعاهد والـكليات والقاء المحاضرات وتقديم المنح الدراسية . ومراعاة لظروف بعض البلاد الافريقيـــة نظمت اسرائيل برامج علمية تؤهل الطلاب في فترة قصيرة لتولي الاعمال الادارية والفنية التي تحتاج اليها البلاد بسرعة في اعقاب استقلالها . وبلغ باسرائيل الامر بأن تقدمت بعروض للدول الافريقية التي يعتنق بعض مواطنيها الدين الاسلامي لتعليم اللغة العربية في تلك الدول وزعمت اسرائيل ان لديها خبرة فريدة ممتازة في تعليم اللغة العربية كلغة اجنبية بالنسبة للطلاب الذين لايعرفون هـــذه اللغة وان لديها احسن الكتب لتعليم هذه اللغة باللغتين الانكليزية والفرنسية .

وتعمدت اسرائيل في تغلغلها الثقافي في افريقيا على النفوذ الاستعماري في القارة والعناصر الاجنبية فيها ، وعلى حاجة الدول الافريقية الى المعونة الفنية والمالية وعلى تقديم المنح الدراسية على نطاق واسع وبمزايا مغرية وقد نشرت جريدة « غازيت دي لوزان » السويسرية مقالا بعنوان مجهودات اسرائيل في افريقية بقلم شارل هنري فافورد في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ـ٦ـ٩٦٢ جاء فيه مانصه : « يوجد في افريقيا الآن ٩٠٠ خبير اسرائيلي وهناك ألف افريقي يتابعون دراستهم في اسرائيل وثلاثة آلاف انتهوا منها اذ ان مدرسة حيفا والمعهد الآفرو آسيوي في تل ابيب يقبلان كل الشبان الذين يريدون ان يدرسوا فيهما » .

وتتحمل اسرائيل في هذا الصدد اعباء مالية ضخمة لايمكن ان تتحملها ميزانيتها ولابد أن هناك من الدول الاستعمارية مايوجهها ويعاونها مادياً وادبياً في استغلال هـــذا النشاط لمصلحة الطرفين . ولذلك يجب على الدول العربية والافريقية ان تبذل اقصى ماتستطيع من الجهد لمقاومة تغلغل اسرائيل في افريقيا فهي رأس جسر للاستعمار في القارة .

ومثل هذا الوضع لايحسن السكوت عليه والا كان معنـــاه عودة الاستعمار وربيبته الصهيونية من الباب الخلفي عن طريق المعونات التعليمية والثقافية . واذا كانت الدول الافريقية تهتم بالتعاون في المجالات الاقتصادية وغيرها فلا شك ان التعاون في ميدان التعليم أمر حيوي بالـغ الأهمية .

وقد قامت بعض الدول المتحررة كالجمهورية العربية المتحدة بعقد اتفاقيات ثقافية مع بعض الدول الافريقية الا ان الخطر الاستعماري يستوجب التكتل ووضع سياسية مستقرة ثابتة لانشاء هيئة دولية افريقية تؤدي للقارة الخدمات التعليمية والثقافية على اساس من التفاهم المشترك وتبادل الخبرات والمعونات وتنسيقها بحيث تكون مكرسة لخدمة مصالح ابناء القارة اولاً وبالذات .

مصادر البحث :

١ — وقائع اليونسكو

٢ — بعض اعداد من مجلة نهضة افريقيا

هل يمكن

الحياة على الكواكب الأخرى

للعالم السوفييتي اليكساندر كازانتيف،
ترجمة عن الانكليزية رزق الله بطرس.

نعم انها ممكنة . كان جيوردانو برونو أول من أعلن في القرون الوسطى فكرة وجود عدد كبير من العوالم الأخرى الحاشدة بالسكان. ومن أجل هذه الفكرة أحرق حكام روما - المعارضون للبحث العلمي والمتمرغون في حمأة الجهل - هذا العالم على عمود في ساحة الزهور في السابع عشر من شباط عام ١٦٠٠ (ألف وستمئة) .

إن النظرية المادية حول العالم تتفق تماماً مع نظرية أصل وتطور الحياة على الكواكب

الأخرى حيث الظروف ملائمة . فالظروف الضرورية لوجود أشكال الحياة المعلومة لدينا هي بالدرجة الأولى : حرارة تتراوح بين — ١٠٠ و + ١٠٠ درجة مئوية ، وجود الكربون الذي هو واحد من المكونات الرئيسية للأعضاء الحية ، وجود الأوكسجين الذي يلعب الدور الرئيسي في الأفعال المتمكنة الحيوية للأعضاء الحية ، وجود الماء ، وأخيراً انعدام الغــازات السامة من أجواء الكواكب .

ويمكن ملاحظة هذه الشروط في حالات استثنائية فقط عندما يبحث عنها في الكون بين النجوم التي لاحصر لعددها وفي النظم الكوكبية الممكنة . ان هذا العدد غير المحصور من النجوم وكواكبها هو الذي — على وجه الضبط — يزيد من احتمال وجود هذه الشروط في آلاف لا بل ملايين الأمكنة من الكون .

أما نحن فنهتم بوجه خاص بجيراننا الكواكب ، تلك التي تشكل المجموعة الشمسية لأن الشروط والظروف الكائنة عليها هي التي يمكن التثبت منها بدرجة لابأس بها من الدقة والضبط .

فمن بين جميع كواكب المجموعة الشمسية يجب استبعاد الكواكب الضخمة عن تلك التي يمكن أن يكون عليها حياة فمثلاً : زحل ، المشتري ، اورانوس ، ونبتون مغطاة بجليد أزلي ومحاطة بأجواء سامة .

أما أبعد كوكب من هذه المجموعة عن الشمس وهو بلوتو ففيه ليــل أبدي وصقيع لايمكن تحمله . وعطارد وهو أقربها الى الشمس ليس فيه هواء وبينما أحد جوانبه معرض دوماً لأشعة الشمس وملفوح بها ، نرى الجانب الآخر غاطسا في ظلام أبدي وبرد عام شديد .

والكواكب التي يمكن أن يكون فيها أصول حياة ثلاثة : الأرض والزهرة والمريخ. وعليها من الشروط الحرارية مالايزيد عن تلك التي تمكن الحياة عليها كما أن الزهرة والمريخ لها أجواء كما للارض .

وبما أن كوكب الزهرة مغلف بغطاء كثيف من الغيوم فقد كان من الصعب جداً معرفة المواد التي تكون جوه . والى جانب ذلك فقد اكتشفت غازات سامة في الطبقات العليا من جوه . ومن الواضح أن جو الزهرة غني جداً بثاني أوكسيد الكربون الذي يميت الحيوانات ولكنه يشكل جواً ملائماً لتطور ونمو بعض النباتات الدنيا . فوجود حياة بدائية على كوكب الزهرة ليس ببعيد الاحتمال . الا أنه لم تمكن البرهنة عليه بعد .

والمشكلة تختلف تماماً مع جار الأرض الثاني : المريخ .

ماهو المريخ بالضبط ؟

المريخ كوكب له نصف حجم الأرض ، ويبعد عن الشمس بقدر مرة ونصف بعد الأرض عنها ، وهو يستغرق ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة ليدور حول محوره الذي يميل نحو مستوى مداره بحوالي نفس المقدار الذي يميله محور الأرض على مدارها . وينتج عن ذلك أن تكون فصول السنة على المريخ كما هي الحال على الأرض .

ولقد ثبت أن المريخ محاط بجو خال من الغازات المميتة لتطور الحياة عليه . وكمية ثاني أكسيد الكربون فيه تقارب الكمية الموجودة في جو الأرض . أما الأوكسجين فمن المحتمل وجود واحد من مئة منه في جو الأرض . والمناخ فيه قاس جداً .

وللمريخ نفس عمر الأرض ومر بنفس أدوار التطور التي مرت بها . ولقد كان محاطاً خلال فترة تبرده وتكون المحيطات فيه بغمامة متلبدة كثيفة كما هو الحـــال الآن على كوكب الزهرة وكما كانت الحال على الأرض أثناء الدور الفحمي . وأثناء هذه الفترة من تطور هذا الكوكب ما كانت الحرارة على سطحه لتعتمد على الشمس كما كانت الحال على الأرض في الفترة المشابهة . وهكذا فقد كانت الظروف على المريخ مشابهة من كل النواحي لظروف الأرض ، لقد كانت ملائمة لظهور حياة في المحيطات الأولية وهذا فان تطوراً مشابهاً كان يمكن أن يقع.(١)

ففي الحقبة الدافئة كانت النباتات الأولى مثل ذيل الحصان الذي وجد في العصر الفحمي ، وأشكال أخرى للحياة البدائية من الممكن أن تتطور .

أما في الفترات التالية عندما انقشع الغلاف الغيمي ، فان المريخ الذي له قوة جذب أقل من تلك التي للأرض فقد ذرات جوه التي كانت تحاول الانفصال عنه وتتخذ لها أوضاعاً على سطحه تختلف تماماً عن الأوضاع الكائنة في الأرض ، وعلى أية حال فقد استطاعت الكائنات الحية أن تتكيف مع الظروف الجديدة في سباق التطور .

وكما أن المريخ فقد جوه فانه أيضاً فقد ماءه الذي تبخر وحمل في الفضاء بخاراً ، فتحول المريخ تدريجياً الى كوكب تكسوه صحارى لاماء فيها .

واليوم ، يمكننا أن نرى على سطحه بقاعاً سوداء كانت تدعى مرة بحاراً . واذا كان المريخ قد حوى بحاراً في العصور القديمة فقد فقدها منذ مدة طويلة ، وان أحداً من الفلكيين لم

---

(١) التطور المقصود هو تطور الحياة بالشكل الذي صوره داروين في نظريته .
(المعرب)

يشاهد ذلك النوع من البقع الضوئية التي تلاحظ على سطح الماء . وان مناطق القطبين في المريخ تحاط بالتناوب بمواد ، لو حكمنا عليها من قوتها الاشعاعية ، لشبهناها بجليد الارض.

ولما كانت أشعة الشمس تدفىء هذا الجانب من قطبي المريخ أو الآخر فان حجم هذا الغطاء الابيض (١) الذي يشبه الجليد يتناقص ويصبح محاطاً بشريط معتم كما لو كان ارضاً رطبة.

وعندما يحدث التبرد يبدأ هذا الغطاء الجليدي بالتضخم بينما يصبح الحد المعتم المحيط به غير منظور . وهذا يدعو للاستنتاج بأن الماء الذي يتبخر بكميات قليلة في جو المريخ يسقط ثلجاً في المناطق القطبية ويغطي التربة هناك بغطاء من الجليد سماكته ٤ بوصات تقريباً .

وعندما يحدث الدفء يذوب الجليد ، والماء المتشكل اما ان يغوص في التربة او ينتشر بطريقة ما على الكوكب .

هذا مايحدث دورياً في كل من قطبي المريخ : عندما يذوب الجليد قرب القطب الجنوبي، يتشكل جليد عند القطب الشمالي وبالعكس .

ماهو الاسترو بوتانيا ؟ (Astrobotany)
(علم دراسة النباتات الكونية)

علم جديد استنبطه أحد الفلكيين السوفيت المشهورين : غابرييل اندريا نوفيتش تيخوف العضو المراسل في الأكاديمية السوفيتية للعلوم .

كان تيخوف أول من أخذ صوراً المريخ من وراء مرشح ضوئي ملون . وبهذه الطريقة استطاع أن يتأكد من الألوان الصحيحة لبقاع مختلفة على الكوكب أثنـــاء فصول مختلفة من السنة . وكانت البقاع التي أطلق عليها اسم البحار مرة ذات أهمية أكبر ، اذ كانت تغير لونهـا من أزرق مخضر في الربيع الى بني فاتح في الصيف الى بني غامق في الشتاء . ولقد قارن تيخوف بين هذه التغيرات على المريخ وتغيرات الألوان في غابة تايغا الدائمة الخضرة في سيبيريا . كانت هذه الغابة الخضراء في الربيع (أو الزرقاء الغامقة) تتلون باللون البني صيفـاً وباللون البني الغامق شتـاء .

---

(١) يقول غ . أ . تيخوف في بحوثه الاكثر دقة أن لون هذا الغطاء اخضر وليس ابيض (الكاتب)

وبنفس الوقت تبقى ألوان الفسحات الواسعة في المريخ حمراء بنية لاتتغير تشبه في كل الحالات ألوان الصحاري على الأرض .

ومن هنا كانت الفكرة التي تفرض أن هذه البقع المتغيرة الألوان على المريخ هي مناطق خضرة دائمة ، بحاجة الى برهان .

وقامت محاولات لاكتشاف الكلوروفيل في المريخ بواسطة المطياف ، ودراسة التركيب الضوئي للنبات (لتأكيد وجود نباتات حية) ولكنها لم تنجح بعد .

ان من خصائص نباتات الأرض أنها عندما تصور في الأشعة تحت الحمراء تظهر بيضاء في الصورة كما لو أنها مغطاة بالثلج . ولو أن الزنار الخضري المفروض وجوده في المريخ يظهر أيضاً أبيض عند تصويره في الأشعة تحت الحمراء ، لثبت بشكل قاطع لايقبل الشك وجود نباتات على المريخ .

ولكن الصور الجديدة لم تؤكد هذه الفرضيات الجريئة .

ولم يثبط هذا من همة تيخوف : فلقد أجرى بحوثاً عن خصائص الانعكاسات للنباتات الأرضية في الشمال والجنوب للمقارنة بينها .

وكانت النتائج مذهلة : ففي صور الأشعة تحت الحمراء لم يبد لون ابيض الا صور النباتات التي عكست هذه الاشعة دون امتصاصها . أما نباتات الشمال ، كالطحلب مثلا ، فقد امتصت الاشعة الحرارية اللازمة لها ولم تعكسها ، لهذا لم تبد في الصورة بيضاء (مثل مناطق الخضرة المفروض وجودها في المريخ والتي لم تظهر بيضاء أيضا) .

ان هذه البحوث التي زادت ثباتا بعد البعثات المرسلة الى القطب وأعالي الجبال والتي قام بها تيخوف ورجاله ، قادت الى الاستنتاج الصحيح بأن النباتات في تلاؤمها مع ظروف حياتها تحصل على قدرة امتصاص الاشعة التي تحتاج اليها وعكس الاشعة التي لاتحتاجها . ففي جنوب الاتحاد السوفييتي حيث تسطع الشمس كثيرا لاتحتاج النباتات الى الاشعة الحرارية الموجودة في الطيف الشمسي بل تعكسها . أما في الشمال ، حيث حرارة الشمس ضعيفة ، فان النباتات لاتسمح لنفسها بهذا الاسراف بل تحاول امتصاص كل الاشعة الموجودة في الطيف . وعلى المريخ حيث المناخ قاس واشعة الشمس ليست قوية ، فان النباتات ستحاول بشكل طبيعي امتصاص أكبر قدر ممكن من الاشعة . ومن هنا يبدو جليا فشلنا في مقارنة نباتات المريخ من هذه الناحية ، بنباتات القسم الجنوبي من الارض ، فانها تشبه الى حد أكبر نباتات القطب الشمالي .

وعند الوصول الى هذه الخلاصة وجد تيخوف سبب فشله في اكتشاف الكلوروفيل على المريخ .

ولقد اضطرت الدراسات الاكثر عمقا تيخوف الى الاعتقاد اكثر فأكثر بوجود تشابه تام بين تطور النباتات على المريخ وتطورها على الارض. واكتشف مناطق من الخضرة في صحارى المريخ الواسعة تشابــه بقوة عكسها للنور النباتات النامية في الصحراء الآسيوية الوسطى في الاتحاد السوفييتي .

ان تقارير تيخوف التي تقول بوجود كتل كبيرة من النباتات المزهرة في بقاع معينة من صحارى المريخ في الربيع فقط كانت ذات اهمية كبرى . وهذه المناطق المزهرة على المريخ تشبه في لونها وخصائصها الى حد بعيد صحارى آسيا الوسطى الواسعة التي تغطى لفترة قصيرة ببساط شامل من أزهار الخشخاش الاحمر .

ليس لكل العلماء السوفييت وجهة نظر تيخوف نفسها . ان من مهام قسم علم النبات على الكواكب (Astrobotany) في أكاديمية العلوم في الجمهورية القازاكية السوفييتية أن تبحث عن براهين أكثر اثباتا لوجود نباتات على الكواكب الأخرى وخاصة المريخ .

هل توجد أقنية على المريخ ؟

كان لشياباريلي خلال فترة الاستقبال الفلكية الأولى (١) ١٨٧٧ ، الفضل الأكبر في اكتشاف هذه الاشكال الغريبة ، فقد بدت له خطوط مستقيمة تماماً تشبه الشبكة تغطي الكوكب فدعاها الاقنية (Canals) لكونه أول من نادى بهذه الفكرة الخطرة التي تقول ان هذه الاقنية من صنع سكان هذا الكوكب المفكرين . وتلت تلك البحوث بحوث أخرى شكت في وجود مثل هذه الاقنية . ثم إن بحوثاً أخرى لم تعترف برؤية تلك الاقنية .

ولقد خصص العالم الفلكي المشهور لوول حياته لدراسة مسألة وجود حياة على كوكب المريخ . فأقام مرصداً خاصاً في صحراء الأريزونا حيث تساعد خاصــة الشفافية في الهواء على المراقبة . فأكد ما اكتشفه شياباريلي وطور فكرته التجريبية .

اكتشف لوول ودرس عدداً كبيراً من القنوات ، وقسمها الى عروق رئيسيـة (ولقد أكد أن القنوات الأكثر وضوحاً كانت مزدوجة) تجري من القطبين عبر خط استواء المريخ الى النصف الثاني . وقنوات رافدة تجري من المناطق الرئيسية في اتجاهات مختلفـة على أقواس محيط دائرة كبيرة . وهذا يعني أنها تجري في اقصر طريق على سطح الكوكب (فالمريخ كوكب ذو سطح مستو . وليس على سطحه جبال او تضاريس ملحوظة) .

---

(١) يكون كوكبان في وضعية استقبال فلكي (أو تقــابل Opposition) عندما تختلف الزاوية الـكائنة بين نقطة الاعتدال الربيعي ووضعية كل منهما بـ ١٨٠° . ويحدث هـذا بين الارض والمريخ مرة كل سنتين .

لاحظ لوول شبكتين من الأقنية : الاولى متصلة بالمنطقة القطبية الجنوبية ذات الجليد الذائب، والاخرى بمنطقة شمالية مشابهة . وتظهر كل من هاتين الشبكتين المائتين بالتناوب . فعندما يذوب جليد الشمال يمكن ملاحظة الاقنية وهي تجري من جهة جليد الشـمال . وعندما يذوب جليد الجنوب فان ساحة الرؤية تظهر الاقنية وهي تنحدر من جليد الجنوب .

كل ذلك جعل لوول يصر على أن هذه الاقنية كانت شبكة سقي واسعة انشأها أهل المريخ الذين أوجدوا نظاماً ضخماً لامتصاص المياه التي يشكلها ذوبان الاغطية الجليدية القطبية . وحسب هذا العالم ان قوة ضخ المياه في المريخ بموجب نظام الاقنية هذا يجب ان تكون أعظم من قوة شلالات نياغارا بأربعة آلاف مرة . ورأى اثباتاً لنظريته أن الاقنية تظهر بوضوح منذ اللحظة التي يبدأ فيها الجليد بالذوبان . ويزداد طول هذه الاقنية ، كما يظهر ، عندما يجري فيها الماء . ومن الثابت أن القناة التي يزداد طولها (أو طول الماء فيها) مسافة ٤٢٥٠ كم تستغرق ٥٢ يوماً لتغطي تلك المسافة أي تقطع في ٣٫٤ كم الساعة .

ولقد أكد لوول أيضاً أنه يوجد في مكان تقاطع الاقنية بقع دعاها الواحات (Oases) وهو مستعد للقول أن هذه الواحات هي المراكز الكبرى للسكان في المريخ أي مدنهم .

وعلى أية حال فان نظرية لوول هذه لم تقبل بشكل عام . فوجود الأقنية هذه كان أمراً يشك فيه . وعنـــدما فحص المريخ بواسطة مناظير فلكية (Telescopes) أكثرة قوة ، لم تكتشف أقنية بالشكل المستقيم السوي ، بل ظهرت مجموعات من البقع المجورة جهدت العين لوصلها وتشكيل خطوط مستقيمة منها ، فعزي وجود هذه الاقنية الى الوهم البصري الذي لاحظه قليل من الباحثين . ولكن طريقة موضوعية في البحث لن تكون بغير ذات جدوى .

كان (تيخوف) في مرصده في بولكوف أول عالم في العالم استطاع أن يصور الاقنية الموجودة في المريخ . ولوحة التصوير ليست كالعين إذ أنها لايمكن أن تخطىء أو تتوهم . وأصبح تصوير الأقنية مؤخراً يطرد باستمرار وفي مجالات أوسع .

ولقد حصل ترمبلر خلال الاستقبال الفلكي سنة ١٩٢٤ على أكثر من ألف صورة لأقنية المريخ . ومن ثم فان الصور التي تلت أكدت وجودها . وكان البحث في ألوان هـــذه الأقنية الغامضة ذا أهمية كبرى ، تلك الاقنية التي تشبه ألوانها في جميع النواحي تغير ألوان المناطق الدائمة الخضرة على المريخ .

ان حساب عرض الاقنية (من ١٠٠ ــ ٤٠٠ كم) قاد الى الظن أنها ليست « أقنية او شقوقاً في الأرض مملوءة بالماء » بل خطوطاً من النباتات تظهر تدريجياً عندما يجري ماء الجليد الذائب فيها وهي تجر الماء (بسرعة ٣٫٤ كم في الساعة . بنفس السرعة كان يلي الماء موجة من

النمو الخضري على مر الزمن). وهذه الخطوط الخضرية (غابات او حقول) ، كانت تغير لونها بشكل يتوافق مع تغيرات الفصول .

ان افتراض وجود أنابيب ماء تحت الأرض ولها فتحات على شكل آبار ، يمكن أن يتفق مع آراء الذين رأوا الاقنية وأولئك الذين لم يروا الخطوط المستقيمة بل بقاعاً متفرقة مصفوفة على خطوط مستقيمة. وكانت البقع تشبه واحات خضرة مروية اصطناعياً في امكنة جر ماء الانابيب الى سطحها.

ان الظن بوجود مثل هذه الانابيب ممددة تحت التراب يبدو أكثر طبيعية ، حيث أنه في حالة أي ضغط مناخي في المريخ ، يفقد كل مستودع مفتوح ماءه بسرعة سببها البخر الشديد .

ولا يزال الجدل قائماً حول طبيعة الاقنية ، ولكن لم يعد هنالك مجال للشك بوجودها . ولكي يتجنب بعض العلماء الفرضية الجريئة القائلة بوجـــود شبكات سقاية بناها سكان المريخ العاقلين ، فانهم فضلوا اعتبار هذه الاقنية فتحات ذات اصل بركاني لم تحدث على اي كوكب آخر من مجموعتنا الشمسية صدفة . ولكن عيب هذه النظرية هو أنها لاتستطيع تعليل تحركات المياه بدون وجود نظام ضخ مائي قوي يجر الماء القطبي عبر الاستواء الى النصف الثاني من المريخ .

ووجهة نظر أخرى يميل بعض الفلكيين لتبنيها هي : ان تلك الخطوط الهندسية الشكل والملونة في المريخ والتي تتغير أطوالها وألوانها انما هي معالم حياة قامت بها كائنات حية توصلت الى أعلى مستوى من التطور العقلي لايقل عن مستوى الكائنات الحية على كوكبنا الارض .

ماهي ظروف كارثة تنغوس ١٩٠٨

Tungus Catastrophe

بناء على افادة أكثر من الف شاهد عيان ـ مراسلو محطة دراسة الهزات الأرضية في اركوتسك ومرصدها ـ نشر مايلي :

« في الصباح الباكر من يوم ٣٠ حزيران ١٩٠٨ اندفع عبر القبة الزرقاء جسم ناري له طبيعة الشهب وتاركاً وراءه مايشبه النيزك الساقط . وفي الساعة السابعة صباحاً حسب التوقيت المحلي ظهرت كتلة من الضوء بدت أكثر سطوعاً من الشمس فوق سماء التايغا (الصحراء الروسية) قرب معمل فانوفر . ثم تحولت الى عمود ناري مرتفع في السماء الصافية .

لم يكن شيء من هذا القبيل قد شوهد من قبل عند سقوط النيازك ولم تظهر أية ظاهرة من تلك الظواهر عندما ذاب نيزك ضخم وهو يسقط في الهواء في الشرق الأقصى .

وبعد ظاهرة الضوء سمع دوي قوي تردد عدة مرات وهو يشبه قصف الرعد عندما يتردد هزيمه من بعيد . وسمع هذا الصوت على مسافة الف كيلو متر من مكان الكارثة . وتلا

تلك الضجة اعصار فظيع القوة ، فصل السقوف عن البيوت واقتلع أسوار الحدائق عن بعد مئات الكيلو مترات وحدث للبيوت من العطل مايحدث لها عندما تقع الهزات الأرضية . وسجلت محطات الهزات اهتزازات الارض في اركوتسك وطشقند وجينا في المانيا . كما سجلت هزتان في اركوتسك (قريباً من مكان الحادثة) كانت الهزة الثانية أضعف من الاولى . ولقد حدثت بسبب اعصار ، كما أكد مدير المحطة ، ووصلت الى أركوتسك بعد بعض التأخير ، سجل هذا الاعصار في لندن ودار الارض دورتين . لوحظت غيوم مضيئة لمدة ثلاثة أيام على ارتفاع ٨٦ كم فوق بلاد اوروبا وشمال افريقيا وكان بالامكان التقاط الصور وقراءة الجرائد أثناء الليل » .

كان الأكاديمي بولكانوف في سيبريا اثناء الحادثة ولقد كتب في مذكراته : « السماء مغطاة بطبقة كثيفة من الغيوم تنهمر بالمطر وهي بنفس الوقت ذات ضوء غير طبيعي ، النور قوي لدرجة ان الانسان يستطيع ان يقرأ جريدة ذات حروف صغيرة بشكل سهولة خارج البيت . لم يكن القمر ساطعاً ومع ذلك فقد كانت الغيوم ذات ألوان خضراء مصفرة تتغير أحياناً الى حمراء قرنفلية . »

ولو ان هذا الضوء الذي رآه بولكانوف كان نور شمس منعكس لكان من الواجب ان يكون أبيض وليس أخضر مصفراً أو أحمر قرنفلياً .

ان فرض سقوط نيزك ضخم في صحراء تنغوس لم يفسر النقاط التالية :

١ — عدم وجود شظايا نيزكية . ٢ — عدم وجود أية فوهة أوتجويف . ٣ — وجود بعض الأشجار المنتصبة في مركز الحادثة . ٤ — وجود مياه جوفية مضغوطة بعد سقوط النيزك . ٥ — انبجاس خيط من الماء من الارض خلال الايام الاولى للحادثة . ٦ — ماحدث لاهالي التنغوس (Evenhi) الذين زاروا مكان الحادثة بعد الحادث مباشرة .

ان الصورة الخارجية للانفجار الذي حدث في صحارى تنغوس تتفق تماماً مع صورة انفجار ذري . كما أن فرض انفجار كهذا قد وقع في الجو فوق صحراء تنغوس تفسر كل الظروف المحيطة كما يلي :

— كانت الاشجار في مركز الحادثة لاتزال منتصبة حيث ان العاصفة ضربتها من الاعلى فقطعت اغصانها وأعاليها .

— كانت الغيوم المضيئة نتيجة للتأثير الذي وقع على الهواء والذي أحدثته المواد المشعة التي حملت الى الاعلى .

ـــ كانت الامراض التي ظهرت في الصحراء نتيجة الذرات المشعة الساقطة على التربة .

ـــ ان تبخر جسم مندفع الى جو الارض بكامله حادث طبيعي جداً في درجة حرارة انفجار ذري تبلغ ٢٠ مليون درجة مئوية ، ومن الطبيعي ألا يترك شيئاً وراءه .

ـــ انبجاس الماء من الارض بعد الحادثة مباشرة سببه تكون الشقوق في طبقة من الصخور المتجمدة .

هل من الممكن انفجار نيزك مشع ؟

لا . ان ذلك غير ممكن . ان المواد التي تشكل النيازك هي نفس المواد الموجودة في الارض. فكمية الاورانيوم مثلا في النيازك تبلغ حوالي واحد على مائتي الف مليون من واحد بالمئة ، ولكي تحصل سلسلة من الانعكاسات ذات الاندفاع الذري ، يلزم نيزك كامل من الاورانيوم الخالص ، وفوق كل ذلك يجب أن يكون من النوع النادر (اورانيوم ٢٣٥) وهذا لم يصدف أن وجد بشكل نقي .

والى جانب ذلك ، فانه لو استطعنا تخيل مثل هذه الحالة غير المحتملة : وجود قطعة من الاورانيوم ٢٣٥ النقي فانها تذوب تلقائيا بسبب انفجار بين ذراتها بالصدفة . ومع أول انفجار عرضي ينفجر النيزك بكامله .

وعند فرض أن الانفجار النووي في تنغوس كان قريباً من الضروري فرض أنه كان نتيجة بعض المواد المشعة التي تحتوي عليها وسائل صنعية (سفينة فضاء مثلا)

من أين يمكن أن تأتي سفينة فضاء تستعمل المواد المشعة وقوداً ؟

ان اقرب نجم يقال أنه له نظاماً كوكبيا حوله موجود في مجموعة كوكبـة الدجاجة (Cygnus) وهي التي اكتشفها « ديفش » فلكي مرصد بولكوف . وهي تبعد تسع سنوات ضوئية عن الارض : أي أنه للوصول الى هذه الكوكبة يجب الطيران تسع سنوات بسرعـة تساوي سرعة الضوء . وهذا مالاتستطيعه أية سفينة فضائية . ولكن لنتكلم بدرجة من التقريب: نحن نعلم ان الكهـارب (الالكترونات) تتحرك بسرعة ٣٠٠ الف كم في الثانية . واذا فرضنا أنه بسبب دافع طويل الامد استطاعت سفينة فضاء أن تصل الى تلك السرعة وجدنا أنها تستغرق بضعة عشرات السنين لتصل الى كوكبنا من اقرب نجم له ، وتساعدنا نظريات انشتاين على هذا التناقض . فالوقت بالنسبة لمن يطير بسرعة تقارب سرعة الضوء يمضي ببطء أشد مما يشعر به هؤلاء الذين يراقبون الطيران . وسيكتشفون بعد طيران عشرات السنوات أنه قد انقضى على الارض آلاف السنوات .

ليس من الممكن التكلم عن الوقت بالنسبة لـ كائنات مجهولة لدينا . ولكننا اذا تصورنا طيرانا كهذا شرع به من الارض ، فسيقضي المسافرون كل حياتهم حتى الشيخوخة في هذه الرحلة . وهذا يختلف عن أي اعتبار للنجوم الاكثر بعداً وعن كواكبها .

وهكذا يكون من الاصح فرض أن الطيران كان من كوكب أقرب من المريخ .

ومارأي علم الملاحة بين النجوم (Astronautics)؟

يدور المريخ حول الشمس في مدار اهليلجي دورة كل ٦٨٧ يومـــا ارضيا . أي في ١٫٨٨٠٨ سنة . ويقترب مدارا المريخ والارض من بعضهما في نقطة تمر بها الارض صيفـا . وتقابل الارض المريخ في هذه المنطقة كل سنتين . ولكنهما لايقتربان كثيرا بشكل خاص الا مرة كل ١٥ – ١٧ سنة وتصبح المسافة بينهما عندئـــذ خمسة وخمسين مليون كم بدلا من اربعمئة مليون كم (هذا مايسمى بالاستقبال الفلكي الكبير) وليس من المفروض أن السفينة الفضائية يجب أن تقطع هذه المسافة فقط .

يدور كل كوكب حول محوره : الأرض بسرعـــة ٣٠ كم/ثا والمريخ بسرعـــة ٢٤ كم / ثا فصـــاروخ السفينة الفضـــائية يكون له سرعة الأرض في المحور باتجاه عمودي إلى اقصر طريق بين الكوكبين . ولكي تحمل سفينة الفضاء تطير بخط مستقيم ، يجب اعدام السرعة الجانبية على طول المدار ، ويستلزم ذلك تصرفاً لا لزوم له من القدرة الهـــائلة . ويكون من الأكثر افادة الطيران على منحنى تستخدم فيه السرعة على المحور ويضاف إلى سفينة الفضاء السرعة اللازمة لها كي تنفصل عن الكوكب .

ويلزم سرعة ٥٫١ كم / ثا للانفصال عن المريخ وسرعة ١١٫٣ كم / ثا للانفصـــال عن الأرض . ولقد حسب سترنفيلد ، الخبير السوفييتي الشهير في المـــلاحة بين الكواكب ، الطرق الصالحة للملاحة والأوقات اللازمة لسفينة فضاء كي تطير بما يوافق الاستقبال الفلكي ١٩٠٧ – ١٩٠٩ . وجاءت نتائجه تقول: لو أن سفينة فضائية آتية من المريخ ، وهي تستخدم نظام الاقتصاد في وقودها ، تركت المريخ في الوقت الأكثر مناسبة ، لكان يجب أن تصل الأرض في عام ١٩٠٧ أو ١٩٠٩ وليس في سنة ١٩٠٨ اطلاقا . أما بالنسبة لطيران من الزهرة ، فبالانتفـــاع من الاستقبال الفلكي للأرض والزهرة عام ١٩٠٨ ، فان روادالفضاء كان يجب أن يصلوا إلى الأرض في ٣٠ حزيران ١٩٠٨ ، وهذا توافق مطلق يجعل من الممكن وضع فرضيات اكثر اتساعا(١)

(١) مثلاً : النظرية التي تقول إن أهل المريخ قد انطلقوا منه إلى الزهرة أولاً في هذه السفينة الفضائية ، ثم من الزهرة إلى الأرض كما لو أن الزهرة محطة فضائية . (المعرب)

وبعد وصول اهل المريخ هؤلاء الى الارض عام ١٩٠٨ ، وجدوا طبقاً لهذا (قبل الاستقبال الفلكي عام ١٩٠٩ بقليل) أحسن فرصة وظروف للعودة الى المريخ .

هل تلقينا إشارات من المريخ ؟

ذكرت مقالة بعنوان « المريخ وأقنيته » نشرت في مجموعه « نظريات جديدة في الفلك » ، ظهرت بعد الاستقبال الفلكي الكبير في عام ١٩٠٩ ، أن اشارات ضوئية جاءت من المريخ في عام ١٩٠٩ . ومعلومة لدينا تماماً الأحاديث الحماسية في ذلك الوقت عن اشارات بالراديو استقبلت من المريخ خلال العشرينيات من هذا القرن خلال فتره الاستقبال الفلكي للأرض والمريخ .

يكتب ي . بيرلمان في ملحق كتابه « السفر بين الكواكب » أن المريخ عندما كان قريباً من الأرض في ١٩٢٠ — ١٩٢٢ التقطت محطات اللاسلكي في الارض اشارات لايمكن بطبيعتها أن تكون مرسلة من محطات راديو أرضية (على اعتبار أن طول الموجة كان قصيراً جداً بالنسبة لمحطات الارسال الارضية في تلك الأيام) ولذلك نسبت تلك الاشارات للمريخ .

ولقد أرسل ماركوني ومهندسوه ، الذين كان لهم ذوق حسي ، بعثات خاصة الى جبال الانديس والمحيط الاطلسي لالتقاط اشارات من المريخ على موجة طولها ٣٠٠ الف متر .

— الانفجار الذي وقع في المريخ —

بعد الاستقبال الفلكي الكبير للمريخ والارض عام ١٩٥٦ كتب أ . أ . ميخايلوف ـ مدير مرصد بولكوف والعضو المراسل في اكاديمية العلوم السوفيتية ـ الى علماء اجتمعوا في نادي علماء لينتغراد في ليسنوي : أن مرصد بولكوف سجل انفجاراً هائلاً في المريخ . وبعد أن لوحظت نتائج الانفجار بالمناظير الفلكية (Telescopes) وعلماً بأنه لاتوجد براكين في المريخ فان الانفجار يجب ان يكون نوويا ليس غير . وليس من السهل تصور انفجار نووي على المريخ دون ان يكون قد فجر عن قصد ، من المحتمل أن يكون ناتياً . وهكذا فان ملاحظات مرصد بولكوف يمكن ان تكون واحداً من الادلة على وجود حياة عاقلة على المريخ .

— تاريخ هذه الفرضية —

ذكرت فرضية الانفجار الذري لسفينة الفضاء في صحراء تنغوس في ١٩٠٨ لاول مرة في قصة أ . كازانتسيف المسماة « الانفجار » .

في ٢٠ شباط ١٩٤٨ شرح المؤلف فرضيته في اجتماع لجمعية علماء الفلك في كل الاتحاد السوفييتي عقد في موسكو . ولقد اطلق المجتمعون على هذه النظرية اسم « لغز نيزك تنغوس » .

وفي عام ١٩٤٨ نشرت رسالة في العدد التاسع من مجلة « تكنيك الشباب » فرضية انفجار الصاروخ الفضائي في صحراء تنغوس من قبل بعض الفلكيين الذين دافعوا عن معقولية هذه الفرضية .

ولقد خالفهم بعض العلماء الآخرين في هذه الفرضية . فلقد عرض البروفسور ميخايلوف تفسيره لحادثة تنغوس وقال: ان نيزك تنغوس كان مذنباً . ولكن زعمه هذا لم يكن بعيد الوقع.

أما ف . ا . سيتين مساعد كوليك فلم يعتبر سبب الكارثة نيزكاً ساقطاً بل اعصاراً هائل القوة ، ولكن هذا الرأي لم يفسر مظهر مكان الحادثة ولا التفاصيل الأخرى التي رافقتها.

أما بعض العلماء الآخرين فقد اعتبروا سبب الحادثة سقوط نيزك يزن حوالي مليون طن في صحراء تنغوس ورفضوا قبول أي رأي آخر .

بحوث ايروديناميكية (Aerodynamical)
(في ضغوط الغازات وتحركاتها)

ابدى كثير من الناس اهتماماً كبيراً في قضية نيزك تنغوس . ولقد قرب هذه القضية الى الأفهام بطريقة علمية العالم أ . ي . مونوتسكوف ، الرسام السوفييتي المشهور بالتمويه بالذهب والخبير في ضغوط الغازات وتحركاتها ، ومصمم الطيران في مجموعة انطونوف ، فحلل شهادات عدد كبير من شهود الحادثة بالذات وشهادات مراسلي مرصد اركوتسك وحاول ان يعين السرعة التي مر بها هذا « النيزك » فوق مقاطعات مختلفة . ورسم خارطة تبين مسار هذا النيزك اثناء طيرانه والأوقات التي شوهد فيها في نقاط مختلفة من مساره . ولقد وصلت الخارطة الى استنتاج غير متوقع وهو أن سرعة هذا النيزك قد تناقصت لدى اقترابه من الأرض . وحسب مونوتسكوف سرعة « النيزك » عندما مر فوق مكان الانفجار وكان الجواب ٠,٧ كم/ثا (وليس ٣٠ ـ ٦٠ كم/ثا كما كان يظن سابقاً) وفي الحقيقة ان هذه السرعة تقارب سرعة نفاثة حديثة وهو شيء ذو أهمية ليست بالقليلة بالنسبة للاستنتاج القائل أن نيزك تنغوس كان حسب اعتقاد مونوتسكوف نوعاً من الأجهزة الطائرة · أي انه سفينة فضاء تطير بين الكواكب .

ولو ان نيزكا كان قد سقط بهذه السرعة ، حسب استنتاجات علماء الايروديناميك، لكان من الواجب أن يحدث الدمار الذي حدث على الأرض الروسية كتلة زنتها الف مليون طن وقطرها كيلو متر واحد وليس كتلة وزنها مليون طن فقط .

وهذا لا يتفق مع ما لوحظ لأن النيزك الطائر لم يعتم السماء . ومن الواضح أن القوة التي سببت الخراب في الصحراء لم تكن قوة حرارية بل على الغالب قوة نووية انطلقت اثر انفجار ذري من وقود سفينة فضائية . ولم تمس تلك السفينة الأرض .

هل هذا الجدل علمي أم لاعلمي ؟

ان الذين يؤيدون نظرية سقوط النيزك عارضوا مرارا نظرية انفجار سفينةالفضاءالمرسلة من كوكب آخر والتي وقعت في صحراء روسيا . وقد ناقشوا الامور التالية :

١ — انكار أن هذا الجسم الساقط هو نيزك «شيء غير علمي (ولماذا ؟)

٢ — سقط نيزك ولكن الارض المستنقعية ابتلعته .

٣ — تشكلت فوهة ولكن التربة المستنقعية قد غطتها .

ولقد أكل هذه المناقشات الاكاديميان فيسنكوف وكرينوف في مقالة « أنيزك أم سفينة فضاء من المريخ » في احدى الجرائد في آب ١٩٥١ .

ولقد كان للمقال تأثير معاكس لما توقعه كاتباه . إذ أنه بعد دراسة المقال مباشرة عرف الملايين بنظرية سفينة الفضاء المريخية ، ووصل الى الجريدة عدد كبير من الرسائل جاء في بعضها البيانات التالية :

١ — اذا كان نيزك قد سقط حقاً وابتلعته التربة ، فأين هو الآن ؟ ولماذا لم يكتشف وهو في أعماق الارض بالآلات المغناطيسية ؟ ولماذا لم تتطاير منه شظايا كما يحدث دائماً عند سقوط النيازك ؟

٢ — لو أن فوهة تشكلت فن الواجب الا تكون أصغر من تلك التي تشكلت بسبب سقوط نيزك الأريزونا ذات القطر البالغ ١٫٥ كم وذات عمق ١٨٠ م . واذا كانت هذه الفوهة كما يؤكد خبراء النيازك قد اختفت تحت التربة المستنقعية فلماذا لم يبق في مركز الحادث أي أثر لأي تشكيل يدل على وجود فوهة ؟ ثم لماذا بقيت طبقات البيت (١) وطبقات الجليد الدائم على حالها دون ان تمس ؟ كان على الأخيرة ان تذوب . وما الذي جعل « الارض المستنقعية التي غطت الفوهة » تتجمد ثانية كما لو ان العصر الجليدي قد عاد مرة ثانية الى الارض .

طبعاً ، لم يجب علماء النيازك على هذه الاسئلة ولا هم استطاعوا .

الحل الحسي للغز نيزك تنغوس

مضت سنوات دون أن يزور أحد مكان وقوع النيزك المزعوم في صحراء تنغوس . ومع ذلك فقد ظل كثيرون يهتمون به ، وربما كان سبب ذلك نظرية الفضاء الخارجي المتعلقة به . وفي سنة ١٩٥٧ اضطر خبراء النيازك ان يعودوا الى الموضوع في الصحف ،

---

(١) البيت (Peat) مواد نباتية متحجرة تستعمل وقوداً .

فقد اعلن كريتوف في جريدة كومسومولسكايا برافدا ، والبروفسور ستانيوكوفيتش في مجلة « في سبيل الدفاع عن السلم » ، ان لغز هذا النيزك قد حل . لقد كان هنالك نيزك ولكنه ... لكنه تحلل في الهواء .

ولهذا فان خبراء النيازك قد رجعوا عن اعتقادهم بأن جسماً سماوياً قد صدم الأرض وان الفوهة المتشكلة اثر ذلك قد اختفت . ولكن لا ... حتى هذه المناقشات المنطقية لم تكن مقبولة . وكل ماكان خبراء النيازك مشغولين به هو ذلك القسم من النيزك الذي تحلل في الهواء. وكبرهان على ذلك قيل أنه توجد بعض صفائح قديمة مملوءة بالتراب المجلوب من مكان الحادثة وموجودة في مستودعات أكاديمية العلوم . ولدى تحليل مافي هذه الصفائح المهجورة تبين وجود بعض ذرات غبار معدني ، طول الذرة ميليمتر واحد . كما ان التحليل الكيميائي قد اكد وجود الحديد و ٧٪ من النيكل و ٠٫٠٧ ٪ من الكوبالت وكرات صغيرة ممتلطة من المعدن الذائب في الهواء حجم الواحدة منها $\frac{١}{١٠٠}$ من الميليمتر ، ولهذا فان الادعاء بأن مشكلة نيزك تنقوس قد حلت كان قبل أوانه .

وبالفعل ، لو أن خبراء النيازك وافقوا على أن النيزك لم يصدم الأرض بل تحول الى غبار لسبب مجهول ، فمن المعقول طرح السؤال التالي : لماذا تحول الى غبار ؟ وما الذي سبب الانفجار في صحراء تنقوس ، اذا لم يكن جسم سماوي قد صدم الارض وتحولت قدرته الحركية الى قدرة حرارية ؟ ولو ان النيزك لم يتحلل فما هو أصل تلك القدرة التي خلعت الاشجار من جذورها على مسافة مئات الكيلو مترات المربعة في الصحراء ؟

وتجاه كل هذه الاسئلة الطبيعية جداً يقف خبراء النيازك الذين يتشبثون بالنظرية النيزكية للحادث لايحيرون جواباً ولايمكن أن يكون جواب .

ثم إن الغبار المعـدني الموجود في عينات التربة المأخوذة من صحراء تنقوس لم يعط — بالصدفة — دليلاً قاطعاً على أنه بقايا نيزك . فلم يوجد التركيب الحديدي الذي هو من خصائص النيازك . ومن المرجح أن يكون الحديد الموجودقسماً من جسم صاروخ الفضاء الذي حطمه الانفجار . وتركيب البقايا الكيميائي يتفق مع هذا القول .

وهكذا نرى أنه من الصعب جداً أن نضع جانباً الفرضية القائلة أن « نيزك » تنقوس كان انفجاراً ذرياً . إن العقل الفاحص لايقتنع بالرجوع الى اصحاب الدرجات العلمية الذين لم يعتبروا انفجار القوة الهائلة في الصحراء حقيقة ثابتة . إن هذا العقل تواق الى علماء يفسرون له حقيقة مشكلة « نيزك » تنقوس .

كيف نجد حل القضية ؟

إن ما اكتشفته بعثة وصلت الى المكان لذو أهمية كبرى . فالسؤال فيا اذا كان انفجار ذري قد وقع أو لم يقع يمكن حله والاجابة عليه ، اذ أن كل مايتطلبه هذا السؤال هو فحص المكان فحصاً اشعاعياً هنـــاك . يوجد عيار محدود من الاشعاع في أماكن عاديـــة من الأرض . ويمكن بواسطة عداد جيجر (Geiger) اكتشاف كمية محددة من الأشعاع الذري في أية بقعة . ولو حدث نشاط اشعاعي (انفجار ذري) عندما وقعت الحادثة لكان من الواجب حدوث نفاذ نووي (١) (اندفاع ذرات أولية عند تحطم الذرة) وهنا يحدث بعض التغيرات المحتمة اثناء مروره في جذوع الأشجار وفي التربة . ولكان قد ظهر ما يدعى بـ - Labelled atoms ذات نويات أثقل تمسك بعض النترونات الهاربة . وهذه النظائر (٢) هي انواع أثقل من العناصر التي نواجهها على الأرض . وهكذا فان الآزوت الطبيعي ـ على سبيل المثال ـ يمكن ان يتحول الى كربون ثقيل وهو يقاسي تحولاً بطيئاً تلقائياً . وتتحلل أنواع أخرى ثقيلة بنفس الطريقة . إن هذا التحول التلقائي يمكن ان يسجل بمساعدة عدادات جيجر .

واذا اصبح من الممكن البرهان على ان تحلل الذرات في الثانية في صحراء تنغوس يتزايد عن معدله الطبيعي أمكننا القول ان طبيعة كارثة تنغوس ستكون واضحة، ويكون من الواضح حينئذ تعيين مكان مركز الحادثة ، والتثبت من ان سفينة فضاء جاءت من المريخ قد فقدت .

---

(١) Avalanche of neutrons

(٢) " Labelled Atoms. "

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الكتاب والموضوعات

الآداب

المعادل الموضوعي

في النقد الحديث *

عرض وتلخيص حسام الخطيب

تمهيد :

يعتبر « المعادل الموضوعي objective Correlative » أساساً لنظرية ت. س. إليوت T. S. Eliot النقدية التي استطاعت أن تؤثر في النقد الأدبي الحديث ابتداء من مطلع هذا القرن ، ليس لأن صاحبها شاعر مرموق ذو دولة وسلطان في مملكة الالهام الشعري فحسب بل لأنها أتت محصلة طبيعية لسلسلة من الآراء النقدية التي بشّر بها شعراء إنكليز وأمريكان مبدعون منـذ منتصف القرن التاسع عشر من مثل إزرا باوند والشعراء التصويريين Imagists .

(*) يراجع في نفس الموضوع بحث للدكتور غسان المالح في العدد (٥٠) من المعرفة .

وفي هذه الدراسة التي تعتمد اعتماداً رئيسياً على بحث واف بالانكليزية للدكتور رشدي ، نحاول أن نوضح فكرة المعادل الموضوعي وما تضيفه من فهم لعملية الابداع الشعري ، كما نحاول ربطها بسياقها التاريخي وتتبع آثارها عند بعض الشعراء والنقاد المحدثين ، على أننا نود أن ننبه بادىء ذي بدء الى أن نظرية إليوت في النقد – كشعره – تؤثر القمم البعيدة والشعاب الموعرة على السهل المتواضع والدروب الممهدة .

كتب إليوت سنة ١٩١٩ :

« الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال بشكل فن تنحصر في إيجاد معادل موضوعي ، وبكلمات أخرى : مجموعة من الموضوعات والأوضاع وسلسلة من الحوادث تكون معادلة لذلك الانفعال الخاص ، حتى إذا ما أعطيت الوقائع الخارجية التي ينبغي أن تنتهي بتجربة حسية استثير الانفعال نفسه حالاً ... وإن الحتمية الفنية تكمن في هذه القدرة التامة للعنصر الخارجي على التعبير عن الانفعال ، وهذا بالضبط ما نفتقر اليه (هاملت) . وهاملت (الرجل) أسير انفعال مستعص على التعبير لأنه أقوى بكثير مما تبدو عليه الوقائع . »

ومن المرجح أن إليوت لم يكن يرمي الى ابداع نظرية نقدية جديدة حين كتب هذه الكلمات بمناسبة دراسة له عن هاملت ، ولكن المعادل الموضوعي أصبح – منذ ذلك الحين – في نظر المهتمين بالأدب ، جزءاً مهماً من نظرية إليوت النقدية ، وحاول كثير من النقاد أن يربطوا بين هذه النظرة الى فن الشعر وبين تعريف إزرا باوند للشعر ، وهو تعريف سابق لاليوت في الزمن (١٩١٠) : (.. نوع من الرياضيات الملهمة لا يعطينا معادلات للأرقام المجردة والمثلثات والمحيطات وما أشبهها بل يعطينا معادلات للانفعالات الانسانية) .

ونستطيع أن نتتبع هـذا المفهوم في أقوال أخرى لشعراء سبقوا إليوت ولكن هذا التتبع لن يكون مجدياً لأن تتبع أصل المعادل الموضوعي يعني الوقوع في خطأ اعتباره مفهوماً مستقلاً مفصولاً عن مجمل النظرية النقدية لاليوت ، بينما يظهر لنا القراءة الواعية لكتابات إليوت النقدية أن فكرة المعادل الموضوعي هي في أساس معظم ما كتبه ، وأنها ليست نظرية في حد ذاتها بل هي مصطلح يعبر تعبيراً ملائماً عن مفهوم إليوت للشعر الذي يمكن أن توضحه الأقوال التالية المنتزعة من كتاباته النقدية :

١ - (ينبغي أن نؤمن أن الانفعال المستعاد في السكينة هو معادلة دقيقة لأنه ليس انفعالاً ولا تذكراً ولا هو ـ دون تشويه المعنى ـ سكينة . إنه تركيز وشيء جديد ينتج عن التركيز لعدد كبير جداً من التجارب التي لا تبدو للشخص العملي الفعال تجارب على الاطلاق .

٢ - ما من فنان ينتج فناً عظيماً عن طريق محاولة متعمدة للتعبـــير عن شخصيته . إنه يعبر تعبيراً غير مباشر من خلال التركيز على مهمته ، مهمة بنفس المعنى الذي يفهم من صناعة آلة صالحة أو تحويك جرة أو رجل طاولة .

٣ ـ وكلــــا كان الفنان كاملاً كان انفصاله أتم عن الرجل الذي يعاني والعقل الذي يخلق ، وكان عقله أقدر على هضم وتمثل العواطف التي هي مادته .

٤ ـ اللغة في الحالة السليمة تمثل الشيء ، وهي وثيقة الصلة بهذا الشيء الى درجة أنهما متطابقان .

٥ ـ هناك قلة قليلة تعرف متى يوجد تعبير عن انفعال ذي شأن ، انفعال له حياته في القصيدة لا في تاريخ الشاعر ، ان انفعال الفن ليس شخصياً والشاعر لا يستطيع ان يحقق التجرد من الشخصية دون ان يخضع نفسه تماماً للعمل الذي يجب أداؤه ..)

وتفيد هذه النصوص ان الشعر ليس نقلاً ولكنه خلق ، خلق شيء ، خلق موضوع ناتج عن تركيز تجارب الشاعر ، اي انه تحويل انفعال الشاعر الى شيء ، وهذا التحويل له أوجه ثلاثة :

١ — القصيدة كشيء قائم في ذاته :

فليس الشعر ، كما قال الابداعيون ، فيضـــاً عفوياً للانفعال ، ولكن بكلمات س. س. ليونيسن : « الشاعر لا يقول ، ان روحه قارب مسحور ..ّ والشعر استقلال للغة حتى تنقل المادي . »

٢ — القصيدة في علاقتها مع الشاعر وعملية الخلق :

فالشعر ليس تعبيراً عن الشخصية ، وليس «الانفعال مستعاداً في السكينة» انه تحويل مشاعر مختلفة الى موضوع مركب جديد في ذهن الشاعر ينبغي ان يكون واسطة مناسبة للمشاعر المختلطة وبقي عابداً في العملية ، وهكذا كلما كان الفنان كاملاً كان انفصاله اتم عن الرجل الذي يعاني والعقل الذي يخلق ، وكان عقله أقدر على هضم وتمثل العواطف التي هي مادته .

٣ — القصيدة في علاقتها بالقارىء أو بالأثر الشعري

والأثر الشعري لا يكون مضموناً الا حين يترجم الانفعـــال الى شيء (موضوع) ، ومن الناحية الأخرى يجب التكافؤ التام بين الانفعال وبين الشيء (الموضوع) ، وان هذه الترجمة الدقيقة للانفعال الى شيء موضوع تتضمن أن الانفعال الذي ينتجه العمل الفني يختلف بالضرورة عن الانفعـــال الشخصي أو الحياتي للشاعر . وكما قال إليوت :

« ان تأثير العمل الفني في الشخص الذي يستمتع به تجربة مختلفة في نوعها عن أية تجربة غير فنية » .

ان شعر ت . س . إليوت بعج بالأمثلة الموضحة لمفهوم المعادل الموضوعي لأنه التزم هذا الاسلوب في وقت مبكر من حياته الشعرية ، وتعتبر قصيدته (أغنية الحب لدى ا . ج . ألفريد بروفروك) من الأمثلة البسيطة التي يسهل استيعابها (ففي المقاطع [1] ٩ ـ ١١) من هذه القصيدة لا يقول البطل : « انني أخشى الجنس الناضج ولكني أخشى كذلك فراغ الحياة بدونه ، أتمنى لو لم أولد » . انه لم يقل ذلك ولو قاله لما كان بوسعنا أن نقترب من شعوره الحقيقي كما يحدث لنا حين يتحدث في ملاطفة وتدليل عن (الأذرع البيضاء العارية ذات الأساور) ، ثم يذكر نفسه في تراجع خفي مذهل بأن هذه الأذرع في ضوء المصباح قد (قلل من شأنها شعر بني خفيف) ويعتذر للكشف عن نفسه على هذه الصورة ، ثم يبدي عطفه على الآخرين ـ وعلى نفسه ـ متحدثاً عن « رجال وحيدين لا يرتدون سوى القمصان » ، والدخان المتصاعد من غلايينهم وهم يطلون من النافذة . وأخيراً نراه يطلق صرخته اليائسة المفاجئة :

كان ينبغي أن أكون زوجاً من المخالب القاسية لأحدث ثقوباً في عرض البحار الصامتة . على أن تجربة إليوت مصحوبة دائماً بشعور حاد بالعجز عن التعبير عن العاطفة (التي لا يمكن التعبير عنها لأن افراطها يجعلها تزيد عن الحقائق كما تبدو لنا) ، وفي رأي روزنتال [2] أن هذه العاطفة هي التي نخرت في عظام الانسان المعاصر المزعزع الذي يحمل على كاهله عبء عاطفة لا يستطيع تحديدها على وجه الدقة . وقد كان (بروفروك) شاعراً بهذا العجز الذي اتخذ من إليوت

---

(١) شعراء المدرسة الحديثة لروزنتال . ص ١٢٤

(٢) شعراء المدرسة الحديثة ص ١٢٦

أساساً للحكم على إخفاق (هملت) في تقديم نفسه الى قارئه .. ان بروفردك يصيح بلسان إليوت :

« من المتعذر أن أقول ما أعنيه تماماً » .

ونجد هذا المفهوم للمعادل الموضوعي واضحاً في أفواه النقاد الجدد الذين اعتمدوا عليه اعتماداً قوياً :

١ — **إن آلن تيت** يكرر كثيرا من عبارات اليوت التي ذكرناها وعنده أن الشعر لا يعطينا (تجربة انفعاليـة) ولا (تجربة عقلية) بل يعطينا **تجربة شعورية** . وهو يرى أن القصيدة العظيمة (مطلقة) ، وليس هناك شيء وراء القصيدة . وقد قال في مقدمته لي (قصائد مختارة) :

« ... إنني كشاعر ، كانت لي تجربة (أصيلة) ما ، وإنني كشاعر ينصب همامي على التجربة التي آمل أن تأتي للقارئ بقراءة القصيدة » . وهذا مطابق لرأي اليوت في مقدمة (الأفعى) لفاليري :

(ليسـت مشاعرنا هي مركز القمـة ، ولكن النموذج الذي نضعه من مشـاعرنا) .

كما أن مصطلح (التوتر Tension) الذي بنى عليه تيت نظرته الجمالية يستقي بوفرة من مفهوم المعادل الموضوعي . واذا كانت (الملاءمة) عنـد اليوت تكمن في تكافؤ الحقائق الخارجية مع الانفعال أو في تطابق الانفعال مع الشيء فعند (تيت) **يكمن معنى القصيدة في توترها ، أي في الوحدة او الائتلاف بين المجرد والمحسوس** .

٢ — ويتخذ **جون كرو رانسوم** موقفاً مشابهاً ، وازدواجية النسيج والبنيان عنده بديل جيد (للتوتر) . والقصيدة في رأيه عالم مغلق على ذاته يعوضنا

عن عالم المادة الصلبة ، وحالته موضوعية كما أن النقد الذي هو نقد لذلك البنيان الشعري يكون موضوعياً . والمعرفة التي يمكن تحصيلها من الشعر فريدة ، وهي تتميز عن النثر وعن المادة العلمية تميزاً جذرياً وجوهرياً ... فبنيـة القصيدة هي صحبتها النثرية (الشمول) ،ولكن القصيدة ليس لها هذا المعنى المقرر فقط الذي يتصل بالبنيان ، ولكن لها معنى نسيجياً كذلك ، والنسيج هو سياق التفصيلات المتباينة غير المقررة (الملموس) ... وقد كتب رانسوم :

« إن هدف الناقد الجيد يصبح لذلك فحص القصيدة وتعريفها بالنظر الى بنيانها ونسيجها ، واذا لم يجد مايقوله عن نسيجها فليس لديه مايقوله عنها باعتبارها نوعياً ، قصيدة . ولكنه يعاملها حينذاك بمقدار ماتكون نثراً » .

إن اصرار إليوت على ترجمة الانفعال إلى شيء ملموس يوازي بانتباه رانسوم الى النسيج المحلي للشعر وبادعائه بأن قيمة الشعر تتكون من مقدرته على استعادة « العالم الأشد كثافة وانكساراً ، الذي نعرفه معرفة غير محكمة من خلال رؤانا وذاكراتنا » .

٣ – وعند (كلينيث بروكس) تستدعي فكرة إليوت عن المعادل الموضوعي ارتباطاً موازياً :

« نحن – كقراء للشاعر – في عملية مشابهة لاكتشاف الشاعر مادته ، نصنع ثانية من رموزه تجربة مجموعية مشابهة نوعاً ما – في حالة امتلاكنا الخيال – التجربة الكلية للشاعر نفسه . »

وعنده تعد القصيدة كلاً جمالياً لا بديل له ، ونثر القصيدة ليس القصيدة ، إنه حجتها النثرية أو بنيانها . والقصيدة « هي التي تعرف نفسها بنفسها ولا يمكن للقارىء ولا الشاعر أن يعرفا أي شيء تقوله القصيدة بعيداً عن كلمات القصيدة »

والقيمة الشعرية لا تكمن فيما تقوله القصيدة ، ولكن فيما تكونه القصيدة ،الشيء المادي الذي يجعلنا ندرك انفعال الشاعر الأصلي . والدلالة على القصيدة بما يسمى نهائياً (نثرها) هو الدلالة عليها بشيء خارج عنها ، بشيء يمسخها في أحسن الأحوال الى مايشبه حالتها الأصلية غير المدركة .

ومن وجوه المعادل الموضوعي عند بروكس أن الشعر ينقل عن طريق منهج من اللامباشرة ، وكلمات القصيدة رموز مثقلة بالمعاني لا يمكن لأي معجم أن يفسرها ، وكذلك شأن الكلمة المفردة . وهكذا شرح :

ثم حين يخدم الزمن ونحن في طريق التلاشي

تعالي ، يا كوربنا ، تعالي ننصرف الى شهواتنا

« هذا يعني مع التصرف :

حين يخدم الزمن = حين يكون هناك وقت كاف . ولكنه في السياق الكامل يعني أيضاً ، حين يخدمنا الزمن . حين يكون الزمن حتى تلك اللحظة خادماً لا سيداً ، أي قبل أن يتحكم فينا الزمن ... والرجوع إلى المعجم لا يعطينا هذا المعنى الثاني القوي . »

ويبدو أن بروكس يرى أن التضاد هو القوة الموصلة في الشعر ، وأن الانفعال لا يتأصل في عقل القارىء بواسطة التعليق الانفعالي ، ولكن بالمفارقة بين المواقف أو الاشياء التي تقدمها القصيدة .

٤ – ثم ان منهج المباشرة في التعبير عن الانفعـــال في الشعر يرتبط ، عند ف . ر . ليفيز Leavis ، بالعجز عن القبض على شيء أو عن تحليل انطباع أو عن تقديم تجربة . انه دليل عجز الشاعر عن الخلق ، وهو عجز يرجع بصورة رئيسية الى حقيقة كون الانفعال يكتشف من الشيء الملموس . وقد كتب ليفيز

٥*

عن « عجز شلي الملحوظ عن القبض على شيء أو تقديم اي موقف او اية واقعة ملحوظة او متخيلة او اية تجربة ، كشيء يوجد مستقلاً بطبيعته الخاصة وبحقه الخاص وبالمقابل هناك التقديم المباشر للانفعال ـ انفعال معبر عنه باستمرار ـ بذاته ولذاته.»

والاستاذ ليفيز في فحصه المتمعن لشعر شلي يظهر نفسه ضليعاً في نظرية المعادل الموضوعي كاليوت نفسه . وشلي مرفوض خلال هذا الفحص بسبب عدم احترامه للتداخل بين المعنى المجرد والمادي . ذلك « انه ليس هناك شيء مستوعب في الشعر ـ لا موضوع يقدم كمادة للتأمل ، وليس من مشهد واقعي يقنعنا او يحركنا بماهيته » .

وبهذا المعنى فضل وردز ورث على شلي وبعض شعراء القرن التاسع عشر لان الدلالة المطلقة المجردة المعنى عند هؤلاء الشعراء هي الفكر : لا الوجود .

٥ ـ وقد اصر اكثر النقاد الجدد على ان الفكرة او الانفعال في العمل الفني ينبغي ان تضمن او تترجم في شكل ملموس ، لا ان ينص عليها . ويأخذ بونامي دوبري على (اورفه) لكوكتو أن خطأها الدرامي الأكبر هو « النص المباشر » اذينبغي ان يكون المعنى والانفعال في المسرح مدركين ضمناً ، ويضيف الأستاذ دوبري :

« كان خطأ ان يقال ان هور تبيس الزجاج ملاك حارس ، وأن تجمع يوريديس أطراف الكلام قائلة :(لقد كان مضحكا ان لا ندرك ان سعادتنا تكن في الحاضر ، حاضر كل يوم) . ونحن مضطرون لان نخمن هذه الأشياء أما أن تقال لنا مباشرة فذلك يودي بجدوى الرمز . وليس لـ(أباغو) ان يخبرنا انه زبدة الشر ، وليس لطرطوف ان يعلن انه مثال النفاق . والا فلن يكونا سوى خبرين ينبئان بما يرمي اليه خالقاهما . »

٦ ـ وعدّ « جون ديوي » أساليب الفن فوق أساليب العلم « لأن العالم حين يعالج انفعالاً لايستطيع الا ان ينص عليه في حين ان الفنان يخلق الشيء المادي الذي يثيره » ، « وللشاعر والروائي ميزة هائلة على الخبير النفسي في معالجة الانفعال لأن الاول يبني موقفاً ملموساً ويتيح له ان يثير استجابة انفعالية ، **وبدلاً من وصف انفعال في مصطلحات عقلية ورمزية يقوم الفنان بالعمل الذي ينمي الانفعال** ».

٧ ـ وقد أصبح شائعاً في النقد الحديث المفهوم القائل : «ان النهج الشعري يتألف من انشاء معادل أوفي التكافؤ بين الانفعال والعنصر الخارجي» . ويصر النقاد على ان اللغة رمز وينبغي ان تكون وثيقة الصلة بالشيء الذي تقدمه حتى يتوافر تطابق تام بينها ، وهذه الفكرة واضحة في كتابات (**مارتين تورنيل**) عن راسين وعن بودلير وورلين ، وكذلك فيما كتبه (**فيليب بلير رايس**) اثناء مقارنته بين (أبولينير) وسابقيه من الرمزيين :

« كان أبولينير يستطيع ان يكتب جيداً بالاسلوب الرمزي لأنه هوايضاً كان ينشد معادلات موضوعية ملموسة لكل انفعال ولكل فكرة مجردة » .

وفي ضوء هذه النظرة فسرت صور داتي البصرية وقصائد الشعر الغيبي (Metaphysical) .

جرى التأكيد مرة بعد مرة على أن التعادل بين الشيء المادي أو الرمز وبين الانفعال الذي يثيره ينبغي أن يكون تاماً . وكما يقول وايتهيد :

« هذا هو الأساس الكلي لفن الأدب ، أعني أن الانفعالات والمشاعر المستثارة مباشرة بواسطة الكلمات ينبغي أن تقوي بشكل ملائم الانفعالات والمشاعر الناتجة عن تأمل المعنى » .

ذلك أن العمل الفني ينجح إذ يثير فينـــا صبوات ثم يقوم بارواثها ، والصبوة والارواء - كما يقول دوبري - « ينبغي ألا يفرّط كل منها على الآخر... ولا ينبغي كذلك لأي نوع من الفن أن يتضمن اندفاعات تزيد على مايتطلبه من أجل الوصول الى الانفعال المنشود ... »

ومن وجوه العلاقة المركبة بين القصيدة والشاعر والقارىء — وفق المعادل الموضوعي — أن القصيدة لها حياتها الخاصة ، إنهاعالم معزول مغلق على ذاته، بقوانينه ومبادئه المنظمة .وإن مايجعل القصيدة شعرية ليس مجرد حضور الانفعال بل الاستيعاب الخيالي لهذا الانفعال . وهو يتضمن عملية تحويل حتى«أن الحقائق الخارجة عن القصيدة - كما كتب لويس ما كنيس - (**الحقائق التي تولد قصيدة ليست بعد ذلك الحقائق نفسها التي اندمجت لتوليد القصيدة**) ، إذ إنها تخضع لتغير كيماوي حيوي ، وعلى نحو مشابه ينبغي أن نميـــيز الموضوعات الموجودة في القصيدة بهذه الطريقة عن الموضوع أو الموضوعات التي تبقى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالانسان . وليس اهتمام الشاعر منصبا على دقة آنية من الانفعال ، ولكن على تجسيد الانفعال من خلال رؤيته ، ويتبع ذلك أن الشيء الذي يقدم لنا في أية قصيدة ، لايكون ولا يستطيع أن يكون شخصية الشاعر ، كما كتب ليويس ، « إنني أنظر بعينيه لا إليه ... وليس الشاعر إنسانا يطلب مني أن أنظر إليه ، إنه انسان يقول : انظر الى ذلك ويشير اليه ، وكلما اتبعت اشارة اصبعه تضاءل مايمكن أن أراه منه (الشاعر) » .

وحين نقرأ القصيدة ننسى كل ماهو خارج عنها ، ألا ننسى قائلها كذلك؟

في الحقيقة ، كل الأدب يميل الى حالة من اغفال الأسماء ، على حد قول ي . م . فورستر الذي يضيف :

« وبقدر ماتكون الكلمات خلاقة يبعدنا التوقيع عن أهميتها الحقيقية .... ولست أقول إن الأدب ، ينبغي ، أن لايوقع ، بل أقول ، لاحاجة به لأن يوقع . ولنقل إن الأدب يخطو دائماً نحو ذلك الاتجاه ويقول بتأثيره . أنا الموجود في الواقع لامؤلفي » .





كان هارون يقول لامرأته كل مساء تقريباً ، وهو يتناول عشاءه :

– سوف يصبح جارنا غنياً . الزبائن يتدفقون عليه منذ الصباح حتى مغيب الشمس ، لاأمرّ مرة أمام حانوته الا وأراه مكتظاً بالشارين.

وكان يسعل كلما فرغ من عبارته ، وتفتر شراهته في تناول الطعام . هارون له عينان رماديتان ، مبلوعتان الى باطن ، تلفهما أجفان سميكة حمراء ، وتنبثق منها نظرة حتى امرأته لاتشعر أمامها بالارتياح . وكان يتذمر دائماً من طعام زوجه ، ومن الشمس ، والمطر ، وعطاء حقله . وامرأته ذات الوجه الرخو الكئيب ، والنظرة الضائعة ، لاتذكر أنه بشّ لها مرة ، أو ابتسم ، وكانت قدرأت صهرها يغازل أختها الصغرى ، ويداعبها ، بل ويلعب معها أحياناً كطفل صغير .

وفي يوم ، وكان الطقس رائعاً ، شعر هارون فجأة أن قدمه تتورم . ولم تكن تنقصه الأسباب ليغضب ، ويسبّ . نادى امرأته خائفاً ، وأشار الى

ما أصابه ، لكن المرأة لم تنبس بكلمة واحدة . حدقت في القدم المتورمة ، وانخرطت في بكاء صامت حزين ، فانهال عليها هارون سباباً . وأراد أن يضربها لولا أن الورم كان يزداد ويتسع ، كأنه جنون ألمّ بجميع خلاياه . تورّمت الساق أيضاً ، ثم الفخذ ، ثم البطن ، ورغى فمه ، وتلامح في النظرة الجاحظة خلف أجفانه اللحمية الحمراء رعب محتقن . كان أنبوباً من المطاط ينفخ بالهواء . وظلت المرأة صامتة تبكي ، بينما ازداد ارتخاء وجهها الكئيب .

تلك حادثة غريبة ، أثارت اهتمام الناس ، وجعلتهم يتسلون مشفقين على هارون .. راثين مصيره ، لاسيما حينما فشل فيما بعد كل نطاسيي بلده والبلدان المجاورة في شفائه ، أو حتى تخفيف أورامه . ومع كل فشل ، كان هارون يزداد سخطاً وتشكياً . وفي أحيان ، كان يحدّق بقسوة تجعل امرأته ترتعد من الجذور ، وتتمتم مستغفرة ، لاعنة إبليس وغواياته . وقد زار الشيخ رجب الذي صيّر البلوط زيتوناً أخضر ، وكذلك الشيخ ابراهيم ، الشهير بتقواه ، لكن ما كان الورم ليتراجع أنملة ، مما أشعل في صدره التذمر والسخط أكثر فأكثر .

ومع الأيام ، امحى الخوف ، وتعود الناس الحادث ، حتى نسوا هارون القديم ، وانزوى الرجل المتورم في داره ، متدثراً بنظرة يفحمها الغلّ ، ويفيض من الأفكار المتبرمة والهواجس الغريبة . فمثلاً كان يفكر عندما تمضي زوجته لتقوم بأعمال الحقل ، أن جميع السكان قد تركوه في زاويته مهملاً ، ومضوا خلسة الى مكان قصيّ هاربين من زلزال سيدمر كل ما هو قائم . وكانت حواسه تتنبه الى حد الشعور فعلاً بأن الأرض تنتفض وتهتز . وفي أحيان كان يحس أن الريح قد هبت من أقاصي البحار ، لتفري عظامه ، وتقتله . والفئران لا تطل من جحورها الا لتقرض أصابعه حين تغفل عيناه قليلاً . والكلب يتثاءب فكأنه شهوة

الى لحمه الأصفر المتورم . والرب جزار سيهاجمه ليلاً بالساطور ، وهو يقهقه كاشفاً عن أسنان صفراء . ومراراً كان يفكر بجاره الذي يزدحم حانوته بالمشترين ويتمتم بأن العالم وحوش وذباب وهوام . حينئذ كان يكظ صدره الحنق،فيزحف الى الدار ، ليجلس تحت شجرة الخروب التي لم تمحل رغم ازدرائه لها . وعصر يوم .. بينما كان ملقى تحت الشجرة ينظر الى أورامه ساخطاً ، فاجأ خلوته عجوز طويل القامة ، ذو وجه حاد الملامح ، وعينان نفاذتان ، لكن مغسولتان بعذوبة آسرة . يتوكأ على عصا طويلة متآكلة الطرف ، وينحني ظهره قليلاً تحت كيس يبدو أنه ليس خفيفاً . وبادره بصوت يذكر بغناء الامهات :

ــ السلام عليك ياصديق

بعد الدهشة ، طفا على عيني هارون ، وهو يرمق العجوز ، اشمئزازوقح، ولم يجب ، بل سأل جاف اللهجة :

ــ ماذا تريد ؟!

لم يغضب العجوز ؛ بل على العكس،غاصت نظراته أعمق في العذوبة،وقال:

ــ لقد جيتك .

لكن هاروناً عاد يسأل أكثر جفافاً :

ــ وإذن .. ماذا تريد ..؟

ابتسم العجوز ، ووضع كيسه على الأرض ، فانبعث منه رنين ، ثم جلس هو الآخر جوار هارون ، وبرفق أخذ يتحسس يده الغليظة المتورمة غير آبه بذهوله . وإذ سحب هارون يده أخيراً ، قال العجوز جاداً :

ــ أتبيعني هذه اليد ؟

– ماذا تقول ؟

صرخ هارون باندهاش ، فكرر العجوز رؤوم الصوت :

– أسألك ، إن كنت تبيعني يدك ؟

عندئذ احتدّ هارون :

– اسمع أيها الرجل . لاينقصني النكد .. ولا المتاعب أيضاً . فوفّر سخريتك ، وإلا سمعت مالا يسرك .

– لكنني جادّ

– جادّ !!

– نعم جادّ .. وإلا ماذا تظن ؟ (وترقرقت ابتسامته) سامحك الله .. أنا من جنس الساخرين العابثين !

تفرّس هارون في وجه العجوز لحظات ، ثم طاف مكر ناقم على قسماته ، وسأل :

– طيب .. إذا كنت سأبيعها . فكم تدفع ؟

أجاب العجوز باهتمام :

– مئتي ليرة .

– كم ؟ (فاض وجهه بالدهشة ، وهو يسأل)

– قلت لك مئتي ليرة من الذهب .

– مئتي ليرة من الذهب ! وهل تملك مثل هذا المبلغ ؟

– معي أضعاف هذا المبلغ . ألا ترى كيسي ؟ إنه مليء بالذهب .

وبحركة شرهة سريعة ، وثبت أصابع هارون تجسّ الكيس ، وتسوس الذهب داخله ؛ فغمره الذهول ، حتى صار يتلعثم بالكلام :

– ولكن .. انظر .. إن يدي مريضة ألمّ بها الورم الخبيث كباقي أعضائي . وما دفعته يمكن أن يشتري المرء به قصراً حقيقياً .

ابتسم العجوز ، وقال :

– القصور ؟. وما قيمة القصور ؟ يدك لاتزال حية . وهي تساوي كل قصور الدنيا .

فالتمعت قبسة واهنة في وجه هارون ، ورقّ صوته :

– أتظن ذلك حقاً ؟

– بالتأكيد إنني أظن ذلك .

وبعد برهات صمت ،كان ينمو خلالها شيء غامض في دخيلة هارون ،قال :

– واذا أردت أن أبيع ساقي ، فبكم تشتريها ؟

فاجاب العجوز :

– بثلاثمائة ليرة ذهبية .

– ثلاثمائة !

– نعم ..

وتمتم هارون منفعل الصوت :

– إن أطرافي وحدها ثروة حقيقية . ثروة لايحلم بها المرء .. آه .. قل لي بحق الله .. هل أنت تسخر مني ؟

– يارجل .. إن شكوكك تؤلمني . أتريد أن أعدّ لك الثمن ؟

وفاضت ابتسامة حبور على وجه هارون ، وتحسّس أطرافه بحنوّ ودهشة ، وغمغم :

- لا .. لاأريد أن أبيعها .

وشردت عيناه براقتين في الأفق البعيد، بينما اختفى الرجل العجوز وكيسه.

في المساء .. وكم كان ذلك غريبـــاً ، بدأت الأوراق تخف . وانتشر هارون يتأمل بذهول السماء المرشوشة بالنجوم . وقد تذكر عندئذ فقط ، أنه لايعرف كيف دخل العجوز الى الدار ، ولا كيف مضى .




سكورين
قصة للكاتب الروماني
يوحنا سلافتش
نقلها عن الرومانية
الأب اميل مرقدة

ما أطول الحاجز الممتد من البوابة الى منعطف الطريق ! لقد قاسته ساندا بذهابها وإيابها والخيط بيدها ، ولكن هي نفسها لا تعلم كم مرة قطعت هذه المسافة.

ثمة قرب البوابة حلالة من الكتان . تأخذ ساندا طرف الخيط وتلفه حول اول عارضة من السياج ثم تسير تاركة الخيط ينساب بين اصابعها متنقلة من عارضة الى أخرى حتى تصل الى العمود القائم في المنعطف حيث تلفه ثانية وتعود أدراجها .

وتتحرك الحلالة بتوان وهي تصدر صريفاً متعباً فيما ينبسط الخيط ، ومن حين الى آخر كانت الحلالة تقف عن العمل ويكف الخيط عن الانسياب. عندئذ كانت ساندا تسرع اليها فتفرز الخيوط بعضها عن بعض ثم تعاود سيرها متنقلة من عارضة الى عارضة فهكذا تُسدّى خيوط النسيج ، والسياج هو خير واسطة لمد الخيوط عليه ، ان العوارض مفروزة في الأرض الواحدة قرب الثانية تشدها الى بعضها ضفائر من الأغصان الطويلة اليانعة . ولم يكن ارتفاع تلك العوارض ليزيد عن ستة أكف .

ان الأرض المجاورة للسياج ملساء غير ان هناك بستاناً للخضار والزهور يمتد القرع فيه امتداداً ويلتف هنا وهناك ويصل الى قمم السياج حتى ان نسيج ساندا يختفي في اخضرار اوراقه ويتساقط على تلك الخيوط من اصفرار ازهاره التي يهزها النحل. فالسّدي ليس أمراً سهلاً بين اغصان مستطيلة كخيوط العنكبوت.

تركت الأم مرثا البيت وذهبت مع الأطفال الى الحظيرة وذهب الأب استاتن بعربة محملة من الواح الخشب وبقيت ساندا وحدها . انه لذ لها الوقوف في الممر لا حباً بالمارين ، ولكن الغناء هنا يتجلى لها .

الطقس حار غير أن ساندا معتادة على الصقيع وعلى الحر الشديد . فمن كانت ذراعاها عاريتين وثوبها مدلى بزنارها وعلى رأسها غطاء ، لا تشعر بلهب تموز . انها تغني وتغزل وتفرز كبة الغزل وتتيه في صباها .

هوذا كلب قليل الشعر يخرج من الوادي الى وسط الممر ولأياً ما يجر أذياله . وعلى بعد بعض مئات الاقدام من المنعطف يلمح ساندا برهة فيقف ثم يرفع رأسه عاليا وتنتصب أذناه انتباها ويبدأ بالعواء بهدوء . تلتفت ساندا والخيط في يدها وهاهو يظهر في المنعطف . يختلج الكلب ويستنشط ، وبعينين محدقتين في ساندا يصعد اليها بسرعة .

ان فتاة تغزل نسيجها على طول السياج وترى كلباً قليل الشعر يأتي نحوها بسرعة لا بد لها من ان ترتعش امام هذا المشهد ، لذلك صرخت ساندا ثم جمدت في مكانها من الرعب واصفر وجهها واصبح كشهد العسل وثبتت عيناها في الكلب وكأنه ضب . ولكنه ـ بيدين ممتدتين ـ أخذ يضرب غبار الارض بذنبه وهو يعوي ، وزحف الكلب حتى وصل اليها . وهناك تمدد فوق الارض وهو ينظر الى الفتاة المذعورة ويعوي بخوف وذنبه يتحرك بدون انقطاع .

رجعت ساندا الى حالتها الطبيعية وخيل لها انه لا بد من انها رأت هذا الكلب قبل الآن ، ولكن أين وكيف ؟ انها لا تتذكر .

وفجأة أشرق وجهها :

ـ سكورمون !

صرخت ببهجة كما لو أنها صادفت صديقا قديما .

ولماسمع الكلب هذه الكلمة قفز بسرعة الى قدميها ثم ارتفع بيديه عليها وعاد الى احتضان قدميها وأخذ يحوم حولها مسروراً وبدأ يعوي ورجع ثانية الى لعق يديها .

– سكورمون ! عزيزي سكورمون !

قالت هذا وانحنت نحوه وهي تمرر يدها فوق شعره .

ما اضعفك ايها المسكين ! أين باسكو ؟

ولماسمع الكلب هذا الاسم أخذ يئن وكان يزداد صوته ارتفاعاً مرة بعد أخرى . وأخيراً رفع رأسه وبدأ يعوي .

نظرت اليه ساندا مضطربة ثم قالت : ياله من كلب مسكين ! كيف يئن. همست لنفسها هذا باشفاق ، ثم قالت له : سكورمون ، كفاك عواء ! وشعرت بدموعها تترقرق . من يعلم ! لربما مات في الجندية . واحسرتاه ، مسكين هذا الكلب .. ثم أخذت تمسح عينيها وهي تجلس على حجر قرب البوابة . من يعلم ، لربما مات ! في الخريف القادم ، يكون قد مضى عليه ثلاث سنوات منذ ذهابه الى الجندية . وان كثيرين يلاقون حتفهم . يقال بانهم يضربون ويقدم لهم طعام رديء . آه ، ما أمر ذلك ! لم يتلق أحد خبرا عنه . للآخرين اقرباء تصلهم اخبارهم . أما هو فليس له أحد سوى هذا الكلب الذي يهلك من الجوع .

وعلى ضوء هذه الافكار نظرت ساندا حولها . وكان الكلب رابضاً بالقرب من قدميها ، حينئذ أخذت تلمسه بلطف .

– سكورمون ! اليس لك من سيد ؟

نهض سكورمون ووضع يديه على ركبتيها وهو يحدق الى وجهها .

وهنا أخذت ساندا تحاسب نفسها . نعم لقد مضى على ذهابه ثلاث سنوات

وهيهات ان يكون خطر ببالها . ياليتها تكون فكرت فيه ولو مرة . وهكذا هي الحال فلم يفكر به احد .

ولكن لما دعي للخدمة الالزامية كانت ساندا فتاة صغيرة جدا ، لم تكن تعي بعد . اما هو فكان يلاطفها دوما حين كانت تأتي اليه في الحظيرة أيام الشتاء وفي السهرات حين كانت تفرط الذرة ، وفي أيام الربيع عندما تخلف النعاج ، كان يأتيها بأجمل حمل . ربما كان على استعداد لينفذ لها أية رغبة .. والآن تراها تتمنى ان تعرف أين يوجد وماذا يعمل وكيف حاله وبماذا يفكر ، تتمنى ان تراه مرة واحدة .

ينهض سكورمون ويقفز على كتفيها ، وتصرخ بحنان :

— سكورمون ! ثم حضنت رأسه وأخذت تقبله وهي تلتفت حولها خوفا من ان يلاحظها أحد . ثم نهضت ودخلت الدار فالبيت وأتت بقطعة خبز من الذرة . قالت له وهي تمد له قطعة الخبز :

— سكورمون ، خُذْ وكلْ ! كلْ ياسكورمون كلْ ، يالك من مسكين !

ما انحف جسمك ! مابقي عليك الا شعر قليل .

كلْ ياسكورمون !

قبض سكورمون على القطعة بخجل ووضعها بين يديه وجلست الفتاة بالقرب منه تنظر اليه بحبور كيف تزداد شهيته في الأكل .

— أين هو باسكو ياسكورمون !

ترك الكلب القطعة وأخذ يئن .

ـ انه مات ، أعلم أنه مـــات ، وللكلب شعور صادق في مثل هذه الأمور .

انقطعت الأم مرتا عن السير عند البوابة ووقفت مذهولة تسائل نفسها : أهي ساندا جالسة القرفصاء وتمد يديها على شعر كلب غريب ؟

ـ ماذا تصنعين يافتاتي ؟

ـ انه مات ياأماه ! اعرف انه مات .

الكلب يعوي . .

ـ من الذي مات !

ـ باسكو ،انظري هوذا كلبه .

ـ ومن هو باسكو !

ـ باسكو الراعي ؟

أجابت الأم مرتا :

ـ نعم ، نعم أتذكره . ذلك الاشقر من أتاك بخبره ؟

ـ الكلب يعوي ، يأماه ! انظري . سكورمون !

أين هو باسكو ؟

عند دخول الأم مرتا ، تراجع الكلب وأخذ يدور حول المرأتين . والآن توقف ورفع رأسه عاليا . وسألتة ساندا مرة ثانية :

ـ اين هو باسكو ؟

أخذ الكلب بالعواء .

نظرت الفتاة والأم اليه بشفقة كيف يبكي وحدته حسب تعبيره الخاص . وقالت الأم مرتا بعد حين :

ـ نعم ، لادليل للتفاؤل غفر الله ذنوبه كان شاباً طيباً ، لم يعد أحد يعرف صنع الجبن مثله .

مسكين هذا الكلب كيف يعوي !

وفيا كانت الأم مرة تتحدث عن وفاة باسكو كانت ساندا ترغب في ان تبين عكس ذلك . انه من المحتمل ان يعوي الكلب على سبيل الحنين الى سيده ، ولكن لما رأت أمها تمسح عينيها من الدموع تبعتها الى داخل البيت دون أن تتلفظ بكلمة.

وبعد مدة من الزمن رجعت ساندا ثانية تقيس طول السياج وبيدها الغزل كما لو انه لم يحدث اي شيء . وسكورمون يتمدد قرب الحلالة يتابع بنظراته أثر الفتاة التي اتخذها سيدة له . وكانت ساندا ، كلما اقتربت من الحلالة تمد يدها فوق شعره ، امّا الكلب فكان يتقلب على ظهره أمامها .

— مسكين انه مسرور

وفي صباح اليوم التالي ظهر على الفتاة تأثرات اليوم السابق . وسألتها امها باهتمام :

— مالك يافتاتي !

— لاشيء ياأماه !

— ان لونك اصفر كالشمع !

أجابت ساندا :

— لا أعرف .

وذهبت تعطي الكلب دقيق الذرة .

ومن يوم الى يوم كانت ساندا تنطوي على نفسها اكثر فأكثر وكان لونها يزداد اصفرارا ، كانت ترغب في الخروج من البيت ولكن بصحبة سكورمون وحده . لم يعد هذا يعوي منذ بضعة ايام حتى اذا ما سئل عن باسكو ، غير انه كان يئن فقط ويلتفت حوله كما لو كان يفتش عن شيء ما . وتقول ساندا في نفسها : من عنده الخبر اليقين ! ربما لم يمت ، وهي تشعر ان صوتا في داخلها يقول لها انه لم يزل حيا ، غير انها كلما سمعت هذا الصوت امتلكها الخوف .

وفي كل مرة نظرت فيها ساندا الى سكورمون دوى في نفسها ذلك الصوت. وكان صداه يثير فيها الرعب.

وبعد بضعة اسابيع ، خرجت الأم مرتا ذات يوم وبيدها قطعة من خبز الذرة وصرخت :

— **سكورمون !**

لا أحد يجيب.

— **سكورمون ؟**

لاحياة لمن تنادي.

- **انت يا فتاتي ، هيا الي ، نادِ لي ذلك الكلب !**

ونادت الفتاة ونادت الأم ونادى الجميع ولكن دون فائدة. مضى ذلك اليوم وما بعده وما وراءه ولا اثر لسكورمون ، انه رحل ومن يعرف الى اين ذهب. قالت الأم مرتا :

— واسفاه على ذلك الكلب ، كان صالحاً للبيت.

ربما خفف ذهابه من شقاء ساندا ولكن القرية اصبحت خاوية بفقده.

- ٢ -

في الوادي يجري نهر ، وفوق الربى بين الحقول والبساتين تمتد القرية متناثرة ، وفي الأعالي على قمم الجبل يرعى قطيع من الغنم في العشب الأخضر الكثيف. أما الحظيرة فانها توجد بالقرب من الصليب تماماً. ومن هنا اذا ألقت العين نظرة رأت الواديين معاً ، وشجرة الجوز المسنة تبسط ظلها للرعاة.

الأكباش تحب المناطحة والنعاج مواليد السنة سمينات والحملان مرحة. ومع ذلك فان الراعي جالس محجم عن الكلام ، يأخذ الناي بيده ولكن لم يعد لنغم « الدوينا » (١) سحر الأمس.

(١) غناء روماني في الحب والحزن والشوق ، نغمته نغمة انين.

اما سكورمون ، فانك تراه سيد الموقف . يقفز سكورمون بسرعة بين الأكباش كلما تناطحت ويفرقها سبعة سبعة ثم يقف رافـــع الرأس حتى يتحقق من انتهاء المعركة . وحين يرى القطيع يرعى ، يعوي بضع مرات معلناً بذلك انه يقظ يؤدي مهمته ، وبعد ذلك يتجه نحو سيده . وهناك يتمدد واضعا رأسه على يديه وهو يتبع حركات باسكو ، ومن حين الى آخر ينصب اذنيه ويختلج ويرفع رأسه او تسمعه يدمدم كأنه يتوقع حدوث ما لا يحمد عقباه .

باسكو لا يعيره انتباهه ، انه يعيش في عزلته . نعم لما كان في الخدمة الالزامية كان يتذكره مراراً ، لقد كان الجبل والقطيع وسكورمون اصدقاء فجر شبابه ، والآن حين رجع الى منزله لا تجد فيه رغبة في الحياة السابقة كأنه مل منها .

مضى عليه أربعة اسابيع وهو يرعى القطيع وحتى الآن لم يهتم بالكبش الذي يحمل الجرس الكبير في عنقه ، فالوقت كفيل بتغيير حاله والرجوع به الى حالته الأولى .

يرفع سكورمون رأسه أعلى فأعلى ويلاحظ ان في الوادي ما يثير انتباهه فيندفع الى الوادي كما لو كان طلقة بندقية ويخترق الحفائر والغياض . وينادي باسكـــو :

— الى اين يهرول هذا الكلب ! سكورمون ! سكورمون ؟

ليس لدى سكورمون من الوقت ما يقضيه في المحادثة .

نهض باسكو وأخذ يتتبع بنظره خطواته ، ويمتد الطريق الضيق في الوادي كأفعى ، انه ابيض ونير ، يلاحظ باسكو ان وراء الادغال الكثيفة امرأة

تصعد الجبل وسكورمون متجه نحوها في خـــط مستقيم ، هو ذا يلعب حولها، ويتمرغ في الأرض ويعوي ويقفز في وجهها ثم يعود الى باسكو .

ــ ما بك ياسكورمون ! هيا قل لي من تكون هذه ؟

كان يود سكورمون ان يجيبه ولكنه محروم من نعمة النطق بيد انـــه يعوي ويقفز ويدمدم ثم يعود الى ساندا ومن ساندا الى باسكو ومن باسكو الى ساندا حتى تتقلص المسافة بين الاثنين ولم يعد سكورمون يستطيع ان يرى وجهيهما .

وقفت ساندا ووجنتاها ملتهبتان امام باسكو .

آه . ياليته لم يذهب وياليته لم يرجع ، ياليته لم يوجد هنا .

أمعن باسكو النظر فيها فتذكرها ، نعم . انها ساندا ابنة استان . خيل اليه انها لم تزل كما كان يعهدها قبل ثلاث سنوات ومع ذلك فهي غير ما كانت عليه في ذلك الحين .

كأنه يريد ان يقول لها كلمة ولكن لايجد تلك الكلمة . قالت ساندا بصوت مخنوق لأياً ماسمعه باسكو :

ــ أخبرني فلوريا بن بوتوك انك رجعت .

وأجابها باسكو وهو يبحث عن الكلمات :

ــ نعم ، رجعت الى بيتي ورجع فلوريا ايضاً الى بيته .

انظري ! لدي قطيع جميل ، اربعة وعشرون كبشاً ومئة واثنتان وستون نعجة من مواليد هذه السنة ، وثلاثة وثمانون حملاً .

ــ ياله من قطيع كبير !

ــ ان العشب جميل جدا حتى يكاد الانسان لايترك الماشية ترعاه :

انظري ذاك الكبش فهو لي . انه يشبه البقر الوحشي ، هيا معي لأريك اياه .

توجه باسكو نحو الكبش وتبعته ساندا في حين كان سكورمون يجمع القطيع امامها .

ــ انه قطيع غني .

ــ غني تماماً ، ماورأت عيني قطيعاً مثله . انظري الى هذا ، انظري الى تلك والى الكبش الذي هناك (وهكذا كان يعرض لها رعيته المتناثرة .) ان لي رأساً من كل عشرة رؤوس .

كانت ساندا تلحق به أنى توجه وهي تنظر اليه من طرف خفي . ولما التفت اليها ووقع نظر أحدهما على الآخر وجدا في حالة تشابه حالة لقائهما الأول .

ــ انني راجعة الى البيت .

ــ اتذهبين الى البيت ؟

أجابت وهي سائرة :

ــ نعم ، انني راحلة .

لحقها باسكو .

فوقفت ساندا في الحال .

سألها باسكو :

ــ الى اين تذهبين !

ــ انني اتيت الى هنا .. هكذا .. فقط .

ــ ماذا تحملين في المنديل ؟

نظرت ساندا الى المنديل ثم الى باسكو .

لم تعد عيناها تريان . شعرت بغشاء عليها .

لاحظ سكورمون أن دمعة سالت على خدها ، فبدأ يئن . خيل اليه ان الحالة ليست على مايرام .

— انني أتيت بعنب لاقدمه لك !

قالت ساندا هذا دون ان تمسح دمعتها .

انها لم تعد تستطيع الكلام .

لا أعرف ماذا حدث وكيف . فَقَدَ باسكو وعيه .. وبدون ان يعرف ماجاشت به عواطفه رأى نفسه - عندما تنبه — يعانق ساندا .

وكان سكورمون يحدق اليها دون تردد .

وفي الخريف التالي ، كان وراء الربى الثلاث والأودية الثلاثة ، في ظل شجرة الزيزفون ، سرير من خشب . وكان سكورمون متمدداً بجانبه ينظر بهدوء كيف يلعب الطفل بيديه الصغيرتين وهو يتمتم بكلمات ذات معنى خفي .

الشارع المسحور

شعر سليمان العيسى



لكِ في كأسي قصيدة
أمسِ أبدعتكِ أكماماً ، وأنداءً جديده
وردةً كالفجر حلوه
صغتها من عبقرِ شعراً ونشوه
كنتِ تملين ، وكان الشعر يسكو
كان مثلي كل حرفٍ أخضرِ الميلاد يسكو
وضفرنا فجأةً ضوءَ القمر
وفرشناه على الدرب بساطاً من سمر
ومضينا . . يدكِ الشاردة الحيرى صلاةٌ في يدي
والحديث الأسمر العطشان يُروي كبدي
ووقفنا فجأةً . . أو مأتِ فجأه
أتراه ؟

لي ولكْ

فوق هذي الضفة العطشى أراه ..

لي ولكْ ..

وحدنا .. يسكب ضوءَهُ

فجأةً ياحلوة العينين أحببتُ القمرْ

كان في عينيك لي ليلٌ وغاباتٌ ، وشمسٌ ، وقمرْ

. . .

لكِ في كأسي قصيدَهْ

حلوة الميلاد ، سمراء ، جديدهْ

لست أدري لمَ ربعت زهرةٌ في شفتيك ؟

يهمس الدربُ فتمشي غيمةٌ في وجنتيك

أترانا قد تعبنا ؟

تعب الليل وغبنا

مثلما غاب الشعاع المرِحُ

في حنايا غيمة تنسرحُ

عاصف النشوة فينا انطفأ

نامَ في أعماقنا ، واختبأ

ملءَ روحي ضحكة تهدرُ سخراً ، ملءَ روحي

من أساطير النجوم الخضر ، والكون الفسيحِ

ان حسبي إصبَعٌ اعقدها في اصبعي

لحة أصنعها وحدي ، وأوهامي معي

ظلنا يومم في الدروب طريقه

وحده ، في زحمة الزور ، الحقيقه

وحده ، ظلُّكِ في الصمت وظلي

كنتُ كلّي لِلُّصوص النور يوماً ، كنت كلي

أترانا قد تعبنا ؟

تعب الليلُ ، وغبنا

جددبني بخطى عند الرصيف الأسمر

بحديث عابر نرصده للقمر

كلما أفلَتتْ ياعصفورتي من عتبات الشبكه

إسألي عني نوافذي

بسمةً في مقلتين

ويداً ، عند تخوم الشارع المهجور

ليلاً ، في يدٍ مشتبكه ..



حديث سرير

شعر محمد الحريري



في ضلوعي أيها الانسان نم واحلم وثرثر
وتقلب مستعيداً قصة اليوم المكرر
أذني تسمع ما تلغو به ليلاً وتهذر
كل اسرارك لا تجتاز مغناي المسور
أنا عانقتك قبل الام مذ اطللت تزفر
حينما كنا صغيرين ودنيا الحب أصغر
تمتمات منك أو زقزقة مني واكثر
لثغة عشنا عليها عبّرت أم لم تعبر
وكبرنا غير أني كنت من دنياك اكبر
فلها منك سلوك واضح النهج مشهر
مظهر الجد ويخفي في الحنايا ألف مظهر
ونصيبي منك اسراف وعسف وتجبر

ذقت منه الحلو والمر اعـــانيه فأصبر
أنا لا انساك تبكي شاكيا حباً تعثر
لا تذأ بي ، مازقاً مني غطائي حين تهصر
صارخاً يا تخت أسعفني ترى في الحب أظفر
فـأواسيك بهز آسر الرعشة مسكر
فيلف النوم جفنيك عـــلى حلم منور
ثم تستيقظ تعــدو خلف حسناء وتطفر
لتوافيني عـلى الليل بهـــا وهي تبختر
وتذوبان على صدري عناقـــاً يتسعر
وتفيقان ، نظامي منكما شتى مبعثر
فغطائي متعب من فرط ما اضناه منكر
ووسادي قـد علتهـــا شعرات تتحسر
وعلى زاوية خجـــلى تراءى بعض أحمر
ويمر الزمن العجلان مقدوراً مقـــدر
فيقـام العرس حولي فـأحلّى وأعطّر
عبث الزوجين مكتوب عـــلى حضني مسطر
هو مفضوح حـــلال سنّة الشرع المطهر
قبلة تحظى بتـــأييد وحضن ليس ينكر
مني الاسرة تنمو مني الاولاد تكثر
أيها الانسان انهكني ، وطوح بي ، ودمر
إنما لا تتمدد ميتاً فوقي مـــدثر

حولك الاحباب يبكونك مصباحاً تكسر
وأنا أبكي بدمع من دموع الصحب أغزر
أيها الانسان لا أقوى على موتك فاعذر
إن دهاك الموت فاستلق على عشب منضر
ان تمت فوق ضلوعي فأنا مثلك أقبَر
فتأخر أيها الانسان عن قبر تأخر



أسطورة حب

شعر عزيزة هارون



وددت لو أن حبيبي ساحر مسراح
يطير بي في غيمة سحرية الجناح
وكلما اسكرته طوت مع الرياح

يبني لي القصر الذي يعشقه قلبي
أنعم في افيائه بالدفء والحب
منثورة أحلامه شهباً على دربي

وإن ذكرت عالمي وما جنى عليّ
يضمني بلهفة تردني اليّ
ويمسح الدمع الذي يحرق مقلتي

ينقلني لعـــالم يرفّ بالحنـــان
لا ليـــل في أجوائه لاظـــلم لا هوان
أنام في ظـــلاله احسّ بالامـــان

وكلما خفت زوال الحسن عني والصّبـــا
يردني زاهيـــة كزهرة الربى
ناعمـــه ندية تلهو مـــع الصّبـــا

يبـــدعني ويجتلـــي في حي الوجـــود
يجود لي بروحـــه وبالهـــوى أجـــود
نحيـــا على وحي الرؤى نحيـــا بلا قيود



سلسلة

التراث القديم

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة التراث القديم ، لنشر الكتب المخطوطة التي لم يسبق نشرها ، والتي تكشف عن غنى حضارتنا العربية في مختلف الميادين ، وذلك بعد تحقيق هذه المخطوطات تحقيقاً علمياً وافياً .

يطبع في هذه السلسلة الجزء الرابع من مخطوطة (مجمع الآداب في معجم الألقاب) لعبد الرزاق بن الفوطي . قام بتحقيق هذا الجزء العلامة المعروف الدكتور مصطفى جواد . صدرت حتى الآن الأقسام الثلاثة الأولى من هذا الجزء الرابع كل منها يجاوز ستمائة صفحة . ويباع في جميع المكتبات المشهورة . ثمن القسم الواحد ٦٠٠ قرش سوري .

اعتمد الفوطي ألقاب الرجال ورتبها ترتيباً معجمياً وقد جعل فيه اسم العلم مقسماً الى ستة أقسام : أولها اللقب وثانيها الكنية والثالث للاسم والرابع لاسم الأب والخامس للنسبة والسادس لاختصاص العلم المترجم بفن أو بمهنة . ثم يترجم للعلم ترجمة مكثفة لاتعدو أحياناً ثلاثة أو أربعة أسطر يوفي بها الغرض من التعريف بالعلم .

وتضم هذه التراجم أعلام الأدب والفكر في التاريخ العربي في عصر ازدهار النهضة العربية حتى أواخر القرن السابع الهجري .



الفنون

الكتاب والموضوعات

- **صورة الرب**

في فن الغرب والشرق

للدكتور عفيف بهنسي

- **مستحاثات اللطامنة**

والكشوف الأثرية الفنية

بقلم علي حيدر النجاري

صورة الرب

في فن الغرب والشرق

للدكتور عفيف بهنسي

كيف أطل انساننا على الوجود ، قصة مثيرة نقرؤها في كتب الحضارة وكتب الدين ونرى حلقاتها مرتبطة بصورة الله الماثلة في نفوس بعض الناس اوفي عقول الآخرين ، وتتداخل هذه الحلقات وتختلط فلا نكاد نعرف لها بداية ولا نهاية ، ولا نكاد نميز اعلاها من أسفلها ، فحيث عرف الانسان وجه ربه بقلبه ، كان منذ الأزل وما يزال ، وحيث عرف الانسان وجه ربه بعقله ، كان طفلا وعملاقاً ، فليس لدينا حدود زمانية او حضارية لهذا

التطور في علاقة الانسان بخالقه ، ولكن لدينا بعض الحدود التي اقامتها الشمس بين شرق وغرب فحيث تشرق على الدعاء والأمل ، لاتترك الا تساميا نحو الأمثل المجرد ، وحيث تغرب ، تثير القلق وتدفع الى التشبث بالاشياء الراهنة ، اذ ليس بعد الوضوح العابر إلا ظلام عاجل .

صورة هذه السلسلة معقدة التفاصيل ، غير أنها تقدم خير جواب لاختلاف النظر الى وجه الخالق ، هذا الاختلاف الذي أثار أهل الفن منذ نقوش لاسكو والتاجدولين ، الى خطوط ماتيس واصباغ رووه ، فسجل صفحات تاريخ الخلق الفني التي نقرؤها من خلال الزمان المتناوب المكرور ، وليس مع الاسف من خلال خفقات الوجدان المتوتر .

وجه الرب ، صورة يفهم الحق من خلالها ، فاذا كان الحق في السحر الذي يقضي على قوى الشر الكامنة في تنين او فهد مفترس او ابليس كانت صورة الرب في تميمة أو طوطم أو وثن ، بل انه ليكون كذلك في وجه اوفي رمز اوفي صليب .

وليست احقاب التاريخ هي التي وضعت للسحر حداً في تصوير وجه الرب ، بل هي أحقاب الوعي الفردي والاجتماعي ، فثمة احقاب سابقة للتاريخ في وجدان وتفكير كل انسان ، وثمة امتدادات تتجاوز التاريخ في وعينا ، فليس غريباً ان نبتهل خاشعين امام خشبة مصلبة حتى هذا العصر ، اذا ماتذكرنا ان السحر متصل أيضاً بالاسطورة الحية التي تنغرس في نفوسنا منذ طفولتنا العمياء ، فلا نرى النور من خلال الحقيقة ، بل نراه من خلال الحلم ، وهكذا تنمو رموز جديدة يسعى وراءها الانسان ينشد الحق . فهو يرى الرب في صورة كائن ما ، حيواني او انساني ، اوهو يراها في صورة كائن أسطوري تتوحد فيه عجائب المخلوقات .

ولم يكن الحق حقاً ، بل كان واجباً في اكثر الاحيان ، ففي كل مرة يفتقر فيها الحاكم أو الملك الى مؤيد يفوق الحس والقوة المادية ، كان يربط حقه بالله ، فيفرضه وكأنه امر إلهي لامناص من الرضوخ له ، وهكذا كان لكل أمة بل لكل دولة ولكل مدينة ، آلهة تفرض على الناس احترام السلطة وتؤيد تنظيم العلاقات . ولكن نمو العقل الفردي عند الانسان ، كان يطرح مشكلة وحلاً في آن معاً فهو يرفض الرموز ويبحث عن وجه الرب الحقيقي . الا انه يختلف في تحديد صورة هذا الوجه ، فهو عندما ينظر اليها من خلال عقله ، فان هذه الصورة لاتقبل ماهو متجاوز لمنطق العقل ، وعندما يسعى الى فهم صورة الرب عن طريق الحدس وعن طريق الوحي او التجلي ، فان هذه الصورة تخرج عن حدود الواقع المألوف لتتصل بالغامض والغيبي .

هذا الافتراق الجذري الذي حددته الشمس بين شرق وغرب ، هو موضوع الحديث

عن اختلاف فهم وتصور وجه الرب ، ان في الدين اوفي الفن .واذا اتفقنا على ان الدين ظاهرة انسانية وحضارية ، وانه بأبعاده ومفاهيمه قومي الى حد بعيد ، استطعنا السير في طريق البحث عن صورة الرب من خلال خلفية الفن الروحية في الشرق ، أو خلفيـــة الفن العقلية في الغرب .

ففي الشرق صورة قديمـــة لرب متسام ذي وجود مستقل ، وهو في ذاته الحقيقة المطلقة القديمة ، غير الحادثة عن غيرها ، وهي التي قدرت ونظمت الوجود الحادث الذي نسميه العالم الواقعي .

والحق أن هذا ليس مفهوم الله في الشرق كله ، بل هو كذلك في شرقنا ، في ارضنا العربيـــة ، اما في الشرق الاقصى ، فان مفهوم الله يقوم على مبدأ حلولي ، بمعنى ان الله حال في كل الوجود ، والوجود كله ، بما فيه الانسانية ، خاضع لعملية الحدوث غير المفهومة .

ولقد نتج عن اختلاف هذين المفهومين الروحانيين اتجاهان مختلفان ومتميزان في الفن عامة ، وفي تحديد صورة الرب بصورة خاصة . فالفنان البوذي يفضل دائماً تصوير الطبيعة ويبتعد عن تصوير الانسان ، اذ في الطبيعة روح العالم ، وهي اكثر رفعة وسمواً من الانسان ، وأقرب منهـــا الى الجوهر الثابت الكلي ، وباعتقاده ان تصوير الانسان يؤدي الى اثارة الافكار الملتوية التي تعشش في سريرته ، ولهذا فهو غير مرغوب فيه أصلاً ، وهكذا كان تصوير الطبيعة عند البوذيين والبراهمة تصويراً للحق ومطية للاتصال بالقدرة الالهية .

أما في العقيدة العربية منذ عهد الرافدين وحتى اليوم . فان الله كائن فوق الاشياء والطبيعة والانسان ، وان كل عملية تجسيد له أو تشبيه تعني جعل المعبود من صفة المخلوق ، أو تعني رفع المخلوق الى صفة المعبود . ومن هنا نشأت مشكلة تشبيه الله (Anthropomorphic) الـــتي حاربتها الاديان السماوية والاقوام العربية السامية دائماً .

وعند الحديث عن صورة الرب عند الرافدين الاجداد ، فان ثمة اعتراضاً يحاول الحيلولة دون ايضاح العقيدة السماوية الوحدانية عندهم . وذلك بتذكيرنا بآلهة الرافدين المتعددة ، شماش أدنانر أو عشتار ومردوخ .. وبصورها المثالية الكواكب والمحددة بالوان خاصة .

ولابد أمام هذا من التفريق بين صورة الله وصورة الآلهة . لقد كان الله عند الرافدين واحداً يسود جميع الآلهة ومجاله السماء آنو ، أما الآلهة فكانت هي الكواكب التي ترفد الملك بقوتها السحرية . وانتقل هذا الاعتقاد الى مصر ابان الانقلاب الاخناتوني لكي يصبح مجال الله

آتون أي الشمس . وعندما ظهرت الاديان السماوية ، اصبحت صورة الرب فوق مستوى التصور ، وانحسرت قوة الآلهة أمام شمول ألوهية الرب ، وهو الجوهر الازلي الذي لاتجزؤ لوحدانيته وسلطانه .

ومع ان تقديس هذه الآلهة الكواكب استمر الى وقت قريب من الاسلام ، مما يؤكده القرآن « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ،واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم اياه تعبدون » اقول رغم هذا فان فكرةالله الواحد غير المشخص بقيت هي السائدة حتى قبل الاسلام مما توضحه آيات القرآن ايضاً .

كذلك استعمل العرب في ايمانهم اسم الله او نداء اللهم، ومن ذلك قوله تعالى « وأقسموا بالله جهد ايمانهم » . وكانوا يستعملون اسم الله في ادعيتهم وفي عقودهم وكتاباتهم ، حتى انتسمية عبد الله كانت كثيرة الشيوع .

ولقد فهم العرب قبل الاسلام صورة الله بمعناها الوحداني وشكلها المجرد ، بيد أنه كان ثمة تخلف اجتماعي في بعض البيئات العربية صرف الناس عن التأمل الديني الراقي الذي كان عليه اجداد العرب ، الى نوع من التوجس من الارواح الشريرةومن الغيب المظلم فلجأوا الى التمائم التي لم تكن آلهة في حقيقتها ، بل كانت مجرد تماثيل ، قد تكون اغريقية المنشأ او رومانية ، ولكنها كانت بنظرهم زلفى الى الله او تميمة تحفظهم من الشر . ولعل بعض هذه المعتقدات مايزال سائداً لدى كثير من البسطاء حتى يومنا هذا .

ويحدثنا ابن الكلبي في كتاب الاصنام « انه كان لأهل كل دار من مكة صنم ، فاذا اراد احدهم السفر كان آخر مايصنع في منزله انيتمسح به ؟ واذا قدم من سفره كان اولمايصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به ايضاً » .

وكانت هذه الاصنام على شكل ثلاث شجرات كالعزى ، او مجموعة احجار كالانصاب ، او قطعة من العقيق الاحمر او قطعة منقوشاً عليها هيئة تاج، او انها تمثال؛ كَوُدّ وأساف ونائلة .

والواقع ان تعميم الشرك على جميع العرب قبل الاسلام لايتفق والحقائق التالية : أولاً ، وجود فئات معروفة من العرب ، كالأحناف ممن اتبع وحدانية الله التي تجلت في الدين الحنيف دين ابراهيم الخليل. وهذا دليل على ان فئة كبيرة من العرب كانت معروفة دائماً بايمانها الوحداني.

ثم ان انتشار الاسلام انتشاراً سريعا خارقا بين العرب ليؤكد ذلك الاستعداد القبلي للايمان بالله الأحد .

ومن جهة ثانية فان وجود طوائف تدين بالاديانالسماوية منتشرة في ارجاء الجزيرةالعربية

تؤكد الاعتقاد القديم بمفهوم الوحدانية . وفي ذلك قوله تعالى « ان تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين ـ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم » .

بيد أن طائفة من سكان البادية ، وهم الاعراب ، ما كانت لتقبل الايمان بالله مجردا عن الشبه ، لقصور خيالهم عن تصور قوة لاتجسيد محسوس لها ، ولهذا فهم يطالبون برؤية الرب ، يطالبون بالتعرف على وجه الرب ، وفي القرآن « وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة او نرى ربنا » ومن الواضح ان الاعراب هم غير العرب ، او لعلهم من مواليهم البدو. ونظرا لطبيعة حياتهم القاسية ، كانوا أبعد عن طرح الاسئلة العميقة والبحث عن الاجوبة السماوية .

وهكذا كان وجه الرب مجردا عند العرب ، ليس له صورة مشخصة او مشبهة ، ورغم ظهور بعض الوجوه الالهية المشخصة مما ذكرناه ، فان هذا الظهور لم يقض على مفهوم الله كما يقول مالرو في كتابه تحولات الآلهة بل بقي هذا المفهوم اكثر سموا وارتفاعا ، ولكنه اكثر غموضا حتى في ظهور الاسلام . فكان هذا الدين حازما ، في فصل مفهوم وصفات الله عن كل مفهوم بشري ، إذ وضع حدودا فاصلة بين الانسان وربه لايستطيع أن يتخطاها حتى ولو كان كاهنا أو وليا أو نبيا ، ومن هنا فان الاسلام رفض مفهوم (اللوغوس) اي الوسيط الالهي ولم يعتبر محمدا الا بشراً أرسله الله لهداية العالمين « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

كذلك لم تعتصم الملكية بالحق الالهي رغم ان الخلافة كانت تضمن زعامة دينية وزمنية ـ ونحن نسمع البحتري وهو يصف المتوكل بأروع آيات الجلال، ولكنه انما يزيده جلالا عندما يزيد في وصف زهده وبساطة موقعه من الخالق ، فهو يقول :

ذكروا بطلعتك التي فهللوا — لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابسا — نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع — لله لايزهو ولايتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما — في وسعه لمشى اليك المنبر

لقد كان من لوازم هذه النزعة التوحيدية الأصيلة عند العرب ، التعفف في التصوير عن تشبيه الله بالمخلوقات ، فكل صفة تصدر عن الانسان لايمكن ان تخص الله ، وكل صفة تخص الله لايمكن ان يتحلى بها الانسان ، فالله لاوصف له سوى انه لايوصف ، أو هو كما وصف نفسه لموسى في التوراة « انا هو من أنا وانا الموجود ـ وكفى ... » وبهذا يقول التوحيدي في المقابسات « وأما من اشار الى الذات فقط بعقله البريء السليم ، من غير تورية باسم ولا تحلية

برسم مخلصا مقدسا ، فقد وفى حق التوحيد بقدر الطاقة البشرية ، لانه أثبت الإِنِّيَّة ، ونفى الأَيْنِيَّة والكيفية ، وعلاه عن كل فكر وروية » .

غير أن وجه الرب أو صورة الله ، قد أثارت جدلا عند المسلمين ، في كل مرة استطاعت الثقافة الاغريقية فيها النفوذ عن طريق الفلاسفة المسلمين .

ولقد كان المجتهدون فئتين في تحديد صورة الرب ، فئة تنادي بتجريـد هذه الصورة استنادا للآية الكريمة « وليس كمثله شيء » وفئة اخرى تقول بالتشبيه .

وقد يقتضينا المقام هنا لتوضيح مفهوم الصورة الالهية ، اللجوء الى التوحيـدي ايضاً لاستعارة مابسطه في هذا المجال :

يرى التوحيدي في الامتاع والمؤانسة « ان الصورة الالهيـة هي التي يخرج بها الجوهر الى الظهور عند اعتقاب الصور اياه » . ثم يروي على لســان ابي سليمان « بان الصور انواع اهمها الصورة الالهية والصورة العقلية ، اما الصورة الالهية ، وهي أعلى الصور في الرتبةوالحقيقة وهي ابعد منا في التحصل الا بمعونة الله تعالى ـ فلا طريق الى وضعها وتحديدها الا على التقريب ، وذلك ان البساطة تغلب عليها ، الا انها مع ذلك ترسم بان يقال : هي التي تجلت بالوحدة وتبتت بالدوام ودامت بالوجود » .

فالصورة الالهية هنا تتميز بالخصائص التالية :

اولاً هي أعلى الصور بالرتبة والحقيقة ، فليس من صورة مهما كانت اوصافها وابعادها تفوق الصورة الالهية ، وليس من وجود يسبق في حقيقته حقيقة الله ..

ثم إن تصور الله لا يتم الا بعون الله تعالى ، ويكون هذا العون عن طريق التجلي والوجد الذي يتم للانبياء والأولياء . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الصورة لا تتجلى الا على وجه التقريب ، فلا تكون واضحة صريحة . ثم هي صورة تقريبية لأنها اقرب الى البساطة والاطلاق واخيراً فان بساطتها تكمن في وحدتها وديمومتها ، فهي كاملة ومستمرة مع الزمان .

ويقارن التوحيدي بين الصورة الالهية والصورة العقلية . وفي هذه المقارنة ايضاح اوفى لابعاد الصورة الالهية . وهو يرى :

– « ان الصورة الالهية ترد عليك وتأخذ منك والصورة العقلية تصل اليك فتعطيك ، فالاولى بقهر وقدرة ، والثانية برفق ولطافة » وهو يريد من هذا ان الصورة الالهية ترى ولا ترى ـ لا تدركها الابصار وهي تدرك الابصار . فهي قادرة على اشعاع قوتها على عكس الصورة الواقعية التي تفهم بالعقل فهي قابلة للمثول ومكشوفة بكل بساطة .

- ثم يقول : « وتلك (اي الصورة الالهية) تحجبك عن لم وكيف ، وهذه (اي الصورة العقلية) تفتح عليك لم وكيف » . وهو يعني ان الصورة الالهية هي ابعد عن الوصف والكشف « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » . اما الصورة العقلية فهي على العكس تثير السؤال والبحث والكشف .

- ويتابع التوحيدي مقارنته فيقول : وتلك لا تنحى ولا تطلب ، وهذه يسمى اليها ويسأل عنها وتوجد ، بمعنى ان صورة الرب هي فوق التصور . ويقول اخيراً « وانوار الصورة الالهية بروق تمر ، وانوار الصورة العقلية شموس تستنير » بمعنى ان صورة الرب أزلية شماعية كالنور الخاطف لا تقدر العين على الصمود في النظر اليها .

وفي كتاب الاشارات يعرف ابن سينا الصورة الكلية لله فيقول « لقد ظهر لنا ان للكل مبدأ واجب الوجود . ولهذا فهو غير داخل في جنس ، او واقع تحت حد او برهان ، بريئاً عن الكم والكيف . والاين والمتى والحركة ، لا ند له ولا شريك ولا ضد ، وانه واحد من وجوده لانه غير منقسم لا في الأجزاء بالفعل ولا في الاجزاء بالفرض والوهم كالمتصل ، ولا في العقل بان تكون ذاته مركبة من معان عقلية متغايرة يتحد بها جملة ، وانه واحد من حيث هو غير مشارك البتة في وجوده الذي له ، فهو بهذا الوجود فرد ، وهو واحد لانه تام الوجود ، ما بقي له شيء ينتظر حتى يتم » .

على ان القرآن والكتب المقدسة الاخرى ، قد وصفت الله بأوصاف تكاد تكون من خصائص البشر ، فهو سميع عليم جبار عزيز بصير قاهر ، وفي القرآن اوصاف تشبيهية مثل « يد الله فوق ايديهم » - « الرحمن على العرش استوى » - « ويبقى وجــه ربك ذو الجلال والاكرام » - كذلك ورد في الحديث اوصاف مشابهة كقول الرسول : « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » .

واقتسم المسلمون في ذلك ، فقال قوم من السلف نؤمن بذلك ولا نتعرض للتأويل، بعد ان نقر قطعاً ان الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات . وذهب جماعة من غلاة الشيعة وجماعة من اصحاب الحديث الحشوية الى التشبيه ، بمعنى ان صورة الرب مشابهة للصورة البشرية في أعلى مثل. ويقول الشهرستاني ان المشبهة اقتبسوا ذلك عن بعض اليهود ، وهم من القرائين الذين وجدوا في التوراة الفاظاً كثيرة تدل على ذلك ، كمثل قوله : « ان الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة » « وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه » « وان العرش يئط من تحته كأطيــط الرحل الجديد ... »

على ان اصحاب المعتزلة وضعوا حداً للتشبيه ، واولوا الآيات التي تتعلق بالاستعارات بما يتفق والتنزيه ، فقالوا على لسان الاشعري « ان الله واحد ، ليس كمثله شيء وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذي لون ولا طول ولا عرض ولا عمق ··· وليس بذي جهات ··· ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ··· ولا تدركه الحواس ··· وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له، شيء لا كالاشياء .. » .

وهكذا تتمسك جماعة المعتزلة بمفهوم الآية « ليس كمثله شيء » . مستشهدين ايضاً بالآية « ولما جاء موسى لميقاتنا ـ وكلمه ربه ـ قال رب ارني انظر اليك . قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا اول المؤمنين » . على ان من اهم نتائج هذه العقيدة الوحدانية القائمة على عدم تشخيص الله هو كراهية تصوير وتمثيل المشخصات ، مما دعا الى تفسير الحديث الشريف القائل « يعذب المصورون يوم القيامة » بمنع التصوير اطلاقاً ، بيد أن احد كبار النحاة وهو أبو علي الفارسي اوضح في كتابه (الحجة في علل القراءات) تفسير هذا الحديث الشريف في معرض حديثه عن المفعول الثاني المحذوف في بعض الآيات فهو يقول : (اما قوله تعالى « ثم اتخذتم العجل من بعده » وقوله « باتخاذكم العجل » ـ « اتخذوه وكانوا ظالمين » ـ « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً » فالتقدير في هذا كله : اتخذوه الهاً ، فحذف المفعول الثاني ، الدليل على ذلك ان الكلام لا يخلو من ان يكون على ظاهره كقوله « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » او يكون على ارادة المفعول ، فلا يجوز على ظاهره دون ارادة المفعول الثاني ··· ويستنتج ابو علي من ذلك ان من صاغ عجلاً او نجره ، أو عمله بضرب من الاعمال ، لم يستحق الغضب من الله والوعيد عند المسلمين ، وهكذا فقد جاء في الحديث (يعذب المصورون يوم القيامة) يكون على من صور الله تصوير الاجسام) .

هنا يتضح لنا سر المنع في الاسلام ، فهو في الواقع لا يعني منع التصوير اطلاقا ، بل يعني منع تصوير الله صورة الاجسام . »

ويوضح ابو حيان التوحيـــدي مفهوم المنع من زاوية أخرى فيقول (في الامتاع والمؤانسة) : « وانا اعوذ بالله من صناعة لاتحقق التوحيد ، ولا تدل على الواحد ، ولاتدعو الى عبادته ، والاعتراف بوحدانيته والقيام بحقوقه ، والصبر الى كنفه ، والصبر على قضائه والتسليم لأمره . » وبهذا يحدد التوحيدي قواعد تصوير الرب بل قواعد التصوير العربي بصورة عامة .

المعالم الروحية التي ظهرت على الأرض العربية والتي عرضنا لها ببعض الايجاز ، لم تنحصر

خلاصتها في الدين الاسلامي ، بل لقد كانت مقدماتها الصريحة المحددة واضحة في الاديان السماوية التي ظهرت على الأرض العربية .

غير أن هذه الاديان وقد انتقلت الى الغرب تعرضت الى انحرافات جذرية غيرت من مفهوم صورة الرب التي اقتربت من المفهوم الوثني ، في حين استقرت على الارض العربية مجردة لامحل للتشبيه فيها .

فكيف نفذت التشبيهية الى صورة الله في الغرب وقد جاء في التوراة : « لا أحد يرى الله ويعيش » .

لاشك ان الرجوع الى جذور الحضارة الغربية يكشف لنا عن معالم العقلانية المادية التي تأبى تصور إله سديمي مطلق .

يقول هيرودوت: «ان هوميروس وهزيود منحا الآلهة اليونانية اسماءها ، وصورا اشكالها وجاء فن النحت اليوناني فأتم العمل الذي بدأه الشعر . وهانحن فلما نتصور زوث الاولمبي الاوهو متمثل في الشكل والصورة التي صنعها فيدياس . »

فصورة الرب عند الاغريق هي من صنع الانسان، هي صورة كائن اسطوري على شكل بشري يجري في دمائه سائل عجيب يجعله سرمديا ، ويجعله خارقا في قوته وقدرته . الا انه الى ذلك يمارس سلوك البشر والخطايا .

وهكذا فان الدوافع الاولى لتمثيل الرب بصورة آدمية هي تمثيل العظمة والقوة ، أو على الأقل تحقيق الكمال الجسدي والجمال المطلق . ولأن الآلهة مقرونة ظروفها وقصصها بظروف وأحداث البشر ، كان موضوع الجمال الأمثل الجسم البشري ذاته . ومن هنا فان صورة الرب لم تكن الا صورة للمثل الأعلى للجمال الجسدي ، وكأن الجمال الأمثل تعبير عن القوة المثلى . ومن هنا نرى أن العلاقة بين الانسان والآلهة الاغريقية كانت افقية ، فلقد كان بمقدور أي انسان ان يكون هو زوث أو بوسيدون وبمقدور أية امرأة ان تكون فينوس أو هيرا . وكل مابين ايدينا من تماثيل اغريقية الهية لايحقق أي امتياز عن الصورة البشرية ، اللهم لولا العلامات الالهية ـ كصاعقة زوث وقوس ابولون واجنحة مركور ودرع أثينا ومنجل ديمترا ..

وهكذا كان الانسان مقياس الاشياء كلها ، هو مقياس الهي ومقياس بطولي ومقياس جمالي . وكما يقول بروتاغوراس : « الانسان مقياس الأشياء جميعاً ، هو مقياس وجود ما يوجد منها ، ومقياس وجود ما لا يوجد » . وهذا يعني ان الانسان ليس مقياساً خارجياً للقيم المادية فقط بل هو ايضا مقياس وجود الاشياء غير الموجودة .

فالانسان هو الذي تصور الآلهة ، واوجدها على الشكل الذي يهواه ، كما فعل هوميروس في الاوديسة او كما فعل هزيود في ديوانه « أصل الآلهة » .

ولقد جسد النحاتون من امثال فيدياس وبراكسيتيل وليزيب صورة الرب زوث او ابولون او اثينا او بوسيدون على شكل انسان ، ويذكر المؤرخ القديم بلين Plein الكثير من هذه التماثيل .

يتضح من ذلك أن الفنان الاغريقي لم يستثمر - رغم روعة انتاجه - المعاني الخارقة في صورة الرب ، فهو ينزع عن هذه الصورة كما يقول وورنغر « صفة اللادينونة فيصبح الرب بالنسبة للانسان الكلاسي موجوداً في الدنيا ، ولكن ليس ذي فكرة سامية منزهة » .

على ان النحات العظيم فيدياس ، اذ رأى في صورة الرب صورة بشرية ، رفع هذه الصورة الى مثالية تكتنفها المعجزات الاسطورية ، وهكذا كان تمثاله ابولون كاسل Cassel نموذجاً جباراً للانسان الجليل ذي الافكار الحكيمة الخارقة . ولكن هل حلت هذه الصور معنى الله دائماً . ان جميع تماثيل فيدياس التي تمثل صورة الرب مفقودة ، غير أن وصف المؤرخين يبين لنا ان هذه التماثيل لم تتجاوز كونها تماثيل بشرية مثالية ، وان الرموز الالهية الاخرى كالقوس الذي يدل على ابولون فيحمي به من يشاء ويعاقب من يشاء ، وغصن الغار الذي كان يطهر به عباده ، هي وحدها الفاصلة بين الصفة البشرية والصفة الالهية . ولهذا يقول مالرو : « ان الآلهة فقدت ميزاتها بسرعة امام جمهور المتعبدين فلم تعد اهمية المثال لموضوعه الالهي بل لروعته النحتية التشكيلية » .

واستطيع القول أن صورة الرب عند الاغريق أخذت شكلاً جمالياً محضاً ، فلقد حل فيها الرائع مكان القدسي ، والخارق مكان فوق الطبيعي ، كما حلت التراجيديا مكان المصير .

واتضح ذلك على لسان افلاطون الذي يرى الخير في الجمال ، فبقدر مايكون العمل الفني جميلاً يكون اخلاقياً ، اي ان الصورة الجميلة هي صورة المثل الالهيـة ، ولعل صورة الرب ابولون عند فيدياس كان يجب ان تكون مرحلة من مراحل الكمال الجسدي والتعبيري ، بل لكأن الكمال كان هو الرب بذاته ، أو لكأن القانون Canon الذي اوجده بولكليت ، هو نفسه الرب ، فالمقياس الرياضي والعلاقات الذهبية المثالية هي نفسها حدود المثل الأعلى الالهي عند النحاتين الاغريق ، ولقد تأكد هذا في عقائد الناس ، فاصبحت الآلهة هي الانسان العظيم ، هي في تلك الصورة التي لاتحمل من الروح الا الاسطورة الخيالية الخارقة ، واشتد ايمان الناس بصورة الرب هذه ، خاصة وانها مجسدة في اشكال جمالية وبطولية محببة ، ولم يعد بالامكان فضح حقيقة هذه الصورة المحورة ، حتى ان بروتاغوراس حكم عليه بالاعدام لكفره بالآلهـة ففر لكي يموت غرقاً وذلك لانه قال في كتابه (الحقيقة) : « لااستطيع ان اعلم ان كان الآلهة

موجودين أم غير موجودين . فان أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذا العلم ، اهمها غموض المسألة وقصر الحياة » .

ومما لاشك فيه ان الفلاسفة الاغريق لم يقفوا من هذه العقيدة الاسطورية موقف المقتنع بل انهم بحثوا منذ العصر الذهبي ، عن ماهية الله الازلي ، الله الذي يسمو فوق الآلهة ، الله الواحد بذاته ، فلقد فهم افلاطون معنى الواحد الأحد ، الا انه لم يستطع التصريح به ، ولكنه قال : « ان اسكل شيء صورته عدا الجوهر اي الله » . وبهذا فان الفكر الميتافيزيقي المنحدر عن الاغريق رفض بجوف صورة الرب البشرية ، واراد ان يبحث عن هذه الصورة في الجوهر الفرد عبثاً .

لعـــل مابسطناه حتى الآن يصل بنا الى نقطة هامة هي بداية الافتراق بين الغرب والشرق . فالعقيدة الوثنية وسمت الحضارة الغربيـــة كلها بميسمها الذي تبدى في تشبيه صورة الرب .

فمنذ أن كان المسيحيون يمارسون شعائر دينهم في الياميس بعيداً عن رقابة الاباطرة الرومان كانت الصور الموجودة في مياس كاليستو مثلاً ، تتضمن مواضيع العهد القديم محرفة ، مما لايختلف عن صور الاساطير الوثنية ، بل انها تتضمن صورة الرب الوثني ذاتها . فأخذ المسيح شكل ارفيوس بوضوح .

على ان المسيحية وقد ظهرت على ارض الايمان السماوي ، قامت على الوحدانية وعلى عدم تصوير الرب بصورة الاجسام ، وقد حافظ الشرق العربي على تعاليم الوحدانية الاولى التي جاءت في العهد القديم ، وكان مطران الاسكندرية يعظ المؤمنين في القرن الثاني بقوله : « لقد منعنا النبي من تصوير الله ، فقال لاتصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ، لاتسجد لهن ولا تعبدهن » .

وبقيت صورة الرب عند المسيحيين العرب مجردة مطلقة ، فلم يكن المسيح الا المبعوث الالهي للدهر الأخير ، ومريم انما ولدت طفلاً بشراً ذا ناسوت وجوهر مخلوقين ، ولكن يسكن فيه الجوهر الالهي غير المخلوق .

أما الغرب فلقد حوّر صورةالرب فجعلهافي صورة المسيح . ولقد أوضح ذلك ايا مبليخوس في كتابه ، عند الحديث عن التماثيل التي يكون الله فيها حاضراً بجوهره .

ومنذ مؤتمر افسس عام ٤٣١ تأكدت صورة المسيح الرب واصبحت مريم ام الرب . وتعاقبت المؤتمرات وكلها تقوم على تغليب المفهوم الكلامي في تحديد صورة الرب . وهكذا تمثل

بعض الغربيين الرب على اشكال مجوسية ، فجعلوا من العذراء متزا ومن المسيح ـ ول ومن الرب جوبيتر . بل لقد امتزجت احياناً صفة الامبراطور بصفة الرب ، وبقي ذلك الى عهد ليس بعيداً . وهناك من يقول ان العذراء الام اخذت في الفن القوطي صفة ديمترا الام الحامل (إلهة الخصب عند اليونان) وانبرى المصورون الى تصوير الآلهة الجديدة في شخصية من نور تتألق بلون السماء معلقة في الفضاء تحيط بها الملائكة . وازدادت مكانة العذراء أهمية عند المصورين وقد ارتفعت مرتبتها عند الفرنسيسكان اذ أصبحت الشفيع الأعظم وحارسة نعم الله كما اصبحت لدى البندكتيين موضوع احتفال (الحبل بلادنس) .

والحق أنه منذ ان كتب بولس رسائله باليونانية ، وكتب مرقص انجيله بهذه اللغة ،فان مفهوم الرب حمل معنى كلاسياً ، هو مفهوم الله الخير بذاته .

على ان المشكلة التي اعقبت تمجيد المسيح وتشجيع تصوير الرب ، هي عبـــادة الصور او الايقونات التي تتضمن صور الاسرة المقدسة . ولم يقف ازاء هذا التحول الوثني الا الشرق،فلقد اصدر الامبراطور البيزنطي ليو الثالث السوري الأصل امراً عام ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، كما أصدر عام ٧٣٠ امراً اعتبر فيه تقديس هذه الصور الدينية وثنية يعاقب صاحبها بالموت ، وتابع الامبراطوران قسطنطين الخامس وليو الرابع هذا الاتجاه الذي اطلق عليه اسم الايكونوكلازم ، بينما كان الغرب يتمسك أشد الحماسة بتقديس وعبادة الصور المقدسة وكان على رأس المدافعين البابا غريغوريوس الثاني وغريغوريوس الثالث والامبراطورة ايريني. أما كلوديوس اسقف تورينو ، فلقد كان على العكس يدعو الى حرق الصور والصلبان ، وينهى عن عبادتها في منطقته ، ولقد تبين أن هذا الاسقف ولد ونشأ في الاندلس العربية .

وابان عصر النهضة ازدادت الحماسة الى التعاليم الكلاسية ، وكان هذا الاتجاه يتستر وراء الحرص على اعادة التراث القومي . الا ان التيار الجديد كان وثنياً في جذوره ، ويكاد يكون علمانياً ، ولم يساهم في دعمه امراء ميدشي وسفورزا فقط بل والبابوات انفسهم .

فمنذ القرن الثالث عشر تحولت مرة اخرى صفة العذراء الالهية وصفة المسيح وصورة الرب الى الملامح الانسانية الطبيعية القائمة على مثالية الجمال : ومن الغريب أن هذا التحول تم على يد رجال الكنيسة انفسهم من امثال الراهب فرانجليكو وفرا فيليبولي ، ولم تنفع ثورة سافونارولا عام ١٤٩٠ أمام هذا الزحف الوثني ، بل على العكس فان رد الفعل كان عنيفا عند نجوم النهضة انفسهم من امثال بوتيتشلي ورافائيلو وميكل انجلو . ولعل لوحة رافائيلو الجدارية في غرفة التوقيع في الفاتيكان ، والتي تمثل الثالوث المقدس ، تبين لنا بوضوح هذا التحول الجديد الذي تم في

صورة المسيح والعذراء والرب ، فلقد بدا الرب وكأنه زوث وبيده الكون وبدا المسيح ابولونا. اما في لوحة « مدرسة اثينا » الموجودة في الفاتيكان ايضا ، فان صورة افلاطون فيها لاتكاد تفترق عن صورة الرب . ولقد تعمد رافائيلو في لوحته هذه الرمز ، فكل صورة كانت تمثـــل الشخصيات الاغريقية في حين كانت تشابه اشكال شخصيات معاصرة لرافائيلو ، وهكذا كان هيراقليطس في صورة ميكل انجلو ، وكان اقليدس في شكل برامانتي ... وتهيمن صورة ابو لون ومنيرفا على مجموعة الاشخاص التي تملأ اللوحة .

على ان ميكل انجلو كان أكثر تمادياً في جلاء أثر الروح الكلاسية على اسلوبه وموضوعاته ، فهو اذ صور في سقف السكستين قصة العهد القديم ، فان تلك الوجوه لاتكاد تختلف عن مفهوم صور الآلهة عند الاغريق .

ثم ان الجمال الأمثل والقوة الخارقة التي تمثلت بها تلك الصور لتدل بوضوح على الاساس الكلاسي في تكوينها وفي نسبها وأوضاعها .

اما صورة الله وهو يخلق الكون او صورته وهو يخلق الشمس والقمر او يخلق آدم وحواء ، فانها ذروة الانحراف الوثني ، لقد كاد الرب ان يكون مرعبـــاً بجبروته وقوته ، فاذا كان الجمال مصدر الخير الالهي فانه هنا القوة الخارقة . ولكن هذه القوة لم تكن واضحة في جميع الصور الاخرى اذ اصبحت صورة الرب على هيئة شيخ جليل ، ولئن حاول ميكل انجلو ان يرفع من اهمية هذا الشيخ الا انه لم يستطع ابداً ان يمنحه اية صفة الهية . ومن المؤكد أن تمثال موسى قد يحمل من الجلال اكثر مما حملته صور الرب في سقف السكستين . على ان تمثال داوود كان دائماً نسخة عن صورة الرب الوثنية ، مما دفع سكان فلورنسا الى تمجيده واطلاق صفـــة العملاق الخارق (جيانتو) عليه وارتعدت فرائص ميكل انجلو عندما احس بانزلاقه نحو هذه الوثنية القاسية في سقف السكستين ، مما دفعه بعد عشرين عاما الى العودة الاعتدال المسيحي في لوحة الحكم الاخيرة الكبيرة التي رسمها على جدار الكنيسة نفسها .

اما معاصره فيرونيز فلقد وضع الحد الحاسم لاعادة صورة المسيح الى الهيأة البشرية عندما صوره في لوحة العشاء عند ليفي وسط مظاهر الترف وملذات الشراب والطعام ، مما دفع محكمة التفتيش الى محاكمته على استهتاره هذا في تمثيل المسيح .

ويبتدىء عهد الباروك باعمال روبنز وبرنيني وتتضاءل الصور الدينية شيئاً فشيئاً ، وتعتبر الجامة الكبيرة التي اقامها برنيني في كنيسة القديس بطرس ، أهم مظهر من مظاهر الرمز المجرد للاله الواحد .

ويحق لنا ان نتساءل هنا ، أكان فن الباروك دعوة للالتقاء بروح الشرق ، أكان

المزوف عن التصوير الايقوني الى تصوير الصيغ المجردة ، النقاء وتمثلاً لروح الشرق القائمة على التعالي بصورة الرب وعلى تجريدها بشكل منفصل عن عالم الاشياء انفصالاً مطلقاً ؟ نحن نرى في ذلك عودة الى مفهوم الوحدانية السرمدية الذي يرفض تشبيه الله ، والذي يميز الاديان السماوية العربية ، ويحدد خلفية الفن العربي .

ولكن كيف صور الفنان العربي الرب ؟ في الفن العربي القائم على الرقش الهندسي او اللين ، نرى الرقشة الجلية المجردة وهي تصبو باستمرار نحو الجوهر ، اذ لامبتدأ لها ولا منتهى فهي تطمح الى المطلق وتسمو وراء الوحدة الالهية ، ويذكرنا بيرابين Beraben بذلك فيقول : « ان الرقش العربي يعيش باستمرار مشكلة البحث عن الوحدة » ، ويتمثل ذلك بالرقش الهندسي في الجامات الدائرية ذات التخطيطات الاشعاعية فهي نابذة وجابذة في وقت واحد، وتنطلق في الحالين من الجوهر الواحد الفرد وتعود الى الجوهر الواحد الفرد ، فمرجع الامور هو الواحد المجرد « والى الله ترجع الأمور » « فأينما تولوا ثم وجه الله » « ولله الامر من قبل ومن بعد » « هو الأول والآخر » .

فصورة الرب عند العرب هي فوق كل صورة وكل تشبيه ، هي في الجوهر المحض وفي الرقم واحد ، وفي الحرف ألف ، وفي تلك التشكيلات الجابذة النابذة التي تدل على وصف الله وهو كما نرى وصف مجرد يؤكد دائماً معنى الوحدانية والشمول .

وهكذا نرى ان الفن العربي قام على مفهوم الوحدانية في تاريخ العرب ، اما الفن الغربي فقام على مفهوم الكلاسية التشبيهية المستمدة من عالم الوثنية القديمة ، وكانت صورة الله في كلا الفنين تلخيصاً وتعريفاً للابعاد الشكلية والروحية والحضارية لكل فن من هذين الفنين المتنافسين منذ عشرات القرون .

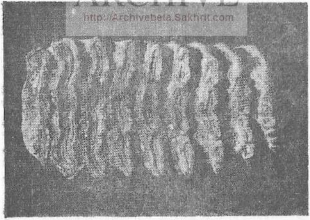


مستحاثات اللطامنة

والكشوف الأثرية الفنية

بقلم علي حيدر النجاري

« في موقع اللطامنة على العاصي قرب حماه يقوم البروفسور الاميركي كلارك بدراسة مخلفات ماقبل التاريخ » الصحف ١٩٦٥/١٢/٣ .



ضرس فيل (نيروكنسيري) من مكتشفات اللطامنة

نبأ بسيط نشر بين يوميـات البعث في أواخر العام الماضي ونشرته جريدة الثورة في اليوم ذاته بخبر صغير في صفحة الاخبار المحلية واطلعت عليه ايضـاً في جريدة العروبة مساء اليوم التالي .

ومن المؤكد ان الذين وقفوا عند هـــذا الخبر واسترعى اهتمامهم من القلة بحيث لايتجاوزون عـدد اصابع اليد رغم ان المنطقة ـ اللطامنة ـ التي اكتشفت آثارها لأول مرة منذ بضع سنين أحدثت دوياً هائلا في الاوساط العلمية وانعقد لها مؤتمر صحفي هام برئاسة الأستاذ ثابت العريس وزير الثقافة والارشاد القومي آنذاك ـ كما سيأتي ـ ثم انطوى ذكرها ولم تعد الى المسرح إلا في اواخر عـام ـ ١٩٦٥ ـ

وخير مثال على اهتمام غيرنا من الامم بمثل هذه الآثار مافعلته فرنسا بمنطقة لاسكو حيث أضحت كهوفها ـ التي كانت قد أقامت فيها اجيال ما قبل التاريخ ـ فردوساً علمياً يؤمه الثات والالوف من شتى اقطار العالم المتقدم (١) .

وإيراد لفظة ماقبل التاريـخ في النبأ المذاع لا تنطبق من الناحية الجيولوجية على آثار اللطامنة ـ وبكلمة علمية أدق مستحاثاتها ـ فان مصطلح ما قبل التـاريخ يطلق على فترة من الزمن يبلغ مداهـــــا نحواً من عشرة آلاف سنة وهي الفترة المسماة بالعصر الحجري الحديث ـ Néabthique ـ وقد ابتدأت منذ حوالي خمسة

---

(١) فصـــل ممتع ورد في مجـــلة Canstellations الفرنسيـــة بعنوان : من الكرومانيون الى لاسكو بقلم ميشيل كاود توشار بمناسبة مرور قرن ١٨٦٤ ـ ١٩٦٤ على العثور على اول اثر لانسان ماقبل التاريخ .وقد سرد مراحل الكشوف الاثرية التي دارت حول منطقة لاسكو في الفيزير ووسم ذلك القرن بعصر الحصول على الكنز « عصر من البحوث الاخاذة التي جعلت من هذه المنطقة المهجورة مركز اهتمام الباحثين في العـــالم كله انه كسب اسطوري للكنز » الخ …

عشر الف عام قبل الميلاد وانتهت في مطلع الالف الخامسة قبل الميلاد بينما تعود مستحاثات اللطامنة قدماً الى اكثر من خمسين الف سنة .

على أنه لا بد من الاشارة الى أن ثمة خلافاً بين العلماء في الفترة التي حددناها لما قبل التاريخ فتسبق الزمنين المذكورين إن في البداية او في النهاية وسيرد هذا بحديثنا . مع العلم اننا فصلناه خلال بحث مطول عن « الانسان القديم » في مجلة « رسالة العلوم » ، وهي المجلة الناطقة بلسان الاتحاد العلمي السوري الشعبة السورية للاتحاد العلمي العربي واستغرق البحث خمسين صفحة من صفحات المجلة وبلغت مصادره الثلاثين والمهم فيه اننا أتينا على مستحاثات اللطامنة في نحو من أربع صفحات فعرف الاوساط العلمية عليها قبل ان يزور كلارك القطر السوري بما يقرب من السنتين .

وخلال العامين اللذين أعقبا نشر بحثنا - وكان قد كتب للمؤتمر العلمي العربي الذي حالت الظروف دون انعقاده في بغداد في شباط العام ١٩٦٣ — حصلنا على مزيد من المعلومات عن الانسان القديم تنقح ما أوردناه في بحثنا او تضاف اليه ولعلنا نتمكن من وضعه في رسالة خاصة .

وقبل أن نعطي القارىء فكرة موجزة عن تاريخ الانسان القديم ليتضح منها مقام مستحاثات اللطامنة الحقيقي من ذلك التاريخ نأتي فيما يلي على وصف الاكتشاف حسبما جاء في المؤتمر الصحفي الذي عقده الاستاذ ثابت العريس وزير الثقافة والارشاد القومي في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن من شهر ايلول بعد مضي نحو من شهر على الاعمال الجارية في المنطقة المذكورة .

« في شهر آب لعام الف وتسعمائة وستين بينما كان العمال التابعون لادارة المشاريع الكبرى للدولة يقومون بتعبيد طريق شيزر - الصقيلبية قرب قرية اللطامنة



أدوات صوانية من مكتشفات الطامنة

في حوض العاصي شمالي حماه وخلال أخذهم الحجارة والحصى من مقلع على ضفة العاصي ظهرت لهم المخلفات الأثرية فلم يكترثوا لها ولكن المديرية العامة للآثار والمتاحف بادرت فور بلوغها الخبر الى إرسال بعثة من المنقبين الفنيين الى المكان المذكور حيث نقبت خلال خمسة عشر يوماً وجمعت كل الآثار التي وجدتها فتبين لها أن موقع اللطامنة يعود الى العصر الحجري المقطوع القديم ـ الموستيري ـ ويمتد بين ١٥٠ الف ـ ٥٠ الف قبل الميلاد وأنه غني جداً بأدوات انسان ذلك الزمان وبمخلفات الحيوانات المنقرضة التي كانت تعيش فيه ، ودلت التقديرات المبدئية على

أن عهد ذلك الموقع المشار اليه يعود الى نحو من ١٠٠ ـ ٥٣٠ الف سنة قبل الميلاد كما أن بعض الدلائل تشير الى أنه كان منذ عهد أقدم، وتوضح الحصى فيه على ارتفاع ٥٠ ـ ٦٥ متراً من حوض نهر العاصي الحالي على اشكال طبقات رسوبية متعددة تعاقبت فوق بعضها خلال العهد الأوسط والحديث للالتواءات التي تعرضت لها قشرة الأرض مما أدى الى انخفاض مجرى العاصي الى ماهو عليه حالياً وكان آنذاك أغزر مياهاً وأوسع مجرى من مرتين الى خمس مرات مما هو عليه كما أن عرض حوضه كان يبلغ ثلاثة كيلو مترات في بعض المواقع .



انسان نياندرتال

كان إقليم ذلك الزمن بارداً جداً ومطيراً وكانت الغابات الكثيفة المترامية الاطراف والمؤلفة من أشجار الصنوبر والأرز تغطي أراضي سورية الغربيـــة وتتعاقب مع السهول الفيحـاء الطافحة بالنباتات والأعشاب الطويلة والتي تسرح وتعيش فيهـا حيوانات غريبة انقرضت تماماً ورغم العثور على بقايا عظام حيوانات هائلة كالماموت والوعل والثور الكبير وغيرها من ذوات الأظلاف رغم هـذا لم يعثر على عظام بشرية ، إلا أن توفر المكتشفات الاثرية الاخرى يرجح أنه يمكن العثور على انسان ذلك العهد. وهو من نوع انسان النياندرتال الذي ظهرت بعض آثاره منذ نحو من مائة سنة في عدة مواقع من العالم ـ كما سنبين ـ ومنهـا بعض العظام في جبل الكرمل بفلسطين ـ كما سنذكر ـ وجمجمة وعظـام اخرى في إحدى مناطق العراق الجبلية الشمالية ـ وسنذكرها ايضاً في الانسان القديم ـ .

وعلى كل فقد ترك انسان النياندرتال في موقع اللطامنة عدداً كبيراً من الادوات الحجرية الصوانية التي كان يستعملها خلال حياته الطويلة ، وغير خاف أنه استعمل الحجر الصواني كسلاح وكأداة بعد أن قطعه وشذب جوانبه وسور وجوهه لصلابة هذا النوع من الحجر ليمكن الانسان من أن يصنع بالاستعانة به أدوات اخرى على مواد أقل صلابة منه كالمواد الخشبية والعظمية التي انحلت وزالت آثارها تماماً وقد أمكن تصنيف الادوات الصوانية التي عثر عليها في موقع اللطامنة إلا أن وجوه استعمالها ليست مؤكدة على وجه الضبط ويخيل أن القابض كانت تستخدم كأسلحة والقاشط تستعمل كسكاكين وكذلك النصـلات التي استعملت أيضاً كمحاكك وأن المخارز اتخذت لثقب العظام وان الرؤوس الحجرية الدقيقة المثلثة كانت توضع في أعلى السهام الخشبية ويلاحظ أن صنع هذه الأدوات الحجرية الصوانية لم يكن دقيقاً جداً غير أنها سمحت بتصنيفها في الزمر العلمية التي

يختص بها العصر الحجري القطوع القديم والمعروفة بأسماء النماذج الشولية والآشولية والليفالوزية الموستيرية — وسنوضح هذا في حينه — .

وترجع آثار القطـــامـة الى النموذج الأخير — الموستيري — وبعض الأدوات الحجرية الصوانية الموستيرية المعاصرة لهـا التي اكتشفها عالم الماني منذ أكثر من عشرين عاماً في منطقة يبرود كالتي اكتشفتها بعثة اميركية منذ عدة سنوات في بعض الكهوف من الجبال التدمرية أو التي عثر عليها في بعض مناطق جبالنا تدل مقارنتها بمعضها على أنهـا من صناعة موستيرية سورية كثيرة التنوع اختصت بها الأرض السورية الداخلية ، يظهر أن بعض نماذجهـــا كالنصلات انتقلت الى غيرها من البلاد كاوروبا وليس ذلك شيئاً بسيطاً في ابتكار النصلة في العهد الموستيري السحيق ليعادل في الأهمية التوصل الى ابتكار أعظم المخترعات في عصرنا الحاضر .

ولاشـك أن تطور الصناعة الحجرية الموستيرية كانت في أرض خصبة تسرح فيها الحيوانات التي تقدم ذكرها وتساعد شرائطها الاقليمية على نمو الانسان وازدهار ملكاته وتجمله يفكر في مد تأثيره من المنطقة المتوسطة من العالم التي يعيش فيها إلى بقية المناطق .

والانسان الصياد في ذلك العصر كان يكسر عظام الحيوانات التي يصطادها وبقنات بها ليستخرج نخاعها وهذا ماجعل منقبي القطامنة لا يعثرون على هياكل عظمية نامية اغاعلى أجزاء قليلة منها . ومن فتات خشب قرني وعل يبلغ عرضها نحواً من ثلاثة أمتار ونصف ومن عظم الجمجمة التي حطمها أيضاً على مايظهر الانسان الصياد في ذلك العهد امكن تقدير عمر خشب القرنين ، وتبين أن الانسان كان يصطاد الوعل المذكور شتاء وأنه كان يقتل منه الذكر الذي اشرف على اولى مراحل الكهولة

محافظة منه على بقاء هذا النوع الحيواني من طرائده التي كان يعيش من لحومها ...
(من بيان الاستاذ ثابت العريس في المؤتمر الصحفي المنعقد صباح ١٩٦٠/٩/٨) .

وذكر العالم الهولندي فان ليري الذي ساهم في اكتشافات اللطامنة أن مخلفات العصر الحجري القديم الثاني في اوروبا توجد دوماً في طبقة فوق طبقة العهد الموستيري ، في حين أن مخلفات العهدين توجد معاً في سورية ، مما يدل على أن الصناعة الحجرية المتقنة متقدمة في سورية عن غيرها .

وقال ولاشك أنه حدث في الاقليم تغير مناخي خطير جداً في عهد مكتشفات اللطامنة وعهدنا الحاضر وذلك لان الحيوانات الضخمة التي اكتشفنا عظامها لاتستطيع العيش في المناخ الحالي في سورية .

وبعد مضي نيف وعام على المؤتمر الصحفي المذكور وفي شهر تشرين الاول ١٩٦١ عاد العالم الهولندي فان ليري الى سورية وقرأت في جريدة الأيام آنذاك أنه في طريقه الى اللطامنة ليتابع بحوثه ودراساته في حوض نهر العاصي من تلك المنطقة .

وظهر الخبر بسيطاً ثم همد ذكر اللطامنة بضع سنوات وايقظته مديرية الآثار من مكمنه في هذه الآونة باشراف العالم الاميركي كلارك وقالت جريدة الثورة في ١٩٦٥/١٢/٣ أنه سينهي بحوثه في الايام القليلة القادمة .

وانتظرنا الأيام بفارغ الصبر وإذا بالثورة تطلع علينا في صباح ١٩٦٥/١٢/٢٣ بعنوان ضخم عن مستحاثات اللطامنة وجاء في الخبر أن المديرية العامة للآثار والمتاحف أجرت بإشراف الاستاذ ج . ديسموند كلارك استاذ علم الانسان (الانتربولوجيا) في جامعة كاليفورنيا بين العشرين من تشرين الثاني والخامس من كانون الاول ١٩٦٥ موسماً رابعاً من مواسم التنقيب في موقع اللطامنة

وتم العثور من جديد على أدوات صوانية ضخمة واخرى صغيرة وهي أجمل النماذج المعروفة في العالم كما تم اكتشاف كتل من الحجر الكلسي قد صفها إنسان الدور الحجري لغايات السكن والعمل الأمر الذي لم يسبق له مثيل في العالم اجمع والذي تترتب عليه نتائج ستكون ثورة في موضوع نشاط الانسان واستقراره في هذا الطور الموغل في القدم.

تلك هي قصة اللطامنة المثيرة وفي اعتقادنا أنها لو وقعت في بلد كفرانسا مثلاً — كما ذكرنا — لكان لها شأن خطير تتناقله الصحافة والاذاعة ناهيك باهتمام الدوائر العلمية الكبير.

ونستعرض فيما يلي بلمحات خاطفة مجمل تاريخ الانسان القديم ليتضح لنا كما ذكرنا موضع اللطامنة من ذلك التاريخ وضرورة متابعة الكشف حتى يظهر الانسان بهيكله وليس بآثاره فحسب ونعتقد كما أشرنا أنه قريب.

الانسان القديم : Paléoanthropus

تبين لنا أن مستحاثات اللطامنة تعود الى العهد الموستيري وهو الزمن المتوسط للانسان القديم. اذ سبقه عهد يدعى بالشيلي — ويدخل فيه الآشولي — نسبة الى شيل مقاطعة على نهر المارن بفرانسا وانسانه أول انسان بالمعنى البيولوجي والفيزيولوجي لهذه الكلمة، حيث شذب الصوان بشكل لوزي واستعمله كسلاح للصيد أو للحرب، ومنه انسان هيدلبرغ في المانيا وبلتدون بانكلترا وهو بفكه وأسنانه شبيه بالبعام — الشمبانزي — غير أن القحف فيه انساني.

ثم تطور الانسان في الزمن الموستيري نسبة الى موستير ببلجيكا، وهو الزمن الثاني من مطلع الحقبة الجيولوجية الرابعة — البلستوسين الأوسط — ويمثله انسان النياندرتال الذي ظهرت نماذجه في بقاع متفرقة من العالم في أوروبا وآسيا

وافريقيا وكان ذا ساقين مقوستين قليلاً عند الركب ويداه قويتان وضخمتـــان فكانتا على مايظهر غير صالحتين للأشغال اللطيفة وكان رأسه كبيراً بالنسبة لسائر الجثة فوجهه طويل وأنفه واسع جداً وحنكاه بارزان وذقنه ظاهرة قليلاً وجبينه راجع . وتقول الموسوعة الفرنسية في المجلد السابع الموضوع باشراف بول ريفيه في المقطع ب من الفصل الأول(الانسان أمام علم الأحافير « البالنتولوجيا »)وانه يختلف عن جميع النماذج البشرية اليوم ماعدا بعض الأقوام الاسترالية « (البائدة). وكان أول نبأ أذيع عنه سنة ١٨٥٦ ، بعد ان وجد قريباً من آدلدورف في وادي نياندرتال بالمانيا ،قد أحدث ضجة كبيرة في الدوائر العلمية حيث يؤلف مرحلة انتقالية بين انسان أعجم تقريباً ـ بلندون ـ يمثل الكلام بصعوبة ، وبين انسان عاقل Homo sapien سابق لنا،وانسان جبل الزنة حيث ابتدأ النحت والنقش والرسم وظهرت أصول العروق الثلاثة التي تكون البشرية الحالية . ثم تعاقب ظهورها كل النياندرتال في اوروبا .

وفي عام ١٩٢٦ عثر نورفيل بتر خريج جامعة اكسفورد على جمجمة من جماجمه في سفح جبل الكرمل بفلسطين ولا تزال تحتفظ بها الحكومة الاردنيــة حسبما سمعته في حديث لمدير المتحف الاردني الى مندوب الاذاعـــة البريطانية . وجاء في بيولوجيا الحيوان أن مكتشف جبل الكرمل نموذج متوسط بين نوعي النياندرتال والانسان الحالي (١) .

وفي صيف عام ١٩٥٣ عثر العالم الاميركي رالف سوليكي على هيكل طفل متحجر مع أدوات حجرية تعود للعصر الموستيري في مغارة شانيدار التي تبعـد حوالي ٤٠٠ كم شمالي بغـــداد . وفي نيسان عام ١٩٥٩ قالت اذاعة بغداد انـه

(1) Biologie animal p . 1092 - M . Aron et P . Grassé Paris 1947

عثر على مكتشفات هامة للانسان القديم في سفوح راوندوز ، وورد في نبأ لوكالة الأنباء من بغداد في ١٩٦٠/١١/٢٦ أن مصدراً في مديرية الآثار العراقيـة صرح أنه ينتظر أن يصل الى بغداد قريباً أحد العلماء المنتدبين من جامعة كولومبيـــا الاميركية للقيام بدراسات للهياكل العظمية التي كانت بعثة أميركية قد عثرت عليها في كهف شانيدار بشمالي العراق ويتراوح عمرها بين ٤٥ الف و ٧٥ الف سنة .

وقبل هذا جاء في نشرة الجمعية الجغرافية بواشنطن لعام ١٩٥١ أن احدى البعثات العلمية الأميركية في الشرق الأوسط بايران رفعت الأنقـــاض عن ثلاثة أشخاص عاشوا في العصور الحجرية قبل ٧٥٠٠٠ سنة وقال العلماء آنذاك ان هذه الجثث أقدم جثث اكتشفت لبني الانسان .

ووجدت أيضاً بعض هياكله في اوزبكستان وفي جاوا ثم في سروان بجزيرة بورنيو ووجد أيضاً في أماكن متفرقة من افريقيا .

جيل الرنة

ثم أعقب الموستيري ـ وقد مثله النياندرتال كما ذكرنا ـ زمن عرف جيله بجيل الرنة لمعاصرة وملازمة هذا الحيوان المجتر ـ الرنة ـ لذلك الانسان . وظهر هذا الجيل في ثلاثة نماذج بشرية متتالية : كريمالدي الشبيه بالزنجي وكرومانيون الشبيه بالابيض وشانسولادا الشبيه بالمنول . ولعل كلاً من هذه النماذج أصل لكل من العروق الثلاثة التي تسود البشرية حالياً وابتدأ فن النحت والنقش ـ كما ذكرنا ـ بهذا الانسان .

ثم أتى بعد هذا النماذج الثلاثة سنفان رافقا في الفن الحجري هما السولوتريني والماندالييني ، وبهذا الاخير كان الفن الجداري ، وإليه أيضاً يعزى القسم الاكبر من مكتشفات لاسكو الفنية .

الخلاصة

مراحل ثلاثة تتابع ظهور الانسان القديم فيها قبل ان يبلغ المرتبة الحالية، وحدثت تلك المراحل خلال أول دور جيولوجي من الحقبة الرابعة وهو البلستوسين واقسامه ثلاثة : الاسفل والاوسط والاعلى ، عاشت فيها بصورة متتالية أناسي الشيلي والموستيري وجيل الرنة .

وحين أدرج جيل الرنة في الانسان القديم اختلف فيه أوفي بعض اصنافه على مايبدو ، فالصنفان الاخيران السولوتريني والمانداليني خرجا من الجيل المذكور ليستهلا فترة ماقبل التاريخ فتقلقلت الفترة على هذا حتى خمس وعشرين الف سنة من تاريخنا وذلك لوضوح الشكل البشري وظهور بوادر الصناعة الفنية في النحت والنقش والرسم رغم سكنى كل من السولوتريني والمانداليني في الكهوف .

وأهل الدور الثاني للحقبة الرابعة وهو الدور الذي تلا البليستوسين والمعروف بالهولوسين ومانزال نعيش فيه . وبزغ فيه بادىء ذي بدء العصر الحجري الحديث ، ويبدو أن الانسان فيه قد دجن بعض الحيوانات ثم اخــذ يستعمل الحديد والنحاس ليظهر من ثم على مسرح الوجود انسان التاريخ الانسان الذي عرف الكتابة ـ وليس بالحروف الهجائية بالضرورة ـ فدون ما كان يفعله وابتدأ ذلك منذ الالف الخامسة قبل الميلاد كما ذكرنا .

• • •

هذا عرض سريع وضروري للتعرف الى مستحاثات اللطامنة وقيمتها العلمية السالية ، ان للجيولوجي كدراسة لنهاية الادوار الجيولوجية لطبقات الارض وهو

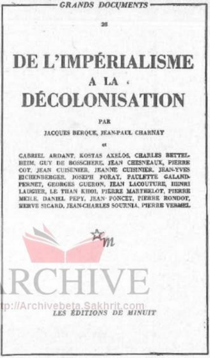
مايعرف بالتطبق Stratigraphie لما فيها من أحافر Fossiles ،أو للمؤرخ وللباحث الاجتماعي لمعرفة البيئة الاجتماعية للبشرية عند انبثاقها .

لذلك احتضنتها مديرية المتاحف التابعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي والسياحة واعلنت عنها باحتفال رائع حين عقدت لها المؤتمر الصحفي الكبير منذ بضع سنين ثم عادت الى الاهتمام بها وأضافت اليها في هذه الايام مكتشفات أخرى .

وما نحسبها الا الجزء اليسير مما سيكشف عنه المستقبل الوهاج وإن غداً لناظره قريب .



جمجمة حيوان من مكتشفات اللطامنة



GRANDS DOCUMENTS

26

DE L'IMPÉRIALISME

A LA

DÉCOLONISATION

PAR

JACQUES BERQUE, JEAN-PAUL CHARNAY

et

GABRIEL ARDANT, KOSTAS AXELOS, CHARLES BETTELHEIM, GUY DE BOSSCHERE, JEAN CHESNEAUX, PIERRE COT, JEAN CUISENIER, JEANNE CUISINIER, JEAN-YVES EICHENBERGER, JOSEPH FORAY, PAULETTE GALAND-PERNET, GEORGES GUERON, JEAN LACOUTURE, HENRI LAUGIER, LE THAN KHOI, PIERRE MARTHELOT, PIERRE MEILE, DANIEL PEPY, JEAN PONCET, PIERRE RONDOT, HERVE SICARD, JEAN-CHARLES SOURNIA, PIERRE VERMEL

LES ÉDITIONS DE MINUIT

الطريق الشاقّة

من الأمبريالية الى التحرّر من الاستعمار

De l'Impérialisme à la Décolonisation(*)

دراسة وتحليل اديب اللجمي

(*) Auteurs : Jacques Berque, Jean Paul Charnay et autres
Collection : Grands Documents - Editions de Minuit-Paris 1966

مافتئت ظاهرة الاستعمار تثير النقاش ، وتحفز على الدراسة والتأمل والبحث . اذ لا يكفي أن يقنع الانسان نفسه بالقول أن الاستعمار عدوان ، قوبل بمقاومة وكفاح ، استهدفا تحرر شعوب غلبت على امرها في فترة من تاريخها ؛ ولا يكفي أن نسلم بفكرة أن الاستعمار جشع ، عمل على ابتلاع ثروات الناس، وخيرات أرضهم، وعرق جباههم . لكي يدرك المفكر المسؤول أبعاد الاستعمار، وأثره في تاريخ العالم الحديث ، ينبغي ان يتصدى لتحليله في اتجاه أفقي وشاقولي معا . لماذا قام الاستعمار ؟ هل اقتصر أثره في الوجوه المتعددة على البلاد التي جعلها تحت سلطانه ؟ أين حدوده ؟ ما العلاقة بين يقظة الشعوب الحديثة والاستعمار، بين العودة الى الذات الاصيلة ، ومحاولات طمس هذه الذات من قبل الاستعمار الجديد ؟

الى هذه الموضوعات انصرف اهتمام طائفة من كبار الباحثين ، في محاولة جديدة لتوضيحها ، وتقديم مزيد من المعلومات عنها ، والغوص في اعماق بعضها. وامتدت محاولتهم زهاء ثلاث سنوات ، في مواصلة البحث ، ومتابعة الكشف عن جوانب جديدة من هذه الموضوعات التي يجمعها الكتاب الذي نحن بصدده (١) .

* * *

من اكبر ظاهرات العصور الحديثة، ظاهرة الاستعمار وما أثاره من تعقيدات ومشكلات في علاقات الامم وتطورها . فلقد مرت على الانسانية فترة استعمار ، أعقبت فترة تحرر من الاستعمار ،وتصفية قواعده . فالتطور الذي دفع به الاستعمار بالأمس ، مازال مستمراً .

لقد اتخذ الاستعمار في بادىء امره صفة المحرض على الفتن، وصفة المحتكر. إذ قام على التفاوت في الثروات وفي التقدم التقني . إلا أنه فاق هذا وذاك ، بما احدثه من تغييرات في الطبيعة وفي التاريخ.

(١) هذا الكتاب هو في الواقع سجل لمناقشات وحلقات بحث،جرت بين ١٩٦١ - ١٩٦٣ حول الامبريالية ، والاستعمار الجديد ، والشعوب التي تحررت من الاستعمار . اشترك في هذه المناقشات وأعد البحوث الاساسية لها اكثر من عشرين عالما واختصاصيا.وظهر الكتاب في السوق منذ شهور قليلة.

انطلق الاستعمار في القرن التاسع عشر من فرنسا وبريطانيا ، واتجه الى بلاد وشعوب كانت تعيش انماطاً من الوجود خاصة بها . لم يكن مجرد شركات وجيوشاً فحسب ، بل كان افكاراً وأساليب نشاط ، ومجموعة قواعد ، غزت تدريجيا سطح المعمورة ، وماعتمت ان ألهبت الناس ، وعكرت عليهم أساليبهم وصيغهم. فقامت في وجه مراكز انطلاق هذه الافكار ، شعوب كانت غافية ، وتحركت من سباتها ، ولم تدخر وسعا لمواجهة الموجة الطاغية بالعنف الذي تستحقه .

لم ينحصر المد الاستعماري في المناطق التي غزاها ، بل كان عالمياً في شموله ! لقد تأثرت أفريقيا بأسرها من دخول جنود نابليون الى مدينة الاسكندرية سنة ١٧٩٨ ، وانتقل التأثير من منطقة الى جارتها ، حتى شمل القارة كلها ، كما تأثر المغرب بمجموعه من نزول الجنود الفرنسيين في ميناء الجزائر سنة ١٨٣٠ ، حتى البلاد التي لم تطأها أقدام المستعمرين (كاليمن مثلاً) كان عليها ان تحدد ذاتها ومصيرها بالقياس الى الوجود الاستعماري .

ذلك من حيث ابعاد الاستعمار ، اما من حيث عمق تأثيره ، فاننا نلاحظه في تكوين نفسيات الافراد . **ان الاستعمار ظاهرة سيكولوجية ، أصابت الأفراد بأعراض نفسية معقدة ، لم يتوفر علمنا المعاصر بعد على الكشف عنها بمختلف تلوناتها وصورها** ، (١) لقد غذى الاستعمار **عواطف الحقد** ، كما غذى آليات الكبح لدى الفرد ، **إن** أثر الاستعمار على سلوك الفرد الملون في امريكا ، حتى على سلوكه الجنسي معروف وشائع . فالدراسات الاجتماعية والمؤلفات

---

(١) لم يفرد مؤلفو الكتاب لهذه الظاهرة بحثا خاصا ، رغم انها في تقديري قد تكون أهم ظاهرات الاستعمار ، لقد كون الاستعمار لدى الفرد شخصية من نوع جديد ، شخصية يصطرع فيها الخنوع والتمرد ، الخوف والبطولة . وربما كان فرانز فانون F. Fanon من ألمع الكتاب الذين أفاضوا في تحليل هذه الشخصية ، شخصية الانسان الذي عانى الاستعمار . راجع كتابيه « السنة الخامسة للثورة الجزائرية L'an V de la Révolution Algérienne » وكتاب « الملعونون في الارض Les damnés de la Tere » وقد ترجم الى العربية الدكتور سامي الدروبي بعنوان : « معذبو الارض » .

الروائية والقصصية التي تصفه أكثر من ان تحصى، وموقف الأبيض الأمريكي من الزنجي هو موقف استعماري لايختلف عن موقف أية دولة مستعمرة من شعب مستعمَر، ان ادخال الاستعمار الأفيون في الصين عملية كان القصد منها تشويه شخصية الفرد، وإسقاطها. [1] **حين دخل المستعمر البلاد، فوض لغته على أهلها، فعمل على مسخ تفكيرهم، وبقدر ماكان فوض اللغة الغريبة كبيراً، كان التشويه عميقاً، ولكن لغة المستعمر حملت في الوقت ذاته الى المستعمَر طوازاً جديداً في التفكير، وأسهمت في تواصله مع معطيات العالم الحديث، معطيات الشعوب التي تقدمت علمياً وتقنياً وسيادة على الطبيعة**. فكيف لاتذكي إذن شعوره بالتحرر منها.؟ لقدظهرت مقاومة الاستعمار في وجهه السيكولوجي بالتسلح باللغة الأم، والعودة الى الهوية الأصيلة. فبدلاً من أن يذيب الدخيل شخصية السليب، تفجرت أعماق «المعذبين في الارض» عن رفض «للعقل المتسرب من الخارج»، ذلك كان موقف الجزائري من الثقافة الفرنسية. انهاتثيره، ولكنه يرفضها، ويلوذ بالتشبث بقيمه القومية واللغوية والدينية والتقليدية، مقاوماًعملية الانحلال السيكولوجي التي يتعرض لها. ان أشق ماواجهه المعلمون الفرنسيون من الاطفال الجزائريين هو مقاومة هؤلاء لأساليب التربية الفرنسية [2].

. . .

بدأ الاستعمار ظاهرة أوروبية، نفذت الى بلاد ماوراء البحار، التي ظلت منعزلة عن حضارة الآلة، دون أن تتمكن من تطوير نفسها قبل مرورها في رحى الاستعمار.

وقد لاحظ الباحثون ان ظاهرة الاستعمار رافقت انتقال المجتمع الغربي من طوره الريفي الى طوره الصناعي. كما أنها رافقت نشوء القوميات في اوروبا،

(١) من الامبريالية الى التحرر من الاستعمار — ص ٢٨٧.

(١) المرجع ذاته — ص ٢٨٩

إذ المعروف أن منشأ القوميات الاوروبية بورجوازي. البورجوازية تمددت إقامة أسواق قومية لمنتجاتها، وبالتالي إقامة قوميات مستقلة، تمايز كل منها عن الاخرى بقدر ماتتعارض معها. لهذا اتخذت القومية طابعاً عدوانياً في أوروبا. وقد حدث شيء من هذا في البلاد التي استعمرها الغرب، وخاصة بعض بلاد آسيا [١]. فكما أن البورجوازية سببت قيام البروليتاريا، كذلك سبب الاستعمار نشوء القوميات في تلك البلدان.

« ان شعور السكان بالاضطهاد الخارجي، أيقظ شخصيتهم القومية، فالشعراء ورجال الدين، والكتاب، والمصلحون، جميعهم يعودون الى الاصول ويستلهمون لغتهم وثقافتهم الخاصة ». هكذا أقامت الامبريالية الغربية الحرب على نفسها.

ومادامت القوميات الأوروبية قد ارتبطت بالبورجوازية، وبالتالي بالحضارة الصناعية، فقد أصبح على هذه الأخيرة أن تنتشر وتمتد على شكل استعمار لمناطق خارج حدودها. ان الاستعمار في شكله الاقتصادي مجموعة مفارقات ومتناقضات. انه يُفقر الكثرة ليُغني بذلك القلة. **« ان أكبر تغيير حمله الاستعمار، هو تحويله المزارع الذي كان سيد أرضه الى مجرد عامل زراعي أجير »**. فهو لم يقتصر على سلب الانسان ثروته، بل تعمد في الوقت ذاته إذلاله، والعبث بكرامته.

لقد خضع التغلغل الاستعماري الاقتصادي الى منطق واحد في مختلف البلاد التي غزاها [٢]: **المرحلة الاولى غزو عسكري، يليه نهب غوغائي للمواد الاولية، ثم يبدأ تزويد المستعمرة بالتجهيزات اللازمة المستقدمة من بلد المستعمِر، ثم مرحلة الاستثمار المنظم، اذ تتسع ممتلكات المستعمرين**

---

(١) في الكتاب الذي نحن بصدد عرضه وتحليله، دراسة رائعة عن « بعض الخصائص التاريخية للحركات القومية في جنوب شرقي آسيا » بقلم الكاتب « لي تان خوي Le Than Khoi ». ص ٣٥ — ٥٢.

(٢) المرجع ذاته ـ ص ٣٢

مقابل تناقص ممتلكات السكان الاصليين، ويأخذ الاوروبي بانشاء الزراعات المؤهلة للتصدير . ثم يدخل رأس المال الكبير الى المستعمرة، فيدفق في حساب النفقات والأرباح، ويقلص نسبة الأكلاف، ويخفض مستوى أجور العمال من أبناء المستعمرة، ويصدر الى اوروبا منتجات مصنوعة جزئياً. ينجم عن ذلك إثراء حفنة من السكان الاصليين، تنعكس آثاره على الاكثرية بعد وقت متأخر طويل، ويتخذ هذا الانعكاس شكلاً متدرجاً، يزيد من نقمة أبناء البلاد بدلاً من أن يخفف بؤسهم، فتزداد الصعوبات أمام تكيفهم مع الاوضاع الجديدة المعقدة (البطالة، استثمار الجهد بأجر رخيص، المساومة على الكرامة..). آنذاك تأتي مرحلة التحرر من الاستعمار وما تستتبعه من تمزقات في داخل البلاد، وهرب لرؤوس الأموال المستعمرة.

تلك هي حلقات السلسلة الاستعمارية، انها هي ذاتها في جميع البلاد التي وقعت تحت النير، وقد أفرد الباحثون المسهمون في هذا الكتاب دراسات مستقلة عن هذه الظاهرة، في كل من فيتنام(1)، والهند(2)، واندونيسيا(3)، وغينيا(4).

* * *

ان وجود الاستعمار قد أعقب بالضرورة التحرر منه، فرأينا في السنوات العشرين التي تلت الحرب العالمية الثانية، نهاية التسلط الاستعماري. «ولكي نقدر بدقة ظاهرة التحرر من الاستعمار، ينبغي علينا أن ننظر الى بلدان آسيا وافريقيا من خلال ماضيها بمجموعه.. ان هذه البلاد تعيد اليوم صلتها بماضيها القديم، سواء على الصعيد السياسي، أو الثقافي، أو على صعيد تطورها الاقتصادي... هذه الصلات بالماضي البعيد، تسم اليوم بلا شك جميع البلاد الأفريقية — الآسيوية، تلك التي عانت مباشرة من تسلط الغرب الاستعماري، أو تلك التي قاست منه بطريقة

(1) ص ١٠١ — ١١٦
(2) ص ١١٧ — ١٢٨
(3) ص ١٢٩ — ١٤٠
(4) ص ١٤١ — ١٥٨

« المعاهدات غير المتكافئة » كما هي الحال في الصين . (١) »

فذكريات الماضي البعيد هي اليوم عامل كبير في تكوين الشعور القومي ، يدل على ذلك اهتمام هذه البلاد بدراسة تاريخها والكشف عن آثارها . « ان الحفريات الأثرية مزدهرة اليوم في الصين الشعبية مثلما كانت مزدهرة في فرنسا أيام الأمبراطورية الثانية » . يدل على ذلك ايضاً عودة هذه البلاد الى تراثها الفكري والثقافي ، وإحياؤها للغاتها القومية ، ودأبها في التعبير بهما عن الافكار الحديثة .

التحرر من الاستعمار هو ، على حد تعبير أحدهم ، اعطاء الاولوية للوجود المستقل ، فلا تحرر لشعب ان لم يستقل ويصبح جماعة بشرية حرة لها كرامتها .

ولكن التحرر من الاستعمار مفهوم نافٍ وسلبي بآن واحد . « التحرر يعني : النقض ، التقويض ، الازالة ، التخطي لنير الاستعمار » .

ولكن ماهي الصيغة الايجابية لهذه الحركة؟ انها تحرر الذات ، وتحرير الآخر ، « ان الغرب الاوروبي ، الحديث ، المستعمِر ، قد ولد الانتاج الرأسمالي ـ كما تولد عنه ـ وولد الديمقراطية البورجوازية ، والعلم الموضوعي ، وميتافيزياء ارادة القوة ، والتقنية الظافرة .. في الوقت ذاته ، ولدّ هذا الغرب نفسه النزعة الانسانية الليبرالية ، والفكر الاشتراكي ، وارادة التحرر لجميع المستغلين ولجميع المضطهَدين : العمال ، والنساء ، والأطفال ، والشعوب الملونة والمستعمَرة . فهو الذي صنع اذن اسلحة التحرر من الاستعمار . » (٢)

ويتساءل كوستاس اكسيلوس : « ماذا يريد أولئك الذين يقوضون نير الاستعمار ؟ أيودون العودة الى ماقبل

---

(١) ص ٣٠١ من الدراسة التي أعدها أحد مؤلفي الكتاب بعنوان : « البحث عن الأصالة « Recherche de l'authenticité

(٢) ص ٣٢٢ ـ من البحث القيم الذي قدمه المفكر كوستاس آكسيلوس Kostas Axelos بعنوان « المشكلات والصعوبات الداخلية للتحرر من الاستعمار Problémes et difficultés internes de la décolonisation »

الاستعمار ؟ أيودون استعادة صيغهم في الايمان والتفكير والحياة ، تلك الصيغ التي انكرها عليهم الغرب ؟ أم يودون أن يصبحوا غربيين بالمعنى البورجوازي الاوروبي او بالمعنى السوفييتي او الصيني ، مع العلم بأن السوفييتيين أنفسهم ينزعون منزعا غربيا ؟ أيريدون ان يستعيدوا من الغرب الفكر والعلم والتقنية ليسلكوا صاغرين سبيل المذهب الموضوعي والمذهب العملي ؟ ان التقنية مازالت انتاجا غربيا أوروبيا : من الاسبرين الى الصواريخ . وإذ أن التاريخ يأخذ طابعا عالميا بشارات غربية ، فان تغريب (١) العالم يبدو اليوم نصيب الجميع . هل ضروري ان نعاني هذا النصيب معاناة ؟ »

ويرى اكسيلوس أن على الشعوب المتحررة من الاستعمار ، ان تدرك بأن تحررها لا يكون باستعارتها وسائل الغرب وطرزه في التفكير والعمل . فلا تحرر فعلياً إن لم يدعمه الفكر . « والفكر لا يكون فكراً إذا ظل زاحفاً فوق الارض او معلقاً في السحاب . ان فكر التحرر ليس بالفكر السياسي وحسب ، بل هو الفكر الشامل ، المتعدد الابعاد ، الفكر الذي يطرح الأسئلة ، ويحاول تجاوز الميتافيزياء ، دون أن يدير ظهره للمشكلة الميتافيزيائية للانسانية والعالم » .

ويعيب اكسيلوس على كثير من الشعوب التي تحررت من الاستعمار اكتفاءها بالنماذج الضحلة من الفكر الغربي . فهي «لا تأخذ من الفكر الماركسي وجهه المتسائل والجدّي، بل تأخذ الماركسية العامية والمدرسية . انها لا تتأمل في تفكير هيدجر ، بل تستهلك تفكير سارتر ... إن مايثير التفكير عندها ليس هو هيجل أو ماركس أو نيتشه أو هيدجر ، بل المثالية الجمدة الفارغة أو المادية الضيقة أو الموضوعية السطحية أو الوجودية الأدبية والسيكولوجية التي تحتل الساحة الرئية » (٢) .

والخوف كل الخوف على الشعوب التي تحررت من الاستعمار أن تكتفي بهذه

(١) تغريب العالم يعني جعل العالم يأخذ الطابع الغربي (Occidentalisation)

(٢) ص ٣٢٤

الضحالة الفكرية ، و لا نتمكن من أن نبدع فكراً أصيلاً لها . « إن تقويض الاستعمار ، وتجاوز جميع أشكاله ، أمران ضروريان » . إلا أن هذا الشرط اللازم ليس كافيـاً لحل المشكلة . ان زوال الاستعمار من العالم يفترض قيـام نماذج اخرى من الفكر تختلف عن الفكر الغربي ، كما يفترض تنوع الثقافات .

. . .

هذا على الصعيد الفكري ، أما في المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، فقد درس الباحث شارل بتلهايم Charles Bettelheim ، ظـاهرة التحرر من الاستعمار ، وتساءل ماذا كان على الشعوب المتحررة أن تأخذ بفكرة التقدم المتدرج أو بمبدأ التحول السريع (١) . **ويرى بتلهايم أن فكرة التخطيط القائمة على مفهوم التطور البطيء خاطئة من أساسها ، وأن على الشعوب المتحررة أن تأخذ بمبدأ التحويل السريع والشامل لجميع ضروب نشاطها .** بدون ذلك لا سبيل الى تحرر فعلي من الاستعمار . ان الصين الشعبية تقدم النموذج الأمثل لمثل هذا التحويل الشامل الذي اعتمد على التجديد الاساسي للأساليب التقليدية كما اعتمد في الوقت ذاته على التجديد الذي حققته شعوب اخرى (كالاتحاد السوفييتي) .

. . .

التحرر من الاستعمار ، عملية كلية ، وجهد شامل يتجهان بآن واحد الى الخلاص من التسلط الخارجي والى استكمال مقومات الوجود الذاتي في اطار عالمي . فاذا لم يتم انجاز تحقيق هاتين العمليتين ، فهو مهدد بالرزوح من جديد تحت نير الاستعمار ، الذي يتسرب اليه في صيغة جديدة ، هي مايسمى اليوم **بالاستعمار الجديد** .

وقد بحث الكاتب «جي دي بوسشير» في أشكال الاستعمار الجديد (٢) ، وهو

(١) راجع بحث شارل بتلهايم في الكتـاب بعنوان : « التقدم البطيء والتحولات السريعة - Progrés lents, mutations rapides ص ٣٦٣ ـ ٣٧٤

(٢) الاستعمار الجديد : محاولة في تعريفه L. néo - Colonialisme : essai de définition
Par : Guy de Bosschère
ص ٤١٥ ـ ٤٣٢ من الكتاب

يرى ان ثمة تعريفين له : « الاستعمار الجديد ظاهرة تتحقق من وجودها عند المستعمر في علاقاته الجديدة مع الشعب الذي كان مستعمراً من قبل . انه تمويه للوضع التقليدي المستعمر ، وتطور سطحي لسلوكه من البلد المستعمَر ، يمليه حرصه على اخضاع هذا الأخير بوسائل جديدة أكثر مرونة . »

وقد يكون الاستعمار الجديد«نموذجاً جديداً من الاستعمار ، لا علاقة له بالاستعمار القديم ، ولا بالبلاد التي كانت استعمارية في السابق ؛ تلك مثلاً حال الولايات المتحدة التي تمارس اليوم شكلاً جديداً كل الجدة من الاستعمار . »

ان للاستعمار الجديد ، في رأي الكاتب ، أشكالاً ثلاثة :

فهناك الاستعمار الجديد الواقعي néo - Colonialisme réaliste الذي يدعي ارضاء طموح الشعوب المستعمَرة الى الاستقلال ، انه يتنازل لها عن استقلال صوري ، مفرغ من أي مضمون حقيقي ، تلك هي حال الاستقلال في الهند الصينية في ظل حكم (باو داي) ، وفي كوريا الجنوبية في حكم (سينغمان ري) .

وهناك الاستعمار الجديد المتطرف néo-colonialisme ultra الذي يأبى أن يتنازل عن شيء من امتيازاته السابقة ، وهو اليوم شديد النشاط في افريقيا . تمارسه البرتغال ، والأقلية البيضاء في اتحاد جنوبي افريقيا وروديسيا ، كما تمارسه الدول الاستعمارية التقليدية الغربية : بريطانيا ، وفرنسا ، وبلجيكا .

وهناك الاستعمار الجديد الساذج néo - Colonialisme naïf وهو ليس بماشي، ولا انتهازي ، ولكنه يريد فرض « وصاية » على الشعوب . ولعله ، في رأي الكاتب أخطر وأبشع أشكال الاستعمار الجديد . وأترك للكاتب نفسه وصف أصحاب هذا الوجه الجديد :

« يقولون الاستعماري الجديد الساذج إن الأفريقي مازال « طفلاً كبيراً » ، يجب أن نأخذ بيده ، وأن نوجهه . فيصدق هو ذلك .

ويقولون له إن الأوروبي ، بفضل نعمة أوروبا وبفضل عبقريته ومكانته ، مؤهل

أكثر من سواء للحكم على حاجات الأفريقي، ولتقدير نظام الحكم الذي يناسبه. فيصدق ذلك أيضاً، ان الاستعماري الجديد الساذج ينبت اليوم في كل مكان تقريباً، وحتى في بعض أوساط اليسار التي تتحدث في كثير من الأحيان عن اخطار الاستقلال، حين يكون الامر موضوع استقلال الشعوب المستعمَرة. ان هذا الاستعماري الجديد الساذج يردد ماسمعه من الآخرين من ان «الديكتاتورية التي يمارسها هؤلاء القوم (ويعني ذلك السكان الذين كانوا مستعمَرين) أسوأ بكثير من حكم الاستعمار القديم. فلنحرص على ألا نتمنى لهؤلاء القوم استقلالاً مبكراً، وذلك لخيرهم». ولكننا نذهل هذا الاستعماري الجديد الساذج حين نقول له انه مثل هذا المنطق يبرر صحة وصاية اوروبا واستمرار هذه الوصاية.

ويعتقد الاستعماري الجديد الساذج انه يكفي ان نقدم مساعدتنا الفنية ونصائحنا وخبرتنا كي تستقبلنا افريقيا بذراعيها وتنظر إلينا على اننا منقذون. انه لا يدري ما اذا كان يتصرف كذلك لمصلحة افريقيا نفسها ام لمصلحة اوروبا.

الاستعماري الجديد الساذج مثالي، بمعنى انه يتمنى ان يرى الواقع يتخذ شكل الصورة التي يتخيلها هو لافريقيا ... لذا فهو ينزلق في مواقف محرجة، اذ يدعم البورجوازيات الناشئة في افريقيا، كما يدعم الاقلية الوطنية المتواطئة مع الاستعمار الاوروبي الجديد[1].

• • •

الاستعمار في شكليه: القديم والجديد، في مختلف صيغه وأنماطه، ظاهرة يجب تحليلها وتعريتها للوصول الى الخلاص منها، ان التحرر من الاستعمار ليس الا الخطوة الاولى من طريق طويلة شاقة، طريق اقامة المجتمعات الحرة، التي تقع على عاتقها مسؤولية إبداع حضارات جديدة تساير حضارة الغرب ولا تسير في ركاب الغرب.

تلك هي الفكرة الاساسية للدراسات القيمة التي ضمها هذا الكتاب الذي نقدم خلاصة عنه للقارىء العربي.

---

(١) ص ٤٣١

مع المؤرخ الفرنسي جورج دوبي

أجرى المقابلة إحسان هندي

كنت قد نشرت في مجلة المعرفة ـ العدد رقم ٤٥ (تشرين الثاني ١٩٦٥) مقالا عن « جامعة المتوسط الصيفيـــة L'Université Mediterranéenne d'Eté » التي يقع مقرها في مدينـــة « ايكس آن بروفانس - Aix - En - Provence في جنوبي فرنسة .

وقد اكدت في هذا المقال الأهميـــة الـــتي تتمتع بها هذه الجامعة سواء من الناحية الثقافية أو السياسية ، حيث يجتمع فيها ، مرة كل سنة ، خريجون جامعيون من جميع البلاد المحيطة بحوض البحر الابيض المتوسط ليناقشوا طيلة شهر تموز من كل عام مشكلة عامة تهم جميع هذه البـلاد . وقد كان لي شرف تمثيل خريجي جامعة دمشق ـ كلية الآداب في السنة الفائتة .

ومدير هذه الجامعة الدولية هو المؤرخ الفرنسي جورج دوبي Georges Duby رئيس قسم التاريخ في جامعة إيكس ـ مرسيليا الفرنسية ، و « رئيس معهد الابحاث للبلاد المتوسطية Centre d'Etudes des Sociétés Méditerranéennes » ، والرجل الذي يدعو لتبني طريقة جديدة في البحث التاريخي سنتكلم عنها بعد قليل .

ولما اجتمعت به في مدينة إيكس خلال العام الماضي دعوته الى زيارة سورية للاجتماع بالاوساط الجامعية فيها فوعدني بتلبية الدعوة بكل سرور في أوائل شهر نيسان من عام ١٩٦٦ بمناسبة عطلة عيد الفصح وقد حقق وعده فعلا ، فزار سورية واتصل بالمسؤولين عن جامعتـــا وبحث معهم في سبيل التعاون بين جامعتي دمشق وإيكس

ـ مرسيليا ، وألقى محاضرة على المدرج الثاني في جامعة دمشق عنوانها : « آفاق جديدة في البحث التاريخي Des Novelles perspectives dans les Recherches Historiques »

وقد أحببت ان أقدم للمؤرخ الفرنسي المذكور مع لمحات عنه وملخص لمحاضرته وأهدافها في مجلة « المعرفة » فأجريت معه مقابلة صحفية في مساء ١٩٦٦/٤/٧ .

وكان السؤال الأول الذي طرحته عليه هو :

س ـ هل يمكن تلخيص نظرتكم الى التاريخ ؟ وكان جوابه على ذلك كما يلي :

ج ـ ان المنحى الذي كانت تأخذه الدراسة التاريخية قبل بداية القرن العشرين هو تأريخ مايسمى « ذكرى الحادثة Une mémoire de l'événement » بحيث كان يهتم بالواقعة التاريخية وكيفية حدوثها وتاريخ حدوثها وغير ذلك ، فكان التاريخ سجلا لسير الابطال والقديسين وسرداً زمنيا لوقائع الحروب وغير ذلك. وأما الآن فلم يعد الغرض من التاريخ التفتيش عن وقائع معينة وبحثها ، ولكن اصبحت الغاية منه هي تأريخ قطاع معين في المكان والزمان .

س ـ ماهي الفكرة الرئيسية من محاضرتكم ؟

ج ـ لقد أردت في محاضرتي اليوم أن أركز على المنحى الجديد الذي يجب أن تأخذه دراسة التاريخ فبينت كيف أن هذا العلم مرتبط أشد الارتباط بالعلوم الانسانية الاخرى وخاصة بالجغرافية وعلم الاجتماع والاقتصاد ثم من جهة اخرى كيف أن هناك نوعين جديدين من التاريخ بدآ بالظهور وهما :

ـ **تاريخ التقنية** : الذي يبحث في تحقيق ومعرفة الادوات التقنية (التكنيكية) التي استخدمها الانسان في مختلف العصور .

ـ **تاريخ العقليات والافكار** : وهو يبحث في السلوك النفسي والافكار والمعتقدات الجماعية للمجتمعات في العصور المختلفة التي سبقتنا ، وهذا هو ماعنيته بعنوان (الآفاق الجديدة في البحث التاريخي)

س ـ ولكن ماهي السبل التي يمكن اتباعها في تأريخ العقليات والافكار ؟

ج ـ لقد أجبت على هذا السؤال

بالتفصيل في مقال كتبته تحت عنوان « تاريخ » في موسوعة « لابلياد La Pléade » وأختصره هنا فأقول أنه يمكننا ذلك بثلاث وسائط :

١ ـ دراسة أساليب التعليم في العصر الذي نريد تأريخه .

٢ ـ دراسة مفردات اللغة في ذلك العصر .

٣ ـ جرد المتقدات والأفكار والرموز في العصر المذكور ومحاولة التوصل الى حل كنهها .

وأضرب مثلا هنا على أهمية المفردات مثلا في تأريخ فترة من الفترات : أثناء كتابتي لأطروحتي الدراسية التي تتناول تأريخ « الحياة الريفية في فرنسة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر » لاحظت بدء زوال نظام استرقاق فلاح الارض شيئا فشيئا في المقاطعة التي أجريت دراستي عنها ولاحظت بالوقت نفسه ان هذا التغير قد جر تغيراً آخر في حقل اللغة حيث زال استخدام كلمة « سيرفوس Servus » اللاتينية ـ بمعنى عبد ـ وحل محلها استخدام كلمة « أومو Homo » ـ بمعنى رجل ـ أي أن التغير الاجتماعي قد رافقه تغير ضمني في اللغة .

س ـ وهل هذا المنحى جديد في التاريخ ؟

ج ـ لقد بدأت الآفاق التاريخية بالاتساع مع بداية القرن العشرين وبدأ كثير من المؤرخين في جميع أنحاء العالم ينادون بأن التاريخ يجب ألا يكون مجرد سرد للحوادث السياسية والحربية ، وألا يستخدم لبث الحقد في نفوس النشء الجديد باسم القومية وانما يجب أن تكون مهمة المؤرخ تسجيل الحضارة الانسانية بجميع مظاهرها وقيمها بالتعاون مع بقية العلوم الانسانية الاخرى كالجغرافية والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس ..

وهكذا قام استاذي « لوسيان فيفر » بانشاء مجلة تاريخية باسم : « حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي les Annales d'Histoire économique et sociale » التي ركزت على دراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ وشددت على تعاون هذا العلم مع الجغرافيا وعلم السكان وعلم الاجتماع . كما قام « فيرنان

أوديل » - وهو أحد مؤرخي فرنسة المعاصرين الكبار أبي - ونادى بوجوب ترك التاريخ حسب مفهومه القديم، الذي هو كما يسميه Une micro - histoire للاهتمام بتاريخ جديد اسمه «تاريخ البنيات Une histoire de structures » الذي يبحث في البنيات والظواهر الاجتماعية ككيفية المرور مثلاً من الاقتصاد الريفي إلى الاقتصاد المدني، وتاريخ اختفاء الرق، وغير ذلك. وقمت أنا من جهتي، بالاشتراك مع أحد أساتذة الجغرافية الجامعيين، بانشاء مجلة باسم: « دراسات ريفية Etudes rurales » وهي تهتم باجراء دراسات تاريخية - جغرافية عن الريف الفرنسي كما أن مركزنا المسمى « Centred' Etudes Des Societés Méditerranéennes » يقوم بمثل هذه الدراسات عن البلاد المتوسطية ويسعدني أن يشترك معنا في هذا باحثون في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم السكان كل حسب بلده واختصاصه.

س - بهذه المناسبة أود أن ألقي عليكم سؤالاً بخصوص جامعة المتوسط الصيفية التي تديرونها: ما هي الأهداف الثقافية التي تتوخونها من انشاء مثل هذه الجامعة وهل هناك ثقافة مشتركة متوسطية ؟

ج - يوجد كثير من الاختلافات والتنوعات الثقافية في البلاد المتوسطية. ولكني أعتقد بأنه توجد نقطة التقاء بين هذه الثقافات المختلفة، وأعتقد بأن القابلات التي ننظمها بين الشباب المثقف من الدول المتوسطية يمكن أن تسمح بمختلف الثقافات بان تزداد غنى بشكل متبادل.

س٤ - يقول المؤرخ - الفيلسوف الايطالي « كروتشيه Croce » بان الماضي هو نقطة انطلاق لكل عمل عقلي وانه لا يمكن فهم الحاضر دون فهم الماضي، فما هو رأيكم بخصوص ذلك ؟

ج٤ - إني أوافقه تماماً على رأيه، إذ أن التبرير الوحيد للعلم التاريخي هو أنه يسمح بفهم الحاضر بشكل أحسن، وبالنتيجة يسمح بتمليل أكثر فعالية.

س - السؤال الأخير: ما هو رأيكم في كتابة التاريخ العربي وتقييمه على ضوء نظرتكم الى التاريخ؟

ج - إني مقتنع بأن التاريخ العربي يمكن أن يوجه بنفس الطريقة التي اتبعناها مجدداً في التاريخ الغربي وتوجد - بلا ريب - بعض الصعوبات لأن بعض المصادر التاريخية التي يمكن أن نستخدمها في الغرب هي أقل كثرة في الحضارة العربية كالنقوش والأيقونات مثلاً التي هي مصدر مهم لتاريخ التكنيك عندنا وهي شبه مفقودة في البلاد العربية .

ولكن بالمقابل أعتقد بأن المصادر العربية عن تاريخ العلوم وعن تاريخ المعتقدات والتاريخ الديني هي بدرجة كبيرة من الغنى أو الثروة وتقدم إمكانيات ضخمة عند قيامكم بكتابة التاريخ .

* * *

ونحن إذ ننقل هنا أجوبة الأستاذ جورج دوبي لا ننقلها كنهج إجباري يجب اتباعه بالضرورة وإنما كرأي شخصي في المنحى الذي يجب أن تأخذه الدراسة التاريخية المحدثة في أبحاثنا هنا .



مع يوسف الصارمي

اجرى المقابلة عيسى فتوح

منذ بضعة اشهر ، رد الموج البنـا الشاعر الاديب يوسف الصارمي، صاحب مجلة (المواهب) في الارجنتين ، بعد ان ساح في ديار الغربة خمسة وثلاثين عاماً ، قضاها في الجهاد الفكري والسياسي يبعث الحياة في جسم الكلمة العربيـة الذي بدأ يتلاشى وينحسر ... ويعاوده حنينه الصارخ الى الوطن كلما استيقظ في فؤاده الشوق ... لأنه كان يشعر بأنه لم يكمل الرسالة التي سافر من اجلها راضياً ـ رسالة الادب والقومية العربية ، في هذا الصقع البعيد عن منابع اللغة والتيارات الوطنية ...



نزح يوسف الصارمي الى التوكومان عام ١٩٣٠ وفيها اسس مجلة المواهب عام ١٩٤٥، ثم انتقل الى العاصمة بعد ثلاث سنوات من صدورها وظل يغذيها عشرين عاما ، جاعلاً من بيته اسرة تحرير ، ومجمعا للبحوث اللغوية ، ومنتدى ادبياً ، يحج اليه اعلام الشعر والفن والوطنية ... ومن مجلته منبراً للفكر الحر ، دون ان يغفل تربيـة اولاده السنة على الاطـلاق ، أو يهجر العادات والتقاليد الموروثة ، والتحدث باللغـة العربية الفصحى ، رغم ان اولاده ولدوا جميعاً في المهجر ، وتلقوا علومهم العالية في الجامعات الاجنبية.

ومنذ ان وطئت قدماه ارض الوطن مع اسرته وهو يحاول جاهداً اصدار المواهب ، الا ان ظروفاً قاهرة سدت أمامه الطريق ، دون ان تصرفه عن هذه الفكرة — فكرة المجلة الادبية التي تربط المهجر بالوطن والعكس، وتكون صلة وصل بين المهاجرين والمقيمين في الوطن الام ... لكنه فوجيء بالاهمال والنسيان ، فوجيء باللامبالاة تحز شرايينه ، وتدمي كبده ، وتفتر ساعده الذي فطر على حب العمل والنشاط الدائم الدائب ... كيف تراه يمضي ايامه بيننا ولم يتعود على الكسل في اي مرحلة من مراحل عمره ... كل عرق فيه ينبض بالحيوية، ويتلهف الى مواصلة السعي ... رغم السنوات السبع والستين من عمره المديد ...

طرقت بابه ، ففتح لي بنفسه ، مسلماً بيد ، وحاملا لزوميات ابي العلاء بيد اخرى ... يرحب بي كأي صديق حميم ، يحدثني في هدوء العالم ، ولطافة الاديب ، وذوق الفنان ... قلت له :

— متى هاجرت ؟

اواخر سنة ١٩٣٠ الى التوكومان مباشرة ، برفقة زوجتي ، حيث كان لي أخ يقطن هناك .

— هل امتهنت التجارة ؟

كلا ... بل امتهنت التعليم ، اذ انشأت مدرسة عربية دامت سنتين ، بلغ عدد طلابها خمسة وثلاثين طالباً ، وكان يساعدني في التدريس الاستاذ سعيد طراف .

— وبالاضافة الى التدريس ؟

كنت اكتب المقالات لعدد من المجلات العربية مثل السلام ، والعلم العربي والسورية اللبنانية .

— متى انشأت المواهب؟

سنة ١٩٤٥ وكنت عندئذ في التوكومان، وفي سنة ١٩٤٨ نقلت ادارتها الى بوينس ايرس ، كيما اكون قريباً من اولادي الذين انتسبوا الى الجامعة لدراسة الطب .

— كم سنة عاشت ؟

عشرون عاما والمواهب تصدر بانتظام ، رغم جميع الازمات المادية التي مرت بها ، ورغم ندرة المتضلعين بالعربية ، ولولا عودتي الى سورية ، لظلت المواهب تصدر حتى هذه الساعة .

— من كان يساعدك في تحريرها ؟

جندت اولادي لهذه الخدمة ، افدتهم اللغة والادب وا ، و فادوني المعونة ، ولو اتيح لي اصدارها في

سورية ، لاتبعث الطريقة نفسها ... هناك مراسلون واصدقاء من البرازيل والارجنتين والولايات المتحدة والبلاد العربية ، كانوا يبادلونني مجلاتهم،ويوافونني بانتاجهم واخبارهم كزكي والياس قنصل (الارجنتين) والشاعر القروي والياس فرحات (البرازيل) وبولس سلامه ومحمد جميل بيهم (لبنان) وعبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد ، وسامي الكيالي صاحب مجلة الحديث (حلب) ،والدكتور جمال الدين الرمادي (مصر) وسليمان داود (اميركا الشمالية) ... وبالاضافة لهؤلاء اذكر الاصدقاء جورج صيدح ، عيسى الناعوري ، البدوي الملثم (يعقوب العودات) ، حامد حسن ، عبد اللطيف اليونس ، فريد جحا .

— هل انتسبت الى بعض الجمعيات الادبية ؟

لم يكن على عهدي في الارجنتين جميات اونواد ادبية ، اللهم الا اذا صح ان اطلق على بيتي شيئاً من هذه التسمية اما الجمعيات الخيرية فكنت رئيس شرف لأكثر من واحدة منها .

— اما تزال تحن الى الصحافة ؟

الصحافة الادبية قطعة من نفسي ... تعيش في دمي ، احسها في اعماقي ،... ولولا املي باستئناف اصدارها في سورية لما غامرت في العودة .. ماينفع ان يبقى الأديب بلا عمل ، يجترءالفراغ ،ويلوكه الضجر والملل ... يطعم ويكسى كأي عاجز ... اني آنف ان ابقى عالة على غيري .

— اتعود الى المهجر لو استمرت الحال كذلك ؟

لم يعد لي في الارجنتين مايغريني بالعودة ثانية ، وان كنت اعدها وطني الثاني ... كفاني غربة خمس وثلاثين سنة ، يذوبني الحنين ، ويضنيني الشوق ، ويهدني الكفاح المرير فأهتف :

نشقت اريجا هب من جانب الحمى

فقلت ، وقلبي للحمى شد مايصبو

سلام عليها نفحة عربيـــة

اذا مانشقنا عطوها انتعش القلب

كانت عودتي قدوة للآخرين ، فيها من التضحية والايثار مافيها ... ارجوان لا اكون اصبحت في مضيعة وانا في قلب

بلادي ... بعد ان خدمت قضاياها اكثر من ثلث قرن ، لم اتقاض قرشاً واحداً من ناد عربي اومؤسسة اوحكومة عربية او سفارة ... لقد ابت نفسي الارتزاق ... احمد الله ان حياتي كانت نزيهة في سبيل الادب والعروبة .

كلمتك الى كل مغترب ؟

العودة ثم العودة .. حاجة الوطن الينا كحاجتنا نحن الى الماء والهواء .. لكن كيف يتم ، وما هي الوسائل .. امر يقع على عاتق الحكومة التي تقصر في معاملة المغتربين ، ولا توليهم كل عنايتها .

أما أنا فقـــد جئت وهمي ان امرغ وجهي في تراب بلادي المفدى ، وانشق هواءقريتي(كفرجوايا)واشرب الماء عباً من عيونها المتفجرة . . . وأرى الأهل الذين غبت عنهم ، واشقيتهم خلال غربتي أسى واتخمتهم مرارة .

— مم تشكو ؟

أشكو من بطالتي قبل كل شيء ، لأنني اشعر بأنني لم أكمل رسالتي بعد.. ومع ذلك فيجب أن احتمل ربما تزول الظروفالقاهرة التي تحول دون انطلاقي.

— حدثني عن الأدب المهجري اليوم ؟

ان صلتي بأدباء المهجر لم تنقطع حتى هذه الساعة ، فما زلت اتلقى الرسائل من زكي قنصل ، وجورج صيدح وغيرهما ، نعالج فيها قضايا الأدب وراء البحار ، وقد كاد يلفظ انفاسه الاخيرة ، بعد أنطوى الموت بعض اعلامه الاوائل ، وأرجع البحر بعضهم الآخر .

— كيف نستطيع أن نطيل عمر الأدب المهجري ؟

قد نطيله اذا اهتمت الحكومات العربية بارسال بعثات ثقافية كي ماتدرّس العربية لأبناء المهاجرين الذين يجهلون كل شيء عن العربية وتاريخها وتراثها الضخم، بالاضافة الى تبادل الزيارات الدائمة ، واحتكاك الادباء ورجال الفكر العرب ، بين الوطن والمهجر . . بشيء من الاهتمام ، نربح هذه الملايين التي مايزال الشوق والحنين يختلجان في ضمائرها .

— وعن صحافة المهجر ؟

في الارجنتين الآن حوالي عشر مجلات وجرائد تعيش على الكفاف ، ناهيك عن ان عدد قرائها لا يتجـاوز الخمسة آلاف

قارىء من بين اربعمئة الف مغترب . . . احتجب بعضها الكثير ، وبعضها القليل يعاني نزع الموت ان غداً او بعد غد ... منها :

١ ـ الجريدة السورية اللبنانية : وهي صحيفة يومية أسسها موسى عزيز عام ١٩٢٩ ويصدرها اليوم صاحبها السيد أمين قسطنطين .

٢ ـ جريدة السلام: نصف اسبوعية، اسسها وديع شمعون سنة ١٩٠٢ وهي اقدم الصحف المهجرية بعد الهدى النيويوركية .

٣ ـ جريدة العلم العربي: اسبوعية، أسسها عبد اللطيف الخشن سنة ١٩٣٤.. هذا بالاضافة الى مجلة (الاستقلال) لأمين ارسلان، ومجلة (الحياة الجديدة) التي صدرت في الارجنتين عام ١٩٦١ ، لمؤسسها جواد نادر ، من قرية برشين في سورية .. ومما يؤسف له ان أكثر هذه الصحف والمجلات تصدر بالعربية والاسبانية معاً ..

– هل عانيت الشعر مع الصحافة ؟

لقد كان الشعر لسان حال ما اجتاحني شخصياً، واجتاح أمتي من رزايا ونكبات.. فلو راجعت مجلدات المواهب المشرين ، لعثرت على كثير من أشعاري الوجدانية والوطنية التي تلتهب حماسة، وتستعر وجداً. اسمع ابياتاً من هذه القصيدة التي نظمتها اثر عودتي بعنوان (عاد الغريب) .

عاد الغريب ترفّه الاحلام
من بعد ماشطت به الأيام
من بعد ماعلق الاسى بفؤاده
دهراً ، تنازعه جوى وسقام
دهراً تطاول ليله ونهاره
حتى كأن اليوم منه العام
هل للمقيم ملذة في غربة
ولو ان جنات النعيم مقام
لو صح ذاك لما سبقت الى الحمى
حذر الحمام فما يعوق حمام
هل المفارق أهله ودياره
عيش بطيب ومأمل بسام

. . .

هذى دمشق وهذه جناتها
الطيب ينفح والوجوه وسام

والارض مشرقة بنور إلهها
وازّينت وتعانقت اعلام
أعلام امتنا ووحدة دارنا
تبت يد تجوي بها الاقسام
تيهأ دمشق على الزمان ولا عدت
بسمات وجهك نضرة وقسام
فحمى العروبة عز مطّلباً اذا
ماعز مطّلب وجلّ مرام
أنا ماحييت بهجوتي إلا به
فله علي الفضل والانعام

. . .

— من الذي غرس في نفسك حب الأدب ؟

لاستاذي الشيخ سليان الأحمد (والد بدوي الجبل) أكبر فضل في تنشئتي ... فعلى يديه تتلمذت صغيراً ، واستمررت انهل من معينه العذب ،ونبعه الفياض حتى قبيل هجرتي .. أما مبادىء القراءة والكتابة والتجويد ، فقد اخذتها عن والدي — رحمه الله — وكان شاعراً له قصائد عديدة لم تنشر .

— مدى اطلاعك على الاسبانية ؟

لم أجد الاسبانية اجادة تامة،لانصرافي عنها الى العربية،ولعل ذلك كان نعمة على العربية في تلك الاصقاع النائية ، لكي لاتضيع وتندثر ... عشت في العاصمة الارجنتينية كأنني في ضيعتي المتكئة على سفح جبل النبي صالح ... أحافظ على تقاليدي العربية الاصيلة ، حتى مع زائري من الاجانب .

— لماذا لاتقتل فراغك بالكتابة؟

هذا ماأتمنى لو يتحقق،ولكن عبثاً ... يمر اليوم بعد اليوم ، والشهر تلو الآخر ، والرغبة تجافيني في مسك القلم لتسجيل خاطرة او كتابة قصيدة ...



الزهراوي في « حضارته »

بقلم شلامة عبيد

تحت عنوان « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي » أصدر المجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق باشراف الدكتورين جودة الركابي وجميل سلطان، كتاباً في ٥١٠ صفحة يتضمن مقالات في جريدة الحضارة في عامي ١٩١١ و ١٩١٢ ، بعضها للشهيد الزهراوي وبتوقيعه وبعضها الآخر في الحضارة نفسها ويرجح انها بقلمه .

تتسم مقالات الزهراوي بطـــابع المحاضرة الهادفة المنطقية المتدلة ، وقل ان نجد بينها المقالة الخطابية العاطفية الانفعالية. فالرجل في نضوجه، وفي الدقة والمسؤولية والخطورة التي يستوجبها مثـــل ذلك التوجيه ، يميل الى الاعتدال فيأخذ به ويوصي به ، إلا انه اعتدال حازم مستنير.

وأرى ان شهرة الزهراوي الفكرية لم تأخذ نصيبها من الذيوع بسبب من اننا قد تعودنا ، معشـر العرب ، اجمالاً ، على الاهتمام بالافكار الصـاخبة والالوان الصارخة ، فظلت افكار هذا الشهيد الذي تأرجح على اعواد المشانق مع رفاقه رواد النهضة العربية القومية في السادس من أيار ١٩١٦ ، ظلت افكاره بسبب من عمقها وهدوئها المنطقي لا تلفت الانظار ببهرج مظاهرها ولا تدوي في الآذان بقمقمة الفاظها.

ومن حقه علينا ، وقد كان في حياته وموته علماً من اعلام نهضتنا وتحررنا ان نحيي ذكراه ، وان نزيد الاجيال العربية معرفة به .

يرى الزهراوي الذي عاش عهد الاستبداد الحميدي ، وهو الذي عاصر ، وربما شارك في انقلاب ١٩٠٨ من اجل الحد من السلطة الفردية والتحجر ، ومن أجل التمسك باهداب الدستور ، وهو الذي شاهد ، وهاله ان يشاهد الانقضاض على الدستور ، ومن ثم هيمنة الاستبداد الجماعي باسم العنصر بعد الاستبداد الفردي باسم الدين ، يرى أن البلاد العثمانية لا تشكو من الاستبداد بقدر شكواها من الاستعباد.

ان السلطان لا يستبد بهم بل انه يستعبدهم فلا يصرفون من الامور الا كما يهوى بغير قيد أو شرط ، ولا يملكون الا ما يملكهم اياه. ويقلد المتنفذون والولاة والحكام سلطانهم في استعباد الناس فتستبد بالشعب النقمة والسخط والتأفف والتبرم والاستغاثة .

ويتطلع الشعب الى منقذيه الجدد من ثوار سالونيك ومناستر واذ به يفجع بآماله واحلامه بعد أن ملأ الدنيا افراحاً واعياداً ، الا ان الزهراوي لا يرى في خيبة الامل هذه كارثة . فالامم ، في نظره ، لا تبنى ولا تتغير في يوم وليلة ، وهو يضع في اعتباره ناموس الارث وتأثير المحيط ليؤكد : « **ان جمهور العاملين لذلك الاستبداد سيظلون عاملين لاستبداد جديد ...** » (ص ٣١٦) .

والزهراوي لا يستسلم لهذا الواقع المرير الانهزامي بل هو يصر كل الاصرار ويؤكد بكل ما اوتي من حجة وقوة على وجوب احترام الانسان من حيث هو انسان وها هو يذكر في (ص ٦) بان « **الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً . وبديهي ان لا عزة مع الاستعباد ...** » الى ان يقول في موضع آخر : « **نحن لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو الى التزيد من المجد ، ولا نقبل من احد ان يغيظه منا دعوة الى مثل ذلك ... ومن لا مجد لهم ، لا سياسة لهم بل تدوسهم السياسة بسنابكها ...** » .

والمجد ، في نظر الزهراوي ، لا يأتي

الا بالتعاون، والتعاون لا يأتي الا بالروابط، ولذا فقد كرّس الشيخ الصحفي قلمه من اجل الدفاع عن روابط العروبة وتأكيد تميزها ووجوب تنميتها وتوثيقها ، وهو ان بدا ملتزماً بالرابطة العثمانية إلا أن اصراره على الدعوة للقومية العربية اصرار كلفه حياته على حبل المشنقة .

وارى في اقتباس بعض فقرات من « الحضارة » افضل طريقة للتعرف الى افكاره وعقيدته السياسية ، على ان يظل في بالنا أن الرجل يكتب في اعصب فترة من فترات الامة العربية ، في تلك الحقبة التي راح « الاتحاديون » فيها ، وهم شباب اقوياء متسلطون، يعملون على تتريك العناصر العثمانية مستغلين ضعف وتفتت واستسلام اكثر المناطق الذي ظل يرفرف عليها هلال بني عثمان قرابة اربعة قرون ، ولاسيما المناطق العربية التي ظلت رابطة الدين تشدها الى تلك الراية والى سدة الخلافة في الاستانة .

ويرى الزهراوي ان الاتحاد في الدولة العثمانية واجب لانجاح الدولة وتقدمها ، ودرء الاخطار المحيطة بها من كل صوب، ولكنه لايقبل بان يكون هذا الاتحاد على حساب طمس اللسان العربي والتاريخ العربي والشخصية العربية . انه في هذا مكابر لايلين :

« .. ان الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي عربيا ، والرومي روميا والالباني البانيا .. واذا كان الاتحاد لأجل الوطن فالرجل الذي يستطيع ان ينسى قومه وقوميته لايأمنه على الوطنية الا أحمق ، فان من لاقوم له لاوطن له ، ومن ينسى اهله فهو ناس وطنه قبل ذلك .. » (ص ١٦ — ١٧) .

« .. وصيرورة العثمانية جامعة عظمى العثمانيين عامة ، لاتقنع ان يحب كل جماعة منهم جامعتهم الخاصة .. ولا ينبغي (للترك) ان يتأففوا من قولنا اننا معشر العرب في المشرق والمغرب شيء واحد .. »

ويتخذ الزهراوي من الحرب في طرابلس الغرب ضد الغزو الايطالي حجة للتأكيد على ضرورة تعزيز العنصر العربي واعتماده على نفسه فيقول : « ..فبأولئك

العرب الكرام يجب ان يقتدي سائر العرب ويحسبوا حساب الغد ، ولا يقولوا وراءنا فلان وفلان فان لفلان وفلان هموما اخرى ، وليس لهم من خليل وفي الا اعضـادهم وما قبضت عليه اكفهم ، ان كانت تحت اكفهم بواتر ، ومن اراد تجريدهم من تلك البواتر باية وسيلة او اي اسلوب كان فليعلموا انه خائن لدولتهم ولوطنهم العام ولوطنهم الخاص ... » (ص ٢٣٥) .

ولا يكتفي الزهراوي بالدعوة الى القوة بل يدعو دائماً الى القوة المتزودة بالعلم ولا سيما العلم الحديث ، والمستنيرة بهدى الاخلاق والتاريخ العربي حتى في جاهليته ، ويدعوهم الى الاطلاع على ذلك التاريخ الحافل بالمفاخر وجلائل الاعمال الا انه يحذرهم من ان يقعوا في ماوقع فيه غيرهم من التبجح والاستعلاء ، مؤكداً في كل مناسبـــة ، حرصه على الاخاء الانساني ومنفعة المجتمع البشري من خلال النهضة القومية وبها ، معترفاً « باننـا مادمنا عاجزين عن جعل البشر جماعة واحدة يكون الاولى للبشر ان تتحسن حال كل جماعة منهم . »

واليقظة تستوجب قيام روح عمومية، روح جماهيرية ، تتفاعل مع القادة ويتفاعل القادة معها . فهو يرى ان « الجماعات التي لها وجود ولكن لاروح عمومية فيها ، تكون لاحية فترجى ولا ميتة فتنسى .. والجماعات التي روحها العمومية غير مطهرة من اوضار الجاهلية ، او غير مؤيدة بقوة الحق والانصاف او غير مفعمة شوقاً الى المعالي وحرارة في المباراة او غير مرزوقة مصابيح من عقول النوابغ وعرى من عزائم المخلصين ، يكون لها تيه طويل في اودية الفوضى، وتخبط كثير على صخور المصائب .. »

« والجماعة متى صار لها روح عمومية يكون خط سياستها هو حيث تتوجه تلك الروح العمومية . »

وهذه الروح العمومية ، في نظره هي التي دفعت الى الثورة على الاستبداد الحميدي ، ولولا الاستجابة الشعبية ، بل ولولا المطالبـــة الشعبية والروح

الجماهيرية ، لما اقدم ضباط سالونيك على هز عرش عبد الحميد ، الخليفة الاحمر ، والمطالبة بالدستور .

ومقاومة الاستعباد والظلم ، في رأي الزهراوي ، واجبة ومشروعة وها هو يستشهد باقوال السيد المسيح واعماله ، عندما راح يوصي تلاميذه بشراء السيوف ، ويستشهد به وهو يطرد ، بالقوة ، اولئك الذين انتهكوا حرمة الهيكل .

ونرى ان مثل هذه الفقرات هي التي عجلت بنهاية الزهراوي على يدي المستعمر الجلاد :

« .. يشكو الناس كما كانوا يشكون امس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة ؟ تالله لوظلت الامم طول دهرها حليفة الشكوى ، مع عدم روح المقاومة ، لما زال عن رأسها المتغلبون الذين يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا ويكرهون ان يناقشوا بما يعملون . . » (ص ١٦٥)

« .. واما الامم التي حبست فيها النفوس .. وانبثت في ارجائها النخوة وارادة الشرف .. فانها لن ترضى ان تكون بيد متغلبين كما يكون العبد في يد سيده بل هم يقاومون كل متغلب يريد ان يتخذهم خولاً وعبيداً ... » (ص٣٤٧)

ويحس الشيخ الصحفي بالمرارة من استكانة ابناء قومه وهجوعهم فيصرخ بأسى **« ... لن نيأس .. لن نيأس »** ومن ثم يلتفت قائلاً : **« حقا انتم ايها السادة ، قومي الكرام لا بأس مهما طالت هجعتكم من ان تفيقوا . »**

وبعد ، فان اصدار هذا الكتاب او بالاحرى هذه المجموعة من المقالات ، عمل مفيد مشكور ، الا اني اود ان اسجل بعض ملاحظاتي حول هذا الموضوع :

١ — يبدو ان الكتاب قد انجز بسرعة ولذا بدا في حاجة الى بعض الشروح ولا سيما التاريخية التي لايمكن الاستغناء عنها .

٢ — ضرورة تدارك مجموعة السنة الاولى من جريدة « الحضارة » ولو

بتوجيه نداء الى المكتبات العامة والخاصة للحصول على نسخة من تلك المجموعة اوبعضها .

٣ — تدارك المقالات المتعلقة برحلة المؤلف الشهيد الى بيروت .

٤ — ضرورة اصدار مختارات شعبية اومدرسية من هذه المقالات تكون في متناول الشعب للتعرف الى هذا الرائد العربي الذي لايجوز ان تظل معرفته مقصورة على الخاصة من الادباء والسياسيين .

ان الزهراوي في فكره وادبه وعزته وانسانيته منارة تشع في حقبة حالكة دامية من تاريخنا تضمخها روح الشهادة بعطرها الخالد القدسي .

« دنيا المغتربين »

للدكتور جمال الفرا

منشورات دار الكتاب الجديد — بيروت

عرض وتحليل خليل هنداوي

ليس الحديث عن المغتربين والاغتراب ، والمهاجرين والهجرة بالشيء الجديد ، فقد بدأ الحديث عن الهجرة في لم اول مهاجر . ولا شك ان اول حديث عنها كان قصة طويلة ، رهيبة، تكشف عن افق مجهول لا نهاية له ، وتبطن بعدة من الكد والعناء ، أشد مضاء من عُدد الأيام والليالي .. هي قصة اول مهــاجر حط عصا الترحال في ارض عذراء ، شائكة تبتلع جهود الرجال، والرجال معاً، وتقول هل من مزيد؟ ثم لحق بهذا المهاجر مهاجر آخر ، وآخرون بعدهما ، تقاطروا ، وتهافتوا على وهج الذهب الذي يتخطف العيون ، ويفتن القلوب .. وهو وهج طالما امتزج بوهج العيون وهي ترتقب او طالما نفح بعرق العاملين ، وهم يدأبون ..

ويشاء القدر ان يبتلي اصحاب عبقريات أدبية بهذا الوهج فيرتد اكثرهم عنه خاسئي الطرف كاسفي البــال الا من أدب صادق ينشأ في تلك المهاجر النائية، فنعرف حقيقة المهجر ، ونتصور العناء الذي يتمرس به أولئك المهاجرون لتأمين لقمة العيش ، وتحقيق حلم الثروة .

وحقاً ، لايسعنا — ونحن نطل على هــذا المعترك — الا الاعجاب بهؤلاء المهاجرين الذين شقوا الطريق — حيث لاطريق — الى معجزة الحياة والبقاء ..

وقد يكون ماجاءنا من ادب المهجر وشعره كافياً لتصوير معالم تلك الحياة ، ومشقاتها، ولكن هذا الكتاب الحديث الذي يحمل الينا — دنيا المغتربين — يبقى نسيج وحــده في نقل ألواح صادقة عن حياة المغتربين، لانكاد نجد لها مثيلا فيا جاءنا من أدب المهاجر .

ودنيا المغتربين مجموعة ألواح قصصية معبرة حرص كاتبها على ان ينقلها من ربوع مختلفة في ذلك المهجر الواسع ، دعاه الى كتابتها ماذكره في المقدمة اذ يقول :

« في منتصف العام الفائت غادرت البرازيل بعد مقـــام في ربوعها أربى على ثلاث سنوات دعتني خلالها مهام قومية الى ان أطوف بالعالم الجديد من بحيرات كندا في الشمال الى شواطىء التشيلي في الجنوب ، فأتيح لي ان اتعرف عن كثب الى بني قومي من المغتربين والمتحدرين من أصول عربية ، في اوطانهم الجديدة » .

وقد تردد الكاتب اول الأمر في الصورة التي يعبر بها عن انطباعاته ، ثم بدا له ان خير مايصنع هو تدوين بعض الذكريات عما رأى وسمع ، تكون صوراً واضحة عما رافق ويرافق حياة المغتربين في حلوها ومرها ، أملاً في أن يستأنس بها المغترب ، فيزداد مضاء وعزماً ، وان يتعرف المقيم اليه من خلالها فيفيه حقه وعياً وتقديراً ، حتى اذا راقته الفكرة وعاد الى ذكرياته اصطفى منها هذه الصور العشر ، تمتد جذورها عميقاً في واقع دنيا المغتربين ، وتذهب فروعها عالياً في سماء الخيال من تلك الاقطار المضيافة الرحبة » .

هـــذه هي الأسباب التي حدت بالمؤلف الى تسجيل هذه الذكريات ، وانتقاء هذه الصور العشر الخالدات. يهديها الى جميع من عرفهم من بني قومه في العالم الجديد ، وفاء لصداقات يعتز بها ، وتخليداً لذكريات يحن اليها ..

والآن ، ماهي هذه الصور العشر ؟

صور متتابعة ، تعبر تعبيراً حياً عن اشخاص وابطال لم يعيشوا في عالم الأساطير ، وانمـــا عاشوا في عـالم واقعي ، وكانوا من اعصابه ولحمه ودمه . وهؤلاء الابطـال هم خليط من ربوع عربية ، فيهم السوري واللبناني والفلسطيني ، قربت بينهم وحدة البـــلاد والدماء واللغة والمصير ، لم يعرفوا حدوداً تفصل بينهم ، ولا جوازات تقطع أواصرهم .. يجمع بينهم الكفاح المر للتغلب على مشقات الحياة .. وكلهم نمـــاذج خارقة في البأس ، والجلد ، والاعتماد على النفس.

ومن العجب ان هؤلاء الابطـال لم ينسوا يوماً – في وطنهم الثاني – ان لهم وطناً رسخ هواه في أفئدتهم ، ورسخت عاداته وتقاليده في نفوسهم ، فهم يحنون اليه كلما هبت نسمة الحنين ، وهم يتراهفون اليه كلما صفقت الذكرى في صدورهم ، وكأنما الغربة شدت بعضهم الى بعض ، ليحطموا أسوار الغربة ، وكأنما للقاؤهم لكل وافد جديد يشعل فيهم نار الوجد الى لقاء الوطن .

الصورة الاولى هي صورة « الشمس » التي أبت ان تغيب . . ومن هي « شمس » هـذه ؟ انها تلك الفتاة الزحلاوية التي نزلت ارض البرازيل عروساً لأبي كريم .. وابو كريم ذلك التاجر الذي كان يجهد كالمحموم ليل نهار وراء الثروة.. وفي يوم ما جاءه أجله.. فتبددت الثروة عاجلاً كأنها لم تكن.. والقوم من بعده كأنما يوحون الى شمس ان تتزوج ، او تعود بابنها الى الوطن ، هرباً من هذه الحياة القاسية ..

ولكن « شمس » أعلنت القوم بدوره :

– لقد عزمت على البقاء بينكم .. هنا مات « ابو كريم » وعليّ أن أثأر له . وهنا سيخلفه كريم ، وعلي ان ان اعيد البناء من اجله .

لقد أبت «شمس» أن تغيب . وبرت «شمس» بما وعدت ، فكانت في ميدان العمل « اخت الرجال » كما كانت في خدرها زينة النساء ... ومملكة « شمس » اليوم قوية متينة ، راسخة الدعائم ، واغلى مالي التراث الذي خلفتــه « شمس » وحرصت عليه هو حفاظ قومها على التقاليد العربية الاصيلة . حقاً ، ان المتأمل في هذه الصورة يخرج مؤمنــاً بامكانيات المرأة العربية ، وقدرتها على الكفاح حين لاترى بداً من الكفاح . لكن هذه الامكانيات لا تظهر كما تتفتح بصورة طبيعية ، الا في حالات الضرورة القاسية .

وأما صورة « من رصيف الى شواطىء فلسطين » فهي صورة لايسع قارئها ان يحبس الدمعة في عينه ، والبسمة على فمه ... لأنها صورة تشابكت فيها العواطف .

هي صورة جماعة من فلسطين ، خرجوا من أرضهم كما خرج غيرهم ، ويشاء القدر ان ينزلوا في « رصيف » على شاطىء المحيط ... ولم يكن امامهم في طريقهم من قبس ولا هدى ...

وكيف لايشجينا هذا الوصف البسيط المعبر الذي لا أجد أروع منه في رسم تلك الملامح التائهة على الوجوه ؟؟ انهم لامرجع يحميهم ، ولا مسؤول ينظر في شؤون وثائقهم ومعاملاتهم ، فلا هم من سورية ، ولا من لبنان . ولا من رعايا هــذه الجمهورية ، ولا من رعايا تلك المملكة ... أيتام في بلد نام غريب . ويبلغ هذا الوصف الذروة في التعبير عن أسى هذه الجماعة وانقطاعها عن الحياة ، لانها تحيا في عالم لايربطها به شيء ... واذا كان المغترب يغريه عادة مايتلقاه من رسائل من صحبه وذويه ، فيهفو فؤاده لمرأى طوابع الوطن على مغلفاتها ، فان هؤلاء الفلسطينيين لم يعد لبلدهم في عالم البريد طوابع ...

لقد ضن عليهم القدر بكل شيء ... لقد انتزعت الخيانة ارضهــم ووطنهم ، بيوتهم ومزارعهم ... وفرق بينهم وبين أهليهم ... فهم اشلاء مقطعة في الدرب ، وعلى الشواطىء في العالم القديم ، وفي العالم الجديد ... يحملون جراحات لاتندمل ، ولايمكن ان تندمل .

هؤلاء الفلسطينيون انفسهم ينبئهم الحــاكم ذات يوم ، على حين فجأة ، ان البارجة العربية « الرشيد » ستزور البناء ... وان عليهم ان يرتبوا لبحارتها الحفلة التقليدية ...

– يالسخرية القدر !.. اين الحفلات والمباهج من حياة هؤلاء الغارقين في مشاكل كفاحهم اليومي ؟

وما شأن القدر يريد ان يسخر منهم الآن ، بعد أن مزقهم ؟

كانت نغمة الالم توحي اليهم « اننا لسنا في العير ، ولا في النفير ، وما سبق ان اهتمت بنا سفارات ولا اقربت الينا سلطات ، وما فينا يكفينا ... »

ومن وراء هذه النقمة كان نداء المروءة يصور لهم « أو ليسوا ابناء عمومتنا ، بل أشقائنا قادمين الى بلد ليس لهم سوانا من أنيس وجليس؟ لقد أجرمت السياسة بحقنا ، وقست الاقدار ، ولكن هل يتجاهل العربي اخاه ؟»

وهكذا استقبلوا بحـــارة « الرشيد » في مهرجان لم تشاهد شوارع – رسيف – لهمثيلا ، حيث خرج الشباب السمر رائعــين في بزاتهم الناصعة البياض ، تتدلى على جنباتهم السيوف القصيرة ، وتزركش صدورهم ومناكبهم الشارات الفضية والذهبية ويزين هاماتهم شعار « الصقر العربي » ينظر مندهشاً الى آفاق ما عرفها من قبل ...

وبعد مدة يتلو الكاتب على القوم رسالة قائد البارجة ، يقول فيها « ما كنت اظن ان يتلقى رجالي بالغ درس عن فلسطين ، على سواحل البرازيل »... وتقترب منه فتاة من بيت لحم تناوله رسالة ثانية من احد شباب البــارجة ، يقول فيها « ولقد عاهدنا الله على شرف السلاح وقدسية الدم ، انا وستة من رفاقي ، على ألا نتزوج قبل ان تمخر بوارجنا ميــاه فلسطين ظافرة ... »

انها صورة مناسبة بسيطة لكنهـــا حفلت بالمعاني الكبيرة ، والذكريات المريرة .

وقد يكون من أولئك الابطـــال « ذو الوجه الشمعي » الذي تعرف اليه الكاتب باسم « ابو شاكر » وهو في قرية « جوبر » في غوطة دمشق ، شارك في ايام الثورة السورية ، وحوكم بالاعدام غيابياً ، وقضت قنابل الطائرات على زوجه ... حمل ابنته الصغــيرة « منى » ورحل الى البرازيل . وما هي الا سنوات عشر حتى صار ابو شاكر يملك كروما واسعة ، ومصنعاً كبيراً المشروبات الروحية .

وما كانت الكروم والمصانــع لتشغله عن « منى » ليفنشها لنشئة عربية خالصة ...

انه يكنى بـ « أبو شاكر » وليس له « شاكر » ولكنه أسر الى الكاتب بأنه ترك زوجه على وشك الوضع بين يوم وآخر ... راجياً الله ان تضع له « شاكر » ...

اذن ، فليشربوا نخب شاكر ...

شرب القوم الا « ابو شاكر » ... فقد نادى بقدح من الماء ...

وانتفضت أسارير وجهه ، وقال بصوته الأجش :

وحياة « منى » ورحمة ام شاكر ما ذقت طعم الخمر في حياتي !..

وانه لصادق .

وان في دنيا المغتربين صورة رائعة عن كفاح الحمصيين ، وانتشارهم ، في ربوع المهاجر ، تعبر عن مدى النجاح الذي حققوه ، حتى بات لا يخلو مكان من قدم حمصي ...

وفي قطعة الاسد والنمر ... والأسد يرمز الى الاب ، والنمر يرمز الى الابن .. أجدنا في حفلة رائعة ، حيث راح هـذا الابن – وهو النائب الشاب – يهدر على المنبر باللغة البرتغالية ، يقول معتزا :

(لقد اعطينا هذا البلد اكثر مما اخذنا ، وانا اخذنا مادة فانية ، هي من هذا البلد واليه اولا

وآخرا . ولكن حملنا اليه تراثا ساميا ثمينا لايزول ».

واذا هذا الابن الشاب من اصل عربي، من آل كوكب ، من جبل المتن في لبنان . اليس مايحققه هؤلاء الاحفاد تتمة لرسالة الاجداد ؟

وحين راح الكاتب ، بعد تعرفه الى الأب، يثني عليه وعلى ابنه .. ألقى الاب يضرب بيده اليمنى على شرايين ذراعه اليسرى بقوة ، وينظر اليه ، وقد لمعت عيناه ببريق فيه العزم وفيه العز ، وقال :

– ان الدم لايصير ماء ..

ماأبلغ هذه الكلمة .. تأتينا من البرازيل !

ويشاء الكاتب ان يختم صوره بصورة رائعة متماسكة الخيوط ، أدنى ماتكون الى قصة يخفق فيها قلب ، وتلمع الوان ، وتضيع ظلال .. وهي « ابناء اللواء » .. وهؤلاء ابناء تشردوا من قبل ، وهاموا على وجوههم طلبا للعزة .. ولاشك ان اسم « اللواء » سيثير الذكرى الاليمة في نفس الكاتب .. لقد كان في حفل خطابي .. لاحظها فتاة يشع منها طيب الحياة ، واشراق الشمس ، وطهر الملائكة .. تجاوزت ربيع العمر وبلغت صيفه الهادىء ، ينسدل على كتفيها غلالة خضراء حريرية ، ويتجلى نورها الداخلي ، في أناملها ، تفرك دون رأفة طرفي الغلالة ..

هذا وصف دقيق ، لكنه بعيد الدلالة في الوصول الى اعماق هذه الفتاة عن طريق هذا الوصف الظاهر .. وكأن الكاتب تتفتح في نفسه انطلاقات لاشعورية لقاء هذه الفتنة ، فتتفتح في نفسه آفاق شعرية تزين الوصف الواقعي .. «فاذا هو يتمثلها صورة حية لواحد من تلك التماثيل المسجدية التي زخرت بها كنائس انطاكية الكبرى قبل ان تدمرها الزلازل والحدثان ، ثم يرى فيها احدى اميرات انطاكية الغابرات اللواتي يروي التاريخ انهن كن يسدلن جدائل شعرهن من شرفاتهن حتى تلامس مياه العاصي التي تجري من تحت قصورهن » .

وتمر الأيام .. ويدعى الكاتب ليشارك في حفل آخر .. وفجأة وجد .. فتاة انطاكية .. قالت له :

– مابال السيد يغادرنا والسهرة في مبتداها ؟ هل يعلم السيد انني فهمت خطابه عن اللواء لعامين مضيا من أوله الى آخره ؟

فأجابها :

– وأنا لن أنسى تلك الغلالة الخضراء، وماعانته من أناملك . وستظل صورة هذه الغلالة مرتبطة بذكراي البعيدة عن اللواء .،

« وتمر الأيام .. وترفع الباخرة مراسيها . أطوي صفحة من حياتي لأفتح صفحة جديدة .. وادخل حجرتي في الباخرة لأدبر متاعي ، فأجد رزمة صغيرة ، أنيقة .. وأفتحها فاذا بداخلها الغلالة الخضراء ... »

هذا عرض قد يكون مطولا ، او وجيزاً ، لبعض ماجاء في دنيا المغتربين من ألواح حية ، وحوادث واقعية ، كان ينقلها الكاتب بعين متأملة ، ونفس متأثرة ، ويرسمها بريشة حساسة ، ضمن صور بسيطة ، معبرة ، تلتف بالمعاني والدلالات العميقة ...

واذا فلسف ابو تمام الشاعر معنى الغربة بقوله « واغترب تتجدد » فان الى غاية التجدد غايات اخرى ، هي التذكر ، والحنين ، والتسامي ... وكلها معان سامية تنشئها مدرسة الاغتراب ...

وهذه الالواح يغلب عليها مرة طريقة السرد ، ومرة تنهج نهج القصة بما تختبىء من مفارقات تتلاقى حيناً ، وتتجافى حيناً ، ومرة تسلك طريقة أدب الرحلات ، ولكنه سلوك ضيق ، لأنها لاتتناول وصف كل مايقع عليه المشاهد ...

وفي كل حال ، لقد أسدى الكاتب لأدبنا يداً في اغنائه بهذه المشاهد الغريبة ، ومد اسباباً وثيقة العرى بين الوطن الاصلي والمهجر البعيد ، واعطى نماذج لاتنسى لتلك البطولات الخالدة التي سجلها العرب المغتربون في ماوراء البحار ... كل ذلك برسمه بقلب شاعر ، وريشة مصور ، وعقيدة عربي ...



لفريد جحا

عرض وتقديم جورج سالم

طالعتنا في السنوات الأخيرة كتب عدة عُنيت بالأدب المهجري تأريخاً ونقداً وتحليلاً ، وان دل ظهور هذه الدراسات على شيء فانما يدل على غنى هذا الأدب من ناحية ، وعلى ارتباطه ، على بعده ، بمشاعر القارىء العربي ومشاكله من ناحية ثانية .

وقد أخذ النقاد بعد ان كثرت الدراسات التي تؤرخ للأدب المهجري جملة يوجهون عنايتهم نحو جوانب خاصة منه ، والحق ان في هذا الأدب أكثر من ناحية تستحق أن يقف عندها مؤرخ الأدب أو الناقد ليجلوها ويخصها بالبحث والتعمق .

وهذا ماقام به الاستاذ الاديب فريد جحا في كتابه الجديد « العروبة في شعر المهجر » . وترجع عناية الاستاذ جحا بالادب المهجر وحبه له الى سنوات عديدة ، فلطالما تحدث عنه في محاضراته ومقالاته ودراساته ، وقد خص هذا الادب أخيراً بدراسة موسعة تناول فيها جانباً من جوانب هذا الادب وهي فكرة العروبة في الشعر الذي نظمه شعراء المهجر ، وان الناقد اذ يجلو هذه الناحية ليبرهن لنا عن مدى ارتباط هؤلاء الشعراء بوطنهم ، وشعورهم بكل مايمس هذا الوطن من شؤون ، كما يكشف عن جانب أصيل من الادب المهجري ونعني به الجانب القومي . ذلك بأن هذه الدراسة استطاعت أن توضح المعالم

القومية لهذا الادب ، فاذا هو يقف الى جانب الشعر القومي الذي عرفناه عند الشعراء العرب في العصر الحديث .

في هذه الدراسة يأخذ المؤلف بالمنهج العلمي في البحث ، فهو يبدأ بتحديد أسباب الهجرة من الوطن العربي ، فيستقصي هذه الأسباب ويحللها ، في مقدمة الكتاب ، وهو اذ يحدد هذه الاسباب انما يعتمد بالدرجة الاولى على أقوال الشعراء انفسهم ، فهو يستنبط من القصائد الشعرية مادته ، وقد انتهج المؤلف هذه الطريقة في فصول الكتاب كافة ، فهو يشفع الفكرة دائماً بنصوص تؤيدها ، وان الاعتماد على النصوص في الدراسة الأدبية منهج ممتاز ومجد .

ثم ينتقل الى الحديث عن العروبة في المهجر فيتحدث عن نشأة هذه الفكرة هناك على يد الريحاني في أول القرن العشرين ، وانتشارها بين الشباب . وهذه الفكرة تكشف عن مدى تتبع ادباء المهجر قضايا وطنهم وأحداثه ، ويدرس تفاوت حظوظ شعراء المهجر ازاء الاحساس بالقضايا العربيـــة ، وتفوق المهجر الجنوبي على المهجر الشمالي في هذه الناحية ، ويفسر ذلك كله تفسيراً علمياً سليماً .

ثم يمهد الى دراسة الحنين الى الوطن في شعر المهجر فيتحدث عنه ويبحث مختلف وجوهه واشكاله ، ويظهر تعلق المهجري بوطنه الأم ، وذلك في حنين كل شاعر الى مواطن بعينها كان لها أثر عميق دائم في ذكرياته ، ولهذا فقد تباينت طرق التعبير عن هذه العاطفة ، الا انها جميعاً تكشف عن هذا الحنين وتصوره في شعر صادق النبرة عذب الايقاع .

غير ان عدداً من الشعراء اتيح لهم أن يعودوا الى وطنهم فماذا كان شعورهم نحوه ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تشكل موضوع الفصل الثالث . فالمؤلف يحدثنا حديثاً مستقصياً عن الشعراء الذين اتيح لهم ان يلقوا وطنهم بعد غيابهم الطويل ، وان يعبروا عن المشاعر التي أثارتها رؤية الوطن في نفوسهم . والواقع ان العودة الى الوطن كانت تفجر في شعر كل مهاجر ينابيع لا تنضب من الذكريات

الماضيات ، حاول كثير منهم أن يصورها في القصائد التي نظمها في البلاد العربية . كما كان **ولقاء الوطن مناسبة للتغني بأمجاد الامة العربية الماضية ، التي عاش المهاجرون وخاصة في المهجر الجنوبي في ظلالها ، يفخرون بها ويتيهون على الدنيا .**

فاذا انتهينا من ذلك طالعنا فصل هام درس فيه المؤلف انعكاس أحداث الوطن العربي في الشعر المهجري ، فاذا الشعر المهجري راصد أمين يتلقى الأحداث التي تمر بالأمة العربية مهتماً بها منفعلاً معها ، مشاركاً أبناء وطنه في التألم لها . فما من حادثة هامة هزت ضمائر العرب الا وجدنا صدى لها في الشعر المهجري ، من موقف العرب من الاتراك الى جور عبد الحميد الى شهداء السادس من أيار وما تبع ذلك كله من حوادث واحداث كان شعراء المهجر يشاركون فيها بكل مشـــاعرهم وعواطفهم . فهم يشاركون ، من مهاجرهم ، في الثورات العربيـــة ويثورون على الاستعمار والانتداب وما خلفا من معارك وشهداء ونكبات ، لعل أهمها واخطرها نكبة فلسطين .

ومن هنا كان لا بد من وقفة طويلة مستأنية عند نكبة فلسطين في شعر المهجر ، وهي موضوع الفصل الخامس . وفي هذه كذلك نجد شعراء المهجر اوفياء لامتهم ، صادقين في التعبير عن مشاعرهم ، مشاركين اخوانهم العرب كل المحن التي يتعرضون لهـا منافحين ذائدين عن حمى الوطن العربي الكبير .

أما الفصل السادس فيتحدث فيـــه المؤلف عن الوحدة العربية في شعر المهجر ويحلل مشاعر الشعراء المهجريين ، وموقفهم من الوحدة وتعلقهم بها ودعوتهم الصادقة العميقة لها ، وتحليلهم لمقوماتها تحليلاً واعياً بصيراً .

ثم يمضي المؤلف ليتحدث عن تصوير المهجريين للابطال العرب وبطولاتهم في العصر الحديث ، في شتى المعارك والمواقف . وشتى الأقطار العربية . وقاد هذا البحث المؤلف الى الحديث عن امجاد العرب في القديم كما صورها المهجريون ، وتعلقوا بها . وإذا الشعراء العرب في المهجر يمجدون ذلك الماضي المؤثل ويتعلقون بامجـاد امتهم وماضيها الحضاري والثقافي .

وينهي المؤلف فصول كتابه بفصل ضاف عن مشاركة المهجريين للاقطار العربية في صراعها ضد الاستعمار ،فتراهم ثائرين على الاستعمار يقارعونه الحجج ويفندون أكاذيبه ويكشفون سيئاته وطائفيته ومظاله البشعة ، وينبهون الناس الى خبثه وخطره ويدعون الى الثورة عليه التخلص من نيره .

وينتهي المؤلف من ذلك كله الى خاتمة يلخص بها دراسته ويستخرج أهم ماانتهى اليه البحث من نقاط . وتتمثل هذه النقاط في ان الشاعر المهجري كان مخلصاً شديد الاخلاص لوطنه ، فمع أنه غادره بائسا يائسا ، أخذ بخناقه الفقر والطائفية والتخلف الا أنه لم يستسلم لليأس بل صارعه وتغلب عليه ، وأن اهم الموضوعات التي عالجها المهجريون هي شعر الحنين برقته وعذوبته ، والدعوة الى الوحدة العربية ، يضاف الى هذين الموضوعين شعر النكبة **« الذي كان نار أتوقد الاعداء والعملاء ومسببي الكارثة ، ونوراً يقود الشعب الى الطريق الصحيح .. »**

وعلى هذا فان للشعر القومي في المهجر أهمية كبرى ، يلح عليها المؤلف ،مردها الى أنه صدر في المهجر أولا والى أن الشعراء قد سبقوا في كثير من أفكارهم وآمالهم شعراء الوطن ثانيا ، وان هذا الشعر ثالثا كان نتاج شعراء كانت ثقافتهم العربية ضئيلة محدودة . وأخيراً فانهم أدوا بهذا الشعر رسالات ثلاث ،أدبية تجلت في دفع الشعر الى الامام ، ومحلية نبهت المهاجرين الى امجادهم ، وقومية حاربت اعداء العرب .

هذه هي أهم الأمور التي ادار المؤلف دراسته حولها . ومن هذه الالمامة السريعة تتبين قيمتها وأهميتها . فهي معالجة جدية جديدة لناحية هامة في أدب المهجر . ويلحظ مطالع هذا الكتاب ، ان المؤلف يسوق كل فكرة من فكره مدعومة بالامثلة والشواهد ، لهذا كان الكتاب حافلا بالنصوص الجميلة المنتقاة احسن انتقاء والمعبرة خير تعبير عن الفكرة التي يرمي اليها المؤلف ، وخصلة ثانية يمتاز بها الكتاب وهي انه كتب بمحبة ، فالمؤلف لا يقف موقفاً محايداً من الادباء ونصوصهم ، بل تراه يتحدث حديثاً يكشف بوضوح عن حبه لهم وعاطفته

نحوهم وايمانه بشعرهم ، ومن هنا ترى نبرة ذاتية شخصية تطبع الكتاب كلها بطابعها، وتظهر في كل صفحة منه، وعلى هذا فلست تجد نفسك أمام نقد وصفي يقف عند عرض الآراء وشرحها ودراستها ، بل انك واجد الى ذلك ، حب الناقد للموضوع الذي خصه بجهده وبحثه وتحليله . وقليلة جداً تلك الكتب التي تكتب بمحبة .

الا ان لنا ملاحظة أخيرة نسوقها في ختام هذا التعريف حول طبيعة الدراسة نفسها، فالكتاب يعالج موضوع العروبة في شعر المهجر كما رأينا ، وقد أورد المؤلف عدداً وافراً من النصوص الشعرية لشعراء شتى ، أظهر من خلالها مواقف الشعراء المهجريين من العروبة، أي انه كان يبحث المواقف الفكرية للشعراء من خلال قصائدهم ، بيد أن الشعر غناء قبل أي شيء آخر ، وكان حرياً بالمؤلف ، استكمالاً لبحثه ، ألا يقف عند المضمون الفكري للشعر المهجري ـ لأن هذه الافكار كان يمكن ان يعبر عنها باسلوب نثري دون أن تفقد دلالتها الفكرية والقومية ـ بل يدرس كيف نقل الشعراء المهجريون هذه الافكار الى حيز الغناء، وجعلوها موضوعاً لشعرهم أو قل موضوع غنائهم . وعسى أن يتاح للمؤلف في دراسة لاحقة معالجة هذه الناحية التي اعتقد أنها أهم ما يمتاز به الشعر



احياء ذكرى

فقيدة الأدب ماري عجمي

منذ أن صعدت روح الأديبة المناضلة ماري عجمي الى بارئها ، والأوساط الثقافية والنسائية تستعد لتكريمها . وقد أقام اتحاد الجمعيات النسائية بدمشق مساء الاثنين ٢٥ نيسان ١٩٦٦ حفلاً لاحياء ذكراها على مدرج جامعة دمشق .

وقف الحضور دقيقة حداداً على روح الأديبة الراحلة . اشترك في إحياء الذكرى نخبة من الأدباء السوريين واللبنانيين . فقد ألقى الشاعر اللبناني أمين نخلة كلمة تنشرها (المعرفة) فيما يلي ، وكان قد بعث الى النادي الأدبي النسائي في دمشق بالبرقية التالية : « سأقوم على الرأس والعين برثاء نابغة العرب وسيكون رثائي خطبة ضافية وسأحضر الحفلة بنفسي وان كنت قد تركت المستشفى منذ أيام بعد بقائي فيه مدة شهر » . وقبل كلمته ألقى الأديب السوري فؤاد الشايب والأديبة اللبنانية عفيفة صعب والأديبة السورية وداد سكاكيني والدكتور كاظم الداغستاني كلماتهم .

وكان من المفاجآت حضور الأديب اللبناني رئيف خوري والناقد الأدبي اللبناني جان كميد ، وقد دعيا الى منبر الخطابة فور وصولهما . وكانت عريفة الحفل السيدة ربمة كرد علي المعظمة أمينة سر الندوة الثقافية النسائية قد تلت كلمة العلامة مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق الذي حالت ظروفه الصحية دون حضور الحفل ، وبرقية

من الاستاذ عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد الحلبية . وألقت السيدة سعاد سلوم نصير كلمة النادي الأدبي النسائي كما ارتجل الأب أميل مرقدة كلمة ورثا الشاعر نبيل ظواهرة الأدبية الراحلة بقصيدة . واختتم الحفل بكلمة آل الفقيدة للدكتور جدعون محاسب ، الذي أهدى جامعة دمشق صورة مكبرة للأديبة الراحلة مع الدكتور طه حسين وعدد من الأدباء في حفلة تكريم الدكتور طه حسين في أحد مرابع بيروت سنة ١٩٢٦ .

حفل مدرج الجامعة بجمهور المفكرين والأدباء والأسر اللبنانية والسورية .

كلمة الأستاذ أمين نخلة :

مالهم لا يهزون الغصون ، فلعلها نائمة . مالهم لا يرون في يومها ما رأته هي في يوم شوقي ، وقد قالت يومئذ : «هزوا الغصون لعله نائم » ، وهؤلاء اهل الوادي الاعظم ، أدرى بأشيائهم من البشر الفانين ... فهم بين عبقر وهذه الدنيا طير ذواهب رواجع أبداً . بينا تكون الاجنحة في ظن العين قد وقعت الى الارض ، أو تكون الاصوات في ظن الاذن قد خفتت وانقطع نغمها ، اذا بربيع التذكار في الخواطر والقلوب يهتز لجناح عائد ، وصوت يتهادى من عالم النسيان . فكأن موتى عبقر لا يموتون حقاً ، اي كما يموت الناس .

ولعمركم ، أفهم يعيشون عيش الناس حتى يموتوا موتهم ؟ حاشا توقد الذهن وشفوف الحس وحرارة الوجدان وآلام التبريح في كد الفكر ، الى آخر ما ينزههم هذا الاستثناء عن مشاركة الموتى .

ويارب مصراع من بيت شعر لهم أو سطر من احد فصولهم يرد أيامهم الى الدوران ، بل رب حركة من حركات الطبيعة في مسار جمالها تلوح فيها وجوههم ، كأن تقلق في النسيم شجرة فتانة في الغوطة والوقت وقت رش الزهر . فيهرع واحدنا الى هذا الذي يتمثل له في البهجة الجديدة من رجعات العباقرة الغائبين .

ومايدريه ، فلعل ماري مثلاً هي الطالعة عليه من نضارة الورق . وهل من عجب ان تطل صاحبة القلم الاخضر من شجرة تهتز هانئة قريرة في نعمة «الغوطة» ؟

افلا يكون لهذا الواقف عند الشجرة ان يرى تغييراً للشكل ومحواً للزمن ، ونسخاً للسكان ، ونجاة من عباب الظلام والوحشة ؟ أو أن يرى كأن روحاً ثانية لماري لا تزال في الحياة ؟

نعم ان الذين يخرجون من الدنيا من جماعة الجمال والحق والخير ، ليس بالكثير ان ينقلبوا في تذكارات الناس وضمائرهم صوراً حيية في تجلي الطبيعة وتخايلها .

وهكذا تجدون ان هؤلاء العباقرة لا يطوى لهم بساط في ظل الحياة ، بل هم الذين يطرقون الخواطر ويدقون القلوب بأنامل خفية حتى آخر الاعصار .

ولله حين تغلب العبقرية قلوب العبقريين وتنأى بهم عن معتاد الناس ، فيهيمون على وجوههم في كل سبيل أو يسيرون في أودية من الذهول لا قرار لها . امقت لباطل الحياة ام ترك لمستحيل في طلب النهايات من المعرفة والوقوف على الاسرار المتواربة بالحجاب العظيم ؟؟ والا فما معنى ان يلوذ تولستوي في أواخر ايامه بأجواف الصوامع وأن تشيح ماري بوجهها عن الناس وتمسك عن الكلام ثلثة عمرها . ألا ان هذا كله من شيم العباقرة ومما هو محسوب عليهم من الذكاء السني حساب تشديد .

وما على ماري ان تصمت السنين . ما على لسانها ان يطرح عنه الفصاحة ، فانما الفصاحة بنت قلمها ، تدفق منه كما تدفق الاشعة المتجمعة ، وهيهات أن ينطفىء له ضياء ما دام في الناس أدب عرب وعشاق لأدب العرب .

ويا ليت شعري أيقوم في زماننا من يخلف ماري في الاتيان بالاجادات ومحبات القلوب أم ان فقدانها فترة للبدائع طويلة جداً ، ومن للناس ان يرزقوا القلم الذي كان في يدها ؟ من لهم بمعانيها حين تنشىء وبألفاظها حين تعرّب . مبتكر لها ، بين ادب واجتماع ، وعمران وافانين خيال ، وغرائب سير ، تتخلله السليقة كما يتخلل نَفَس الطيب غلاف الزهرة . ومعرب كأن الاصل فيه قد خرج من لغته وطفق يقول قوله بالعربية . ذلك الى اسلوب من ارفع الاساليب في العذوبة والرشاقة واحكام النسج . فانا بازاء هذه الاعلاق من الحلى التي يتزين بها جيد لغة العرب نستغفر الله من قولة عجمي وعجمية ...

وان الذي لم يرَ ماري وهي ماضية في الكتابة لم يرَ كيف يكون قِصَر الطريق بين القلم والدواة. شهدتها مرة في تلك الساعات الشهية فاذا بتينك العينين الواسعتين قد التمع سوادهما لمعاناً نديّاً، لو تقطر حروفاً لتألف منها في الصحيفة سطوراً أخرى، تأخذها سطور الحبر عناقاً وضماً... ثم شرع ذلك القلم الريان من غزارة المادة في جر السلسلات من الجزالة والرقة جراً تزاحم العبارة فيه أختها دون أن ألمح اعناتاً في الناظرين او تقبضاً في الجبهة كما يكون لمن يعاني اخراج الفكر من مغامضه الى بياض الورق.

ولولا ما كان لقلمها في الفترات من جس للفظة أو استدعاء لغرض بعيد على المعنى لظننت انه يكاد لا يتوقف. فكأن الالهام الكثير لا يحتاج الى الجهد الكثير.

أما الشعر فان ماري لم تجنح الى نظمه الا في بعض ما كانت تتحرك له نفسها في الاحيان من حب للايقاع وطرب النغمة، أو في بعض المخايل السامية التي يلوح فيها لطائفة من عيون البشر النادر العزيز من ملامح الاتصال بين الارض والسماء... وهي في النظم ماعرفت احتفالا ولا تمحلاً. فانما شعرها أشبه شيء بالزهر الزكي في جبالنا اللبنانية أيام الربيع يخرج اذ يخرج فلا يدري أحد كيف طلع من قلب الأرض.

وليس عجباً ان تكون العلاقة شديدة بين القليل الذي نظمته والكثير الذي كتبته، فانهما سُقيا من غمام واحد، هو الطبع وهو الذوق وهو رونق الفصاحة.

ولقد عنيت ماري فوق ذلك بالشعر المنثور أي النثر الشعري فكانت في جملة كتاب مهدوا من نحو من خمسين سنة لهذا النوع من الكلام وهو الذي صار يقال له، الشعر الحديث، والذي انحط سوبه في هذه الأيام الأخيرة. وان لماري في الشعر المنثور قطعا بلغت بها الغاية في التحجيب للمعاني، ومسح اللفظ بحجباتها مسحات ينفح بها نفحة اللامس لمداهن المسك.

هذه هي الفقيدة التي تحتسب فيها الضاد أجر الأم الثاكل والتي أسأل الله أن لا يكون فقدانها يتماً للأدب طويلاً.

- معرض فسيفساء رافين
- معرض جودة الهاشمي
- تحية الى عبد الهادي الجزار

يقدمها غازي الخالدي

معرض فسيفساء رافين RAVENNE

ان اجل هدية يقدمها متحف سرسق في بيروت حالياً للمواطنين العرب هي مجموعة نادرة لاروع فسيفساء في العالم ، عرف باسم فسيفساء مدينة رافين الايطالية في القرن الخامس .

(٧٦) لوحة من الفسيفساء ، بالحجم الطبيعي، نسخ طبق الاصل بالفسيفساء نقلت من ايطاليا الى بيروت تتراوح احجامهـــا بين نصف متر مربع واربعة امتار طولا وثلاثة امتار عرضاً .

ان مجرد التفكير بمشروع معرض من هـذا النوع يعتبر ضرباً من المغامرة، خاصة وان النماذج المعروضة منفـــذة بالفسيفساء بنفس الاسلوب ، ونفس الالوان، ونفس القياس المنفذة به اللوحات الاصلية الموجودة في كنائس وأديرة رافين.

ان الطريقة التقنية التي اتبعت في صنعهالوحات رافين الاصلية تجعلها تعكس مايقع عليها من النور مباشرة فيتعدد الاشعاع المعكوس الى الوان عديدة من الالوان المعروفة في الطيف الشمسي ، ويتجزأ اللون الواحد حسب اختلاف الوان الفصوص والاجزاء الصغيرة التي تتألف منها المجموعـــة الفسيفسائية ، خاصة وان هذه الجزئيات تكون صغيرة الحجم الى درجة الميليمترات المربعة .

وهي مزيج من احجـار الصوان والرمل والزجاج والمرمر وعرق اللؤلؤ ، لذلك عرفت بأنها تعكس النور بشكل باهر وهاج .

وبالاضافة الى هذا البريق الذي جاء من تعدد الخامات المستعملة وتعدد الالوان فان هناك عنصراً أساسياً هاماً في تحديد ملامح هذه الفسيفساآت

وهو الوحدة والتوازن بين عناصر الصور المرسومة في هذه اللوحات ، بحيث يشعر الانسان انه امام نسيج متكامل متضامن محبوك بين جميع الوحدات والجزئيات المرسومة ، سواء في وضع الاشخاص او في المناظر والاشياء الموجودة في اللوحات .

لذلك جاءت جميع روائع رافين ذات طابع واحد يوحي بالنفس الصوفية التي عاشها الفنان المؤمن آنذاك ، حتى ان معالجة الاشكال وطريقة الحلول التشكيلية المطروقة وخاصة الجزء البيزنطي الذي صنع فيما بعـــد ، كانت حلولاً متماسكة وذات شخصية واضحة ، ومرتبطة ارتباطاً كلياً بالمفاهيم الدينية التي تعتمد على التراتيل الرتيبة ذات الايقاع المتجانس ، الا ان هذا لم يمنع ايضاً من ميل بعض الاعمال الى الزخرفة والاسراف في استعمالها خاصة لوحة الامبراطورة تيودورا (٤٫٢٣٠ × ٢٫٢٧٠) متراً .

وهذه اللوحة بالذات تعتبر من اروع آثار رافين ، وتمثل تيودورا امبراطورة الشرق زوجة جوستينيانوس في عظمة مجدها مزركشة ، وقد استعملت الالوان الفيروزية الى جانب الالوان البنية ، لذلك يلاحظ هنا ان التضاد بين الالوان هو من ميزات فن مدرسة رافين ، ولوحـــة الامبراطورة تيودورا من مجموعة لوحات كنيسة القديس فيتال (اواسط القرن السادس) .

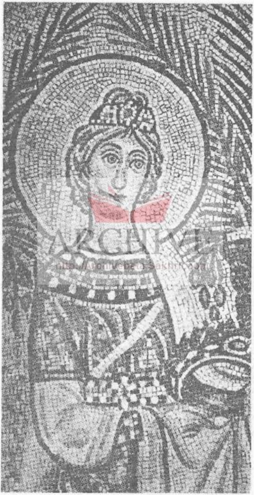
منها ايضاً لوحة البلاط الملكي حيـــث يظهر الامبراطور جستونيانوس في ثياب حمراء مع تاج مرصع بالذهب ومن حوله الجنود والوزراء ورجال الكهنوت ، وقـــد اتبع الفنان في رسم الوجه اسلوباً تعبيرياً خاصاً حيث الانف الدقيق المستقيم والعينان الكبيرتان الشاخصتان .

وهناك مجموعات اخرى كثيرة تحمل كل مجموعة منها اسم الكنيسة او الدير الذي وجدت فيه ، ففي مجموعة (ضريح غالاما سيدنا) نجد لوحات كبيرة من الفسيفساء فيها انسجام كبير في الالوان رغم آلاف الاحجار الصغيرة المرصوصة ، وترابط متين بين الاشكال ، ويلاحظ ان اللون الذهبي يتوسط اللون الازرق القاتم حيث يعكس هذا التضاد نوراً خاصاً ، لذلك كان لهذا الضريح اهمية خاصة وطابع خاص به . ومن اجل لوحات هذه المجموعة لوحة « الحملان تشربان » حيث يتدرج اللون الابيض في الحجم شكل تصويري كلاسيكي كأن احجار الفسيفساء وضعت بعد أن رسمت اللوحة على انها لوحة زيتية .

اما في مجموعـــة (بيت العماد) في الكنيسة الكاتدرائية فنلتقي مع مجموعة نادرة من الالوان البراقة ، الالوان هنا تتدرج من الاصفر الفاتح الى الاصفر الضارب الى الزرقة ، من الذهبي الصافي الى البنفسجي المذهب .

ومما يلفت النظر في لوحة القديس يعقوب في هذه المجموعة ، ان الطريقة التي اتبعت في رسم القديس تشبه اسلوب الفن الحديث من حيث الفهم المعماري والتبسيط العام للشكل . حتى اسلوب التعبير الذي يطل من وجهه ، اسلوب شاعري يوحي بالبعد والتفكير العميقين .

ان مجموعة (المعبد الاسقفي) - اوائل القرن السادس - نفذت بادق احجار الفسيفساء الملونة



عذراء في كنيسة القديس ابو لينير

بشكل خطوط خفيفة مؤلفة من فصوص حمراء قرمزية .

وفي مجموعة اخرى من كنيسة (القديس ابو لينير) نجد لوحات المسيح وخاصة لوحة آلام المسيح . والمهم في هذه المجموعة ان كل شخص من اشخاصها يختلف في حركاته وفي وجهه وفي ملابسه وفي الالوان المستعملة عن غيره .

ان من المميزات العامة لكل هذه اللوحات في هذه المجموعات المتعددة انها: غنية بالالوان متينة بالتراكيب متماسكة في الناحية التشكيلية ، تعطي تأثيراً خاصاً بالضوء وتتغير من شكل لآخر بمجرد تغير مكان الناظر اليها ، حتى ان النور لاينزلق عليها انزلاقه على المرايا ، بل يتجزأ وينقسم الى وحدات عديدة بقدر عدد وحدات الفصوص الفسيفسائية . على ان هذه الفصوص خشنة وليست ملساء ، إلا ان لونها هو الذي يعطي هذا التأثير الضوئي العجيب .

كم نتمنى لو تحاول وزارتنا ان تنقل هـذا المعرض الفريد من نوعه - وهو على بعد ساعات من دمشق - الى المتحف الوطني ، ليتاح للجميع ان يميزوا بين اعجاز الفنان ومهارته وصدق احساسه ، دون ان يفقده هذا التكنيك الآلي القاسي احساسه بالجمال والحياة والبهجة من خلال الانسان الذي يتحرك في لوحاته .

معرض جودة الهاشمي :

الذي لفت نظري في معرض ثانوية جودة الهاشمي ثلاثة امور هامة :

اولا : تركيز مدرس التربية الفنية (الفنان عيد يعقوبي) على النواحي التربوية واعطاء الأهمية الاولى في العمل الفني للخليقة الفنية وللسلوك الفردي للطالب .

ثانياً : وجود مستوى جيد فعلاً في الانتاج الى جانب وجود مستوى منخفض جداً يعرضان لاول مرة الى جانب بعضهما .

ثالثاً : ظهور العمل التعاوني كقمة للنشاط الفني في المدرسة .

أما بالنسبة للظاهرة الأولى فقد لاحظت ان المدرس يقرب منه مجموعة من انشط الطلاب واكثرهم فعالية وحيوية يختارهم من مجموعات كثيرة من الطلبة ، انه يصر على ان يكون الطالب جدياً في فنه ، غيرياً في أخلاقه ، تعاونياً في عمله ، ايجابياً في انتاجه وعلاقاته بزملائه ، لذلك نرى المجموعة الجيدة من اللوحات لمجموعة جيدة من الطلاب .

الظاهرة الثانية : لجأ اليها الاستاذ يعقوبي بقصد ابراز أهمية الروح الايجابية والتعاونية ومدى تفوقها على الروح السلبية والخلقية الفردية ، لذلك عرض مجموعة اعمال فنية متفوقة بشكل ظاهر الى جانب مجموعة فاشلة لتتم المقارنة بين التجربتين ، وليدرك الآباء والأولياء والطلاب انفسهم مدى خطورة السلبية والانعزال والفردية والاهمال .

أما الظاهرة الثالثة : وهي ظهور اعمال كبيرة تحمل اسماء كثيرة اشتركت معاً في التصميم والتنفيذ ، فتنم عن روح اشتراكية حقيقية يبرزها الفنان يعقوبي في روح طلاب ويعودهم على العمل



عائلة الفلاح لغازي بلال

الجماعي التعاوني الغيري وعدم التعلق بالنجاحات الفردية والانتصارات الخاصة الموقوتة .

ومن هذه الناحية كانت انجح الاعمال المعروضة، هي المجموعة من الطلاب ساهموا كلهم في العمل وبقدر مساو من الجهد .

ان المعرض تجربة نموذجية للتربية الفنية ، ومحاولة جادة لبذر روح المحبة والتعاون بين المواطنين عن طريق الفن ، وبالتالي خطوة لخلق جيل غيري مؤمن بالعمل الجدي الجماعي الناجح .

في المعرض اسماء كثيرة جديرة بالذكر منها: عبد السلام قدورة ، اتنبأ لهذا الطالب بمستقبل ناجح في التصوير لأن البوادر التي تظهر في لوحاته تؤكد هذا بلاشك ، خاصة وان الوحدة اللونية متوفرة في كل لوحاته .

عمر بازوباشي ، غياث غزال ، مفيد دقاق ،

اياد بقالة ، اشترك هؤلاء الطلاب في عمل جماعي كبير في محاولتين : احداهما نحت بارز بطريقة الورق المقوى ، والثانية لوحات معروفة لمحمود سلام وادهم اسماعيل ومحمود حماد تحولت على ايديهم الى لوحات من الفسيفساء بطريقة تكسير الزجاج الى قطع صغيرة ثم تلوينها بالالوان الزيتية فتعطي تأثير الفسيفساء .

اما الملاحظة التي لابد منها على هذا المعرض ، فهي كثرة الصور المنقولة ، لأن تشجيع هـــذا الاسلوب من اخطر الامور على احساس الطالب وشخصيته وموهبته حيث يجمد احساسه ويكرر غيره دون ان يترك فرصة لشخصيته ولابداعه بالظهور .

ان محاولة الابداع لابد ان تبدأ في سنة مبكرة لدى الطالب حتى تبدأ شخصيته بالتفتح والتطلع نحو التجربة الذاتيـــة التي هي المفتاح الحقيقي للموهبة الناجحة ، واكبر دليل على ذلك لوحات الطالب قدورة ، الذي حاول ان ينقل وحاول ان يرسم من ابداعه فكان ابداعه أروع بكثير من الاصول التي نقل عنها .

تحية الى عبد الهادي الجزار :

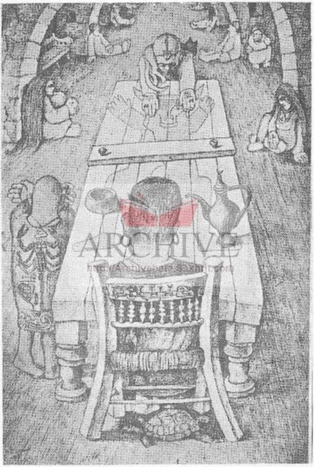
في السنة الاخيرة من دراستي في كلية الفنون في القاهرة ، في الايام الاولى من تلك السنة دخل قاعة المرسم في الكلية ، انسان نحيل ، على وجهه آثار تعب دائم ، وفي عينيه ملامح عذاب صامت ، يعيش في حدود العقد الرابع من العمر ، يتكلم بهدوء وبصوت منخفض وبحرارة وبصدق حتى تشعر وانت تستمع اليه كأنه صديقك منذ مدة طويلة من الزمن .

عشنا مع عبد الهادي الجزار المدرس سنة كاملة ، وعشنا مع عبد الهادي الجزار الفنان خمس سنوات نتابع اعماله الواحدة بعد الاخرى ، ونرى في تجاربه الاصالة والعمق والاحساس الصادق الذي ينبع من نفسه الخيرة التواقة لكل قيمة جمالية انسانية خالصة .

ولد عام ١٩٢٥ ، وعاش حياة بسيطة في احياء القاهرة الشعبية ودرس الفن في كلية الفنون في القاهرة ، وتابع دراسته العليا في اوروبا ثم عاد مدرساً الى نفس الكلية التي تخرج منها ، وتابع تجاربه الفنية من خلال احتكاكه بالناس وحياته معهم فكان يعبر عن اعمق مشاعر الانسان ، الانسان الذي يهرب من نفسه ، يهرب من المجهول ، يهرب من المستقبل ويرتمي في احضان الشعوذة والتعاويذ والسحر والاساطير ، فكان اسلوبه سيريالياً تعبيرياً من خلال الواقع ، فأعطى مجموعة لوحات شعبية فيها الصورة الحقيقية للوجه الثاني من الحياة .

ثم انتقل الى مرحلة تجريدية وبتجربة خاصة به ، ومارس احساسه بصدق ونال أخـــيراً جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٥ ، ومثل بلاده في اكثر المعارض الدولية ، ووضع عدة مشاريع فنية للمستقبل ، وخطط لمجموعة من الاعمال الكبيرة ، ولكن الجزار لم يستطع ان يقول كل مايريد ... فقد سبقه المرض المضني ثم الموت القاسي الى قول الكلمة الفصل .. وانتهت حياته في ٧ آذار ١٩٦٦ .

تحية الى استاذنا الفنان ، تحية وفاء .. واعجاب !



(المستقبل) للفنان الراحل عبد الهادي الجزار

تاليف : برنارد شو
اخراج : محمد الطيب
نقد : عدنان بن ذريل



مشهد من مسرحية تلميذ الشيطان

افتتح (المسرح القومي) دورته الربيعية، لموسم هذا العام ، بمسرحية — تلميذ الشيطان — لجورج برناردشو، واخراج محمد الطيب؛ فكانت باكورة ناضجة ، وهدية ربيعية ، من المخرج ، والممثلين، الى جمهور الفن، والأدب، في سورية..

وقد سبق أن قدم (المسرح القومي) لبرناردشو ـ رجل الأقدار ـ باخراج هاني ابراهيم صنوبر؛ كما أن ندوة الفكر والفن كانت قدمتها على المسرح العسكري ، باخراج رفيق الصبان.

وسبق لي أن شاهدت مسرحية ـ تلميذ الشيطان لبرناردشو، على (المسرح العسكري)، في اسبوع الجامعات، وباخراج نور الدمرداش؛ والذي كان حشد لها طاقات قوية ، وعني فيها بالديكور ، والأثاث ، والالبسة ، والاضاءة ..

وعندما شاهدتها ، أمس ، على (مسرح القباني) ، لاحظت أن (الديكور) ، والاثاث، والالبسة ، والاضاءة ، وأيضاً الحشود ، قد قننت فيها تقنيناً كبيراً ، ذهب بقسط كبير من رونقها ، او ايحائها .. ولعل السبب هو صغر (المنصة) في مسرح القباني ، وعدم اتساعها للحشود الشعبية ، او تفاصيل (الديكور) ، وأنواع الاثاث ؛ مع أن (التوسع) ، والتبسيط قدر المستطاع في ذلك، خير من التقنين، والاختصار..

وتجري المسرحية في مدينة ـ ويستر بريدج ـ التابعة لولاية نيو انجلند ، في أمريكا الشمالية .

و(الزمان) فيها هو شتاء عام ١٧٧٧ ميلادية.

وتتسلسل أحداثها في منزل ـ آل دادجيون ـ (الفصل الاول) ؛ ثم في منزل ـ القسيس اندرسون ـ (الفصل الثاني) ؛ ثم في قاعة المجلس العسكري ، فالطريق العام ، فالميدان العام ، أي أن (الفصل الثالث) يحوي على ثلاثة مناظر متتالية، ومتنوعة ايضاً ..

ويقوم (موضوع) المسرحية على حادثة تروى عن حرب الاستقلال الامريكية ، ضد الانكليز، عام ١٧٧٧ ، من تقديم أحد الفتوات والاشقياء نفسه الى حبل المشنقة ، بدلاً من قسيس المدينة ، الذي يطارده الانجليز ؛ فيبادر القسيس فوراً الى الاتصال بالثوار ، واشعال نيران الثورة ، واضطرار الانجليز الى التراجع ، واخلاء سبيل الشقي المرهون عندهم ..

(الموضوع) اذن موضوع ثوري وشعبي ؛ وهو موضوع سردي ؛ له بداية ، وعقدة ، وتأزم ، ثم حل .. الا أن المؤلف آثر للمسرحية عنواناً معبراً تقريبا من فنيته المسرحية ، وتمثله البطل المسرحي ، وهو (الكنية) الشعبية ، او النعت الخلقي ، الذي عرف به هذا الشاب الشقي، الذي ينقذ قسيس المدينة ، ثم المدينة من ظلم الانجليز ، وهو ـ تلميذ الشيطان ـ ..

والحق ، أن الجانب (التحليلي) ، الصريح ، والجريء ، لخلق هذا الشاب الشقي ، هو الشيء البارز الذى يلفت النظر في فصول المسرحية .. وبواسطته يظهر الخلق الشاق ، والوجه الذي له ، وتتلمذ على الشيطان : تسكعه ، فجوره ، معاشرته اولاد السوء ، تهريبه الحشيش والأفيون.. حتى أن وضع نفسه في مكان القسيس هو نتيجة لتهوره الشيطاني ، كما يقول ، وعدم اكتراثه ، وحبه للمغامرة ، وهو بالاحرى حب التفائل بالحياة ..

(مفارقات) صادقة ، وحية ، من الحياة ؛ نصادفها بين الفينة ، والفينة ، في الحياة ..

(مفارقات) وعرة ، تتحمل عملاً مسرحياً ضخماً ، متكاملاً ؛ فيه السرد ، والتفنيد ، والتحليل ، والسخرية ، والفكاهة ، والانتقاد.. وهي (الميزات) التي تؤثر عادة على مسرح برناردشو ..

(العمل المسرحي) مثير حقاً ، وشيق ؛ ولكن طرافته أنه ينتهي بالانتصار ، انتصار أبيض ، وسعيد ..

و (الشخصيات) غريبة حقاً ، بل شاذة ؛ ولكنها من (واقع) الناس ، وواقع الثورات ..

واذا كانت (العبرة) من الموضوع ، هي غلبة الخير على الشر ، في النفوس ؛ أو انتصار الحق على الباطل في الحياة .. فقد كان للصدفة ، مع ذلك ، عامل كبير في ذهنية المسرحية ..

ذلك أن هذه النتائج ، بما فيها (الانتصار) ، جاءت وليدة الصدف ؛ ولا سيما قدوم (الجنرال المدلل) ، كما يسميه المؤلف ، وتدخله ، في المحاكمة ؛ أو وجوده في المدينة ، وقبوله المفاوضة مع الثوار ، ثم اخلاء سبيل الشاب الشقي ..

أخرج المسرحية محمد الطيب كما قلنا ؛ فراعى ذهنيتها الواقعية ، التحليلية ، والشعبية ؛ وكان (انتقاؤه) للممثلين فيها صائباً ، ودقيقاً ، وملائماً ؛ بحيث كانوا لائقين لأدوارهم ، مندمجين فيها ؛ وقد قام المخرج (الطيب) نفسه ، بدور هام فيها ، هو دور (الجنرال المدلل) على حد تعبير المؤلف ؛ فأداه ببساطة ، ودلع ظاهر ، نمّا عن فهم للنص ، وجهد ملائم مع أبعاده النفسية ، ومراميه الذهنية ..

كان (التمثيل) حقاً من مستوى جيد ؛ بحيث أن كل ممثل في الفرقة كان يعطي من نفسه ، ومن عندياته .

أعطى (هاني الروماني) في دور الشاب الشقي دادجيون ، في حركته الطبيعية وأدائه المعبر وتلوينـــه الصوتي ، الكثير من نفسه ؛ وحقق (عصام عبجي) في دور القسيس أندرسون ، مستوى مرضياً ..

في حين أعوزت (هيلدا زخم) ، في دور زوجة القسيس ، و (لينا باتع) في دور والدة دادجيون ، في بعض (اللقطـــات) ، الروية للواقعية التأمليـــة برغم اتقانهما دوريهـــما . وكذلك (فايزة شاويش) التي كانت في بعض المواقف أشبه بتأملة ، لاترفع نظرها عن الأرض ..

أما (الطريقة) الايمائية الساخرة ، في (الأداء) المنغم ، أو (الحركة) الكاريكاتورية ، التي أدى بها (ابراهيم كردية) دور المحامي عند قراءة الوصية ، فموفقة وصائبـــة وتلائم (ذهنية) المسرحية الواقعية الساخرة ، والمتفائلة ..

ورغم أن (بشـــار القاضي) ، في دور الشاويش المرتشي ، تفوق تفوقاً كبيراً ، وأدى دوره بكل تناقضاته ؛ الا أن ضيق المكان ، على مايبدو ، وعدم توفر (الحشود) اللازمة للمنظر ، قللا من رونق الدور .. أما (ياسر العظمة) في دور كرستي أخي دادجيون ، فقد خانه الحظ هذه المرة في المســـرحية ، فلم يستطع أن يؤدي دور (الأبله) المعتوه ، وانما كان يؤدي بالأحرى دور (الظريف) الدلع ، ولعل ذلك لتصرفه الزائد بحركات وجهه ويديه ، وبلهجة صوته ، وخروجه فيهـــا عن ارشادات المخرج . والى اللقاء في عرض مقبل ..

- أحاديث العشيات .. للدكتور عبد السلام العجيلي
- قال الراوي .. لالياس فرحات
- العراق في الشعر العربي والمهجري .. للدكتور محسن جمال الدين
- النفاحة في النحو والمباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين .. لكوركيس عواد
- من وحي السفر .. لناجي جواد
- تاريخ المشعشعين وتراجم اعلامهم .. لجاسم حسن شبّر
- السيف والسفينة .. لعبد الرحمن مجيد الربيعي
- النغم الازرق .. لحسن عبد الله القرشي

أحاديث العشيات

لم يشتهر الدكتور عبد السلام العجيلي بقصصه وحسب ، وانما عرف ايضاً بمحاضراته وأحاديثه المذبة في منتديات السمر. وانتخبت وزارة الثقافة تسعة من هذه الاحاديث نشرتها في كتاب في ١٥٦ صفحة . وهذه الاحاديث منوعة في مواضيعها تتجاذبها شخصية الطبيب الاديب ، فالعلمية منها صيغت باسلوب ادبي رفيع ، والادبية لاتخلو من أثر الخبرة العلمية . الحديث الاول في كتاب (أحاديث العشيات) هنا عنوانه (متمردات وزاهد .. نماذج انسانية من تاريخنا العربي) ، المتمردان هما الفارس الاموي ابن ظبيان والشاعر يزيد بن مفرغ الحميري وأما الزاهد فهو الشيخ القرشي ابو السائب المخزومي ، وفي حديث (من تاريخ البوادي العربية .. غزو الجزيرة) يروي حكاية عشائر شمر . ولاحاجة لبيان موضوع (متعلمون وعلماء) . اما الدولة التي تحدث عنها في (تاريخ دولة مجهولة) فقد اقامتها عشيرة عربية بين الخابور والبادية رغم انف الاستعمار سنة ١٩٢٠ . وفي (مدينة للغد) يتحدث عن برازيليا . وفي حديث (كلية الام ... وكلى غيرها) يقدم المعلومات العلمية في قالب مأسوي. ثم يتلو الدكتور العجيلي في (اسأل المجرب)

رسالة يفترض انها ارسلت اليه قبل استلام الوزارة ولكنها وصلته بعد استلام الوزارة فلم يستفد مما فيها من نصائح. وفي (قبل ان تزول الصور) يتحدث عن القيم التي يخشى زوالها، ويختم الكتاب بحديث (الاديب : ماذا يكتب ؟ ولمن يكتب؟)

قال الراوي

الراوي شخصية شعبية ، في ذهن كل منا بقايا من حكاياها ، من اساطيرها وعجائبها ... لكن الشاعر المهجري الياس فرحات في كتاب (قال الراوي) يقدم نفسه . أهله . طفولته شبابه .. وأبرز أحداث عمره . ويقص علينا خبر رحلة صيد مليئة بالمشاهدات والحوادث .. مسرحها ضفاف الارغواي في البرازيل ... ويمتاز هذه الحكاية قبل كل شيء ، بطلاوة اسلوبها وطرافته وعفويته ايضاً .. صدر كتابه (قال الراوي) عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في ١١٧ صفحة من القطع الكبير .

العراق في الشعر العربي والمهجري

جمع الدكتور محسن جمال الدين الأستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد في كتاب (العراق في الشعر العربي والمهجري) ماقاله في العراق الشعراء العراقيون وغير العراقيين ممن زاروا العراق أو لم يزوروه . وحاول في هذه الدراسة أن يبين شعور العرب نحو إخوتهم في العراق ، مقتصراً بذلك على العصر الحديث ومختاراً النماذج من نتاج الشعراء البارزين ، دون أن يبخس الذين عبروا عن شعورهم نثراً او خطابة ومقالة قدرهم . وبعد أن افتتح الكتاب بالشاعر المهجري حليم دموس، عقد المقارنة بينه وبين الزهاوي ، ثم أخذ يتنقل بين وادي النيل وغوطة سورية وشوامخ لبنان وضفاف الأردن وفلسطين وهضاب المغرب العربي وبحيرات السودان وشواطىء الكويت والجنوب العربي وجبال اليمن وكثبان نجد ودنيا المهجر . ولم يقصد من تسمية الكتاب وقف العروبة على المقيمين ، فهو لا يشك في عروبة المغتربين ، ولكن ماحمله على التسمية تميز أدبهم بطابع خاص ومدرسة شعرية معروفة .

التفاحة في النحو والمباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين

أصدر المجمع العلمي العراقي في بغداد، في مناسبة انعقاد مؤتمر (مجمع اللغة العربية) في العام الماضي، كتابين ألف الاستاذ كوركيس عواد أحدهما وحقق الآخر . أما الذي حققه فهو كتاب (التفاحة في النحو) للباحث المصري أبي جعفر النحاس النحوي المتوفى سنة ٣٣٨ هـ . فقد وجد مخطوطته في خزانة معهد الدراسات الاسلامية العليا ببغداد تحت رقم ٢٢٠ وعنوان (كتاب التفاحة في النحو) . ولم يعثر الاستاذ كوركيس على نسخة ثانية من هذه المخطوطة فيما وقع بيديه من « فهارس المخطوطات العربية » في خزائن كتب الشرق والغرب .

تقع المخطوطة في ١٥ ورقة تضم ٣١ باباً من أبواب النحو ، مهد لها الاستاذ عواد بمقدمة عن المخطوطة والمؤلف فبلغ الكتاب ٣٠ صفحة .

أما الكتاب الذي ألفه الاستاذ عواد فهو (المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين المحدثين ١٨٠٠ — ١٩٦٥) . وقد اثبت فيه أسماء الكتب المطبوعة والمخطوطة التي ألفها الباحثون العراقيون منذ مطالع القرن التاسع عشر من معجمات لغوية ومعجمات مصطلحات العلوم والفنون والحضارة وما ألف في فقه اللغة العربية ومفرداتها وفلسفاتها وتاريخها والصرف والنحو وعلوم البلاغة والعروض والقوافي والخط والاملاء والكتابة والطباعة وتيسير اللغة وتدريسها . ولم يقتصر على رصد المعاجم والكتب المؤلفة عن اللغة العربية وبها . وإنما أضاف اليها ما ألف عن اللهجة العامية واللغات البابلية والآشورية والسريانية والكلدانية والآرامية والعبرية والفارسية والكردية والتركية والانكليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والشبكية والتاجيكية ومما الفتان ح ودنا الاستعمال في العراق . وشمل هذا ما ألف عن اللغة العربية وهذه اللغات باحدى هذه اللغات .

وحرص الاستاذ عواد على ذكر اسم المؤلف الى جانب اسم الكتاب حسب ما اشتهر به اسم المؤلف، وسنة ولادته ووفاته والمدينة والسنة التي طبع فيها الكتاب وعدد أجزائه وطبعاته وصفحاته ما أمكنه ذلك . وألحق بالكتاب ثلاثة فهارس هجائية اولها باسماء الاشخاص وثانيها باسماء الكتب والمجلات وثالثها بالمراجع الانكليزية والفرنسية .

و (المعرفة) تشكر الاستاذ كوركيس عواد على اهتمامه بحفظ التراث اللغوي العربي ودقته في تحقيق (كتاب التفاحة في النحو) ومسح المؤلفات في العلوم اللغوية .

من وحي السفر

ولد الأستاذ ناجي جواد ونشأ في بغداد وانهى دراساته في كلية الحقوق فيها جنباً الى جنب مع عمله اليومي . ونشأت عنده على مر الأيام رغبة شديدة في السفر . ثم سنحت له الفرصة فسافر مرات عديدة اجتمعت له فيها خبرة بشؤون الحياة سجل بعضها في كتابه الأول (رسائل من الهند) ، واستمر منذ سنين بنشر المقالات والرسائل التي توحيها له أسفاره المتعددة بين الشرق والغرب . وفي كتاب (من وحي السفر) الذي نشرته (مطبوعات إيانا) ببغداد في ٢٠٨ صفحة ، يبدء الاستاذ جواد بفصل عن السفر ، يتبعه برسالة من استانبول يصف فيها قصورها ، وأخرى من فيينا تحمل موسيقاها حتى يصل بنا الى معرض بروكسل وبيتغوته . وفي هولاندة يرافق أسرة كندية الى مدينة كاملة قرب لاهاي ترى نفسك فيها أعلى من أي بناء ، وخلفها قصة ثري فقد صغيره بالسل الرئوي ، فانشأ هذه المدينة وأوقف ريعها السياحي على علاج المسلولين . وقالت زوجة الكندي: « إن النفوس المجبولة على الخير والفضيلة تجود بالبركة حتى في الشدائد والنكبات » وأجابتها زوجة المؤلف : « ان العود الطيب اذا ما احترق يجود بالعطر والبخور » فنادت الكندية زوجها: « أصغ الى فلسفة الشرق » .

ويمضي بنا المؤلف الى أثينا والأكروبوليس

والسويد وبيت النحات كارل ميلز ، ولبنان وكفر شيا وناسك الشخروب ميخائيل نعيمة .

تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم

المشعشعيون فرقة من الشيعة تنتسب الى علي بن أبي طالب، نشأت دولتهم في عربستان سنة ٨٤٤ هجرية أي بعد سقوط بغداد على يد هولاكو بـ ١٨٨ سنة هجرية. وامتد نفوذ دولة المشعشعين العربية الى اغلب المناطق الايرانية واستولت على البصرة وحاولت الاستيلاء على بقية أجزاء العراق حتى وصلت الى أسوار بغداد بعد ماضربت المواقع الحربية التـــابعة لدولة المغول في واسط العراق والنجف والحلة وبغداد .

ولم يعرف شيء عـــن تاريخ الولاة الذين حكموا خلال الفترة الواقعة بين المولى مطلب بن فرج الله والمولى مطلب بن نصر الله ، مثل المولى جود الله واسماعيل وعبد علي وفرج الذي حكم من سنة ١٢٥٧ الى ١٢٦٣ هـ . ونصـــر الله ومحمد وغيرهم .

ولا توجد مصادر عربية يعول عليها سوى بعض المخطوطات التي ذكرت نهاية حكم المولى مطلب بن نصر الله وهو آخر من حكـــم من المشعشعين ، وقد أورد قسماً من حياته معاصره جعفر بن محمد الأعرجي المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ. في كتابه (مناهل الضرب في أنساب العرب).

قام الأستاذ جاسم حسن شبّر ـ من أحفاد محمد المهدي المشعشعي جد المشعشعين ـ بتـــأليف كتاب (تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم) تناول في القسم الأول منه تاريخهم من بداية حكمهم الى نهايته وذكر الحاكمين منهم على وجه التعاقب وما حـــدث لهم من الوقائع الهامة في عربستان والعراق ، بينما تناول في القسم الثاني بقية تراجم أعلامهم وما اتصفوا به من الناحية العلمية والأدبية مع ذكر أهم القضايا المتعلقة بأحوالهم الاجتماعية .

يقع الكتاب في ٣٠٣ صفحة، ويتضمن شجرة آل المشعشع حتى الامام علي ، وقـــد ألحق به فهرس الأعلام وفهرس الأمكنة والبقاع والمدن والأنهر وفهرس الشعوب والقبـــائل والأسر والبيوت .

السيف والسفينة

صدر للفنان العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي مجموعة (السيف والسفينة) وهي تتضمن احدى عشرة قصة قصيرة في ١٠٩ صفحة ، والقصص هي : (الصوت المقيم) و (ظلال اللحظات) و (العين) و (موت الجفاف) و (حفرة حيث لا اقار) و(السيف والسفينة) و(الازمة والسراب)و (صفحة من المقعد الخلفي)و(الوفاء وتراب الكهف) و (حكاية جواد باشا) و (الكلب) . من المتوقع ان يكون لهـــذه المجموعة صدى في الاوساط الادبية . القصص عبارة عن اتهام يوجهه الفنان الربيعي لنفسه وللأشياء التي احياها في اسلوب متجاوز للواقع اختطه لقصصه كما اختطه لرسومه وسط التلاطم الجديد من الاساليب والافكار التي وجد نفسه فيه ، وهو يساهم بدفع قافلة الادب في العراق في طريق

جديد ، وكأنه يبحث عن الكلمة فتأتيه بيسر محبب ، فهو قاص يجدد له مكانته ومرحلته أيضاً في حركة وتقدم فن القصة في العراق . وقد أراد في هذه المجموعة أن يحتج على نفسه وعلى الآخرين وينتصر بفخر لينتصر من خلاله الجهد الذي تقوم به آلاف الأيدي التي تحاول ابعاد الطفيليات وازاحة العقبات واعلاء صوت الحق ليصبح الطريق صاخباً وعادلاً والمستقبل مشهوداً .. فهذه القصص حصيلة مرحلة مساومة حاول فيها الفنان أن يشهد النـــاس على انعتاقه من تفاهة الانسان الفرد وضحالة قضيته . يقول الفنان : « اليوم بت أريد أن أكون بوقاً تمر بي الأصوات لا أن أكون نافخاً أملك لحني وحدي الذي قد يجد فيه الآخرون نشازاً يمزق آذانهم ... »

النغم الأزرق

صدر في منشورات دار الآداب بيروت مجموعة (النغم الأزرق) للشاعر الحجازي حسن عبد الله القرشي في ١١٠ صفحة ، فجر فيها عواطفه في ٢٢ قصيدة ، أولاها في ظلال البوسفور وثانيتها في رومة حتى يسبح في وادي المنى ذاهلاً وينتشي بالنغم الأزرق ويعيد نظم (الشمس وقطرة الندى) قصيدة طاغور التي عربها الدكتور بديع حقي . ثم ينتقل الى الهوى السحري ويناجي تلك التي رأى فيها الحياة ويعبر عن اخلاصه لمن ثارت في وجهه ويهيم لحناً ثم يرى ابنته الصغرى . ويبرأ من جاحدة.

ثم نراه ينتقل الى فلسطين فيغني لها . ثم يرى عمره وقد أخصب وينتظر ويقرأ رسالة ويتأمل صورة ويرى الربيع في بسمة أطفاله ويسمع سعال الليل وينهل من عصارة الألم ويعبر عن قلقه ويصف صورة زوج أشيب وأخيراً يقول لطفلة :

تطلّعي للأفـقِ المسـحورِ
في نظرة مبهورة الشـعورِ
سابحـــة في كونك الصغير
باوردة ملأى من العبـــير
وبسمة نشـوى من الحبور
ونغمة نشـــاب في الضمير
ورفرفي في الروض كالطيور
فراشة فرحى من الزهور
حالمـــة بعـــالم طهـور
مشعشع من أرج ونـــور



بطلة (المماليك) ومخرج (والد الجندي)
في حفلة افتتاح اسبوع الافلام السوفييتية

بمناسبة عرض الأفلام السوفيتية في المهرجان الذي أقامته المؤسسة العامة للسينما ، عقد الفنانان ليَّا إليافة بطلة فلم (المماليك)وريزو تشكيئيدزيه مخرج فلم (والد الجندي) مؤتمراً صحفياً في المركز الثقافي السوفيتي بدمشق . دارت المناقشة حول الاسلوب الواقعي المتبع في اخراج الافلام السوفيتية . وسيقوم الفنان تشكيئيدزيه باخراج فلم (بعيداً الى الغرب) الذي يصور نضال

٦٠٠ أسير روسي في جزيرة ما بالتعاون مع أفراد يمثلون جميع الشعوب .

● وصل الى دمشق وفد يمثل اتحادالكتاب السوفييت . يتألف الوفد من المستشرقة إيلينا ستيفا نوفا والكاتبأناطولي بوتشاروف ومعاون رئيس تحرير مجلة الاتحاد السوفيتي ، أعدت لهما وزارة الثقافة برنامجاً للمحاضرات والندوات وزيارة الأماكن الأثرية . عقدا في ٣ أيارندوة

صحفية في المركز الثقافي السوفييتي بدمشق ، ويعقدان ندوة عن (الادب العربي في الاتحاد السوفييتي) في المركزين الثقافيين العربيين في كل من اللاذقية ودمشق ، ويجتمعان بأدباء حلب ، ويلقي الكاتب السوفييتي محاضرة عن (الموضوعات الكبرى في الادب السوفييتي المعاصر) في المركزين الثقافيين العربيين في كل من حلب وحمص ومحاضرة عن (مايا كوفسكي ، شاعر الثورة) في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● القى الاستاذ أندره بارو عضو المجمع العلمي الفرنسي ومفتش متاحف فرنسا ، محاضرة باللغة الفرنسية في القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق ، عن قصري مدينة ماري من العصر ماقبل السارغوني . رافق المحاضرة عرض بالفانوس السحري .

● القى المؤرخ جورج دوبي مدير جامعة المتوسط الصيفية محاضرة باللغة الفرنسية عنوانها (آفاق جديدة في البحث التاريخي) ، في المدرج الثاني في كلية الآداب بجامعة دمشق . وفي هذا العدد مقابلة للأستاذ احسان الهندي معه .

● ألقى الدكتور جورج فنترل مدير مؤسسة توماس مان التابعة للمجمع العلمي الالماني في برلين ، محاضرة باللغة الفرنسية عن آثار الأديب الالماني توماس مان ، في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● ألقى الدكتور ابراهيم الكيلاني في الندوة الثقافية النسائية ، محاضرة عن مربي الجيل محمد البزم .

● القى الاستاذ بشير صادق في نادي جمعية الرابطة الاخوية بحمص محاضرة عن (أثر الدعاية والدبلوماسية في قضايا العرب) كانت المحاضرة ضمن الموسم الثقافي ٦٥ - ٦٦ الذي أعدته وزارة الثقافة .

● أحيت فرقة أمية القومية للفنون الشعبية حفلة فنية تكريماً للوفد الثقافي الصيني .

● عرض في المركز الثقافي العربي بدمشق فلم ثابت ملون أعده الباحث الاثري جبرائيل سعادة عن انطاكية واللاذقية وافامية وسلوقية ، ورافقه بشرح مسجل ، وقدم له بكلمة قومية . سيناريو الفلم الثابت يصلح أساساً افلم سينمائي يمكن أن تنتجه المؤسسة العامة للسينما .

● القى المهندس حمدي الرفاعي مدير الهيئة العامة للبترول ، محاضرة عن استثمار النفط في سورية ، في النادي العربي .

● القى الدكتور غسان الرفاعي في المركز الثقافي العربي بدمشق ، محاضرة موضوعها (الحيانة والميتافيزيك) .

● القى الدكتور خالد الصوفي في المركز الثقافي العربي بدمشق ، محاضرة عنوانها (من المدينة المنورة الى مدائن صالح) ، رافقها عرض ملون بالفانوس السحري .

● أقيم في المركز الثقافي العربي بدمشق معرض للطوابع التذكارية الحجرية .

● عرضت في المركز الثقافي العربي بدمشق ثلاثة أفلام يابانية هي : (يوم مع عائلة يابانية) و (الرقص الفولكلوري الياباني) و (اسبوعان في اليابان) .

● افتتح في المركز الثقافي العربي بدمشق معرض الرسم الزيتي للفنان مروان شاهين .

● قدمت السيدة إلفة الادلبي ثلاثاً من قصصها في نادي رواد الفكر ، والقصص هي (قضية خاسرة) و (عاد إنساناً) و (كان سيء الخلق) .

● أصدرت دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) للبطل الثائر الأمير عبد القادر الجزائري وقد حققه وقدم له الدكتور ممدوح حقي ، ويقع الكتاب في ١٦٧ صفحة . كما صدر عن الدار كتاب (نقد العقل العملي) للفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت ، ترجمة الأستاذ أحمد الشيباني ، وكانت الدار قد اصدرت كتاب (نقد العقل المجرد) للفيلسوف كانت ، ترجمة الاستاذ الشيباني .

★



جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

الأهداف الاجتماعية في التخطيط الديموقراطي — قضايا العوز وقضايا عدم التكافؤ — كيف امتد سلطان الدولة الى مرافق شتى — الحرص على مباذهة الفرد في ظل الامتداد الجماعي .

-٣-

تتركز الاهداف الاجتماعية في تخطيط الدولة الديموقراطية حول مجموعتين رئيسيتين : الاولى مجموعة العوز . والثانية مجموعة عدم المساواة .

ففي المجموعة الاولى ، ترد قضايا أهلية عامة ، يوليها جهاز التخطيط عنايته بحسب أولوياتها المقررة لها . في زمن ما ، ومكان ما . وأهمها قضايا : ١ ـ الاسكان ٢ ـ والتعليم بمختلف اختصاصاته ، ودرجاته . ٣ ـ والصحة ـ ٤ ـ وتنظيم العُطَل وأوقات الفراغ ـ من الرياضة والسياحة الشعبية، ومعسكرات الشباب، إلى الحدائق العامة، ومرافق الاصطياف، واستقبال الجماهير في منشآت الهواء الطلق من ساحلية وجبلية ، في المدينة وفي القرية ... الخ الخ . . ٥ ـ والتجهيزات

والمساعدات الاجتماعية الثقافية ـ كنشآت مساعدة الأسرة ، والطفولة المشردة ، والشيخوخة ـ وكبيوت شبيبة العمال ، للرياضة والثقافة ـ ٦ ـ ومرافق المواصلات الأساسية كالطرق والهاتف .

وفي المجموعة الثانية ـ ترد قضايا أكثر خطورة ، في شتى مجالات الظلم الاجتماعي ، وعدم تكافؤ الفرص . وهي أكثر خطورة لأنها أكثر تعقداً وملازمة لنظام الحرية الفردية. ولأن معالجتها لا تجابه مجابهة ، كما في مجموعة العوز ، بإمكانات واسعة او ضيقة ، بل لا غنى عن الذهاب عمقاً الى منابعها، الى النظام السائد بالذات، الذي يمنح المواطن الفرد حريته من جهة، ويبيح سحقه، باسم الحرية، من جهة ثانية.

ان قضايا المجموعة الأولى ، غدت في صلب التخطيط الديموقراطي ، قضايا ذات اولويات متفاوتة، بحسب قرع الحاجة اليها. وغالباً ماتكون الموازنة العامة ، سبيلاً الى معالجتها ، وفاقاً لخطة مرسومة خلال سنوات خمس او أكثر . ولا تقتضي معالجتها أكثر من دقة وخبرة في انجاز مسح جغرافي بشري ، يرصد العوز في مواطنه ، ثم يضعه أمام وسائل تنفيذ قادرة ، وطاقات انفاقية ملائمة. وقد لا تلقى المعالجة هنا، مقاومة من الوسط الاجتماعي السياسي ، لأن القضية الاجتماعية ، قد فرضت نفسها عليه فرضاً لازباً . ويمكن ان يتم تنفيذ التخطيط الاجتماعي ، في هذه القضايا بيسر مرحلي، بقدر ما في الدخل القومي من سعة وفيض ، وبقدر ما في جهاز التخطيط من كفاءة ، وعلم .

وأما في المجموعة الثانية ـ فان القضية مختلفة كل الاختلاف من حيث طبيعتها، وبالتالي من حيث اسلوب معالجتها . فهي هنا ترتبط بالنظام السياسي نفسه ، لا بطاقته التكنولوجية أو الانفاقية . ففي ظل النظام الفردي المطلق ، يزداد الغني غنىً ، والفقير فقراً. وان لم تسلم النظرية الليبرالية ، بهذا التناقض ، فان الواقع يؤيده فيما آل اليه النظام الليبرالي . أو الرأسمالي، من فحش في الفوارق الاجتماعية، وغبن لأكثرية الناس ، لمصلحة اقليتهم .

ويبلغ الغنى حده اللاانساني عندما يتحول من عدم التساوي في الثروة والدخل ـ ومما قد يهون امره احياناً ـ الى عدم التساوي

في شروط الحياة عامة ، كشروط المولد ، ونوع التعليم ، والوقت السانح ، مثال ذلك ان ابناء العمال والفلاحين ، بالقياس مع ابناء المالكين ، ورجال الادارة ، لا يستطيعون بحكم تشكيلهم الثقافي والاجتماعي ، أن يساعدوا ابناءهم مساعدة فعالة ، للنهوض بمستواهم . ومعنى هذا ان عدم المساواة ، كالارث تماماً ، ينتقل من الآباء الى الابناء . فاذا اضفنا الى ظلم هذه الشروط للانسان الحديث انسحاقه الكلي تحت ايام العمل ، وتزايد الحاجات ، وتباعد المسافات بين البيت ومقر العمل ، واذا اضفنا ايضا ، خروج المرأة الى طلب الرزق ، تحت قرع الحاجة ، واهمالها تربية العائلة ، واذا اضفنا ازدحام صفوف التعليم ، واستغراق المعلم ، وضياع الطالب ، وثقل برامج التدريس ، التي لم تتطور ، حتى في ارقى البلاد الديموقراطية ، بتطور شروط الحياة والعمل – ادركنا أي مواطن جديدة يشكلها عدم التكافؤ ، لتزيده قساوة وجوراً على الرازحين تحت شروط عملهم ورزقهم ، فيبقواهم وذرياتهم الى الأبد ، في حدود الطبقة الرسوبيّة .

كذلك يبدو عدم التكافؤ ، في امكانات حصول الناشئة العمالية والفلاحية في بعض المدن والأرياف النائية – على الترقيات المهنية والاجتماعية ، برغم توافر هذه الامكانات ، توافراً فردياً بالعلم والتقنيات الحديثة ، وليس ثمة بعد ، من تنظيم اجتماعي واقتصادي ، يتيح لهؤلاء المبعدين أن يجربوا حظوظهم في خدمة الجماعة . فالحيلولة دون (تجربة الحظ) شرط قاسٍ من شروط العمل ، يكاد يكون كحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومن مظاهر عدم التكافؤ ، صعوبة الوصول الى نوع من شروط الحياة ، يؤهل العائلة للتفتح في فسحة العيش ، ولا تساق شروط السكن ، في المدن الاوروبية المزدحمة ، كمثال على قساوة الغبن وفحشه . وما يقال في امتناع السكن الصالح ، يقال في امتناع الحد المعقول من الخدمات الاجتماعية والثقافية التي غدت بفحش تكاليفها بعيدة عن متناول الجماعات – وأهمها تيسير الفراغ من جهة ، واشغاله ثقافيا من جهة ثانية .

وما يقال في عدم التكافؤ بين الأفراد

المواطنين يكرر قوله بين الفئات الاجتماعية، كالعائلات الكبيرة وكالعاجزين بالشيخوخة وكصغار الفلاحين، وصغار العمال والأقليات المرقية، في كثير من البلاد الديموقراطية، حيث لا يكون هذا النوع من الأقليات محجوباً عن توزيع عادل للثروة وشروط معقولة من الحياة، فحسب، بل عن عطف العنصر البشري السائد ورحمته.

واخيراً فثمة مايسميه الباحثون الاجتماعيون بالأخطار الجديدة، التي تواجه مدنية لا تتطور فيها المدن والأرياف تطور ارتفاع مستوى المعيشة فيها، بحيث ينعدم التوازن، وتتفاقم الهوة بين اقصى الغنى، وادنى الفقر. ففي المدن ترتفع الكتل العمرانية الضخمة، وتختنق رئات الهواء الطلق، وتتناقض مظاهر العمران الفخمة، مع مظاهر القذارة والوسخ والانحشار البشري البائس. وفي القرى، تنعدم الخدمات الثقافية، والاجتماعية، مقابل انوار المدينة الصاخبة، المتبرجة بترف الواجهات التجارية، والاعلانات المذهلة، والمغريات الداعية الى مزيد من الاستهلاك القاصم للظهور، وكلها متناقضات تشير الى انفصام نمو الحياة الغابي، عن تنظيمه أو عن القدرة على تنظيمه، والتوفيق بين الحياة والأحياء.

في هذا المجتمع المدني الباذخ بشرفات العمران المزدحم، الصاخب، الساحق، تقوم مشكلات بشرية جديدة، في عدم التكافؤ والتوازن. مثال ذلك ان تتلقف الحضارة، مشاركة المرأة في الحياة العامة فتشيد بها وتزدهر، دون ان تفعل شيئاً ازاء ذلك، من اجل حفظ كيان الاسرة، وصحة الامهات. فتضطرب الأسرة وتمتل باعتلالها الحياة الاجتماعية، التي يرشها الازدهار بطيوبه، بينما ينخر في جذورها بمفسداته.

ومثال ذلك أيضاً أن تؤدي الخدمات العلمية الصحية الى تأخير أجل الموت، دون أن يمهد التنظيم الاجتماعي، لسوية من الحياة والعمل تستوعب الاعمار الطويلة. كأن يلقى العمال بعد سن الأربعين مزيداً من الصعوبات في الاحتفاظ

بمعلمهم، أو بإيجاد عمل لهم (*)، فيشعرون بازدحام المناكب يدفعهم الى الخروج والتسكع على هامش الحياة، التي ما ازينت بالعلم والتكنولوجيا الا من أجل بقاء أطول غير هامشي وغير مفقود الرجاء. وإلا فحق الموت، أرحم بالحياة من حق الحياة، في ظل نظام، يعجز عن تأمين العمل للعامل، كما يعجز من بعد، عن صيانة الشيخوخة الطويلة من ان تصبح عاهة اجتماعية، أو وباء مقيماً.

ولا يسلم شباب العصر، من محنة التناقضات، ومزالق الصعوبات فهو يجتاز، في كل بلد، ازمة توافق وتلاؤم، منشؤها عدم تنظيم الحياة الحضارية العنيفة المشوشة، وصعوبة اقامة حياة عائلية هادئة، وما يرافق كل هذا من نضوج جسدي مبكر، وامتداد الطفولة مما يتصف به كثرة المراهقين.

وهكذا، يبدو أن قضايا المجموعة الثانية. من الاهداف الاجتماعية ـ قضايا عدم التكافؤ ـ هي التي تشغل تفكير المصلحين الاجتماعيين، الذين يبادرون الى تلقيح النظرية الليبرالية الفردية، بالحقوق الجماعية، أو كما تسمى احياناً ـ الاخلاقية ـ لكي تتواءم مع تضخم الحياة الحضارية الصناعية، وتعقدها، وامتناعها على الافراد وطوفانها فوقهم، بحيث يصبح التنظيم الجماعي ـ دون خنق المبادهة الفردية ـ ضرورة عصرية ملزمة.

يعرف هؤلاء المصلحون، بدءاً، بأن اصطلاح الانماء الاجتماعي، اكثر غموضاً، لدى المخططين، من اصطلاح الانماء الاقتصادي، واعمق تعقيداً، بترابط جذوره واجزائه. ويحصر أحد هؤلاء الباحثين م. ج. أ. بونسيون Ponsioen ـ في فرنسا طوائف الانماء الاجتماعي في خمس * :

(*) مثال منقول من كتاب - POUR UNE DEMOCRATIE ÉCONOMIQUE لجماعة البحوث العمالية والفلاحية في فرنسا - ED : DU - SEUIL

(*) نقلاً عن كتاب اندريه بلاتييه platier بعنوان : (التوازن بين الانماء الاقتصادي والانماء الاجتماعي) Ed : Genin

١ — زيادة الاستهلاك الوسطي .

٢ — تأمين الحاجات المعتبرة حيوية ، لجميع المواطنين .

٣ — مساواة ارفع مستوى واكثر عمومية في توزيع الدخل .

٤ — توجيه الاستهلاك نحو الحاجات الالزم انسانية ، كالسكن اللائق ، وكالمشاركة في الحياة الثقافية ، والتمتع بالعنايات التربوية والصحية .

٥ — اقامة علاقات انسانية ملائمة لمستويات الفرد والجماعة ، في آن واحد .

ان هذه الفئات المدرجة تحت تسميات عامة ، تشير الى تنوع التخطيط ودقته ، بحيث يجب الاعتنـــاء ليس بالمظهر الكمي للأهداف الاجتماعية ، بل بالمظهر الكيفي ايضاً . مثال ذلك ان التخطيط السكني يجب ان يعنى بجانبين من المعضلة : عـدد المساكن ، ونوعها . والنوع يوجب العناية بعلاقة المسكن بالعمل ، صناعياً ، كان ام زراعياً ، في المدينة ام في الريف . ومن جهة ثانية على التخطيط ان يراعي اوضاع المنطقة السكنية الكاملة وعلاقتها بما فيها من تجهيزات جماعية ، وخدمات ميسرة .

وبهذا ، يصبح الاسكان ليس مجرد حشر وايواء ، بل اتاحة الفرصة المناسبة والمناخ الصالح ، لنمو الاسرة ، والحياة الاجتماعية النظيفة .

اما (جماعة البحوث العمالية والفلاحية) في كتابها المشار اليه (في سبيل ديموقراطية اقتصادية) فتعمد الى تصنيف اكثر مادية ، بتعداد الحاجات الاولية ، وسوقهـــا في فئات اربع بحسب اهميتها :

الاولى — الحاجات الجماعية المعروفة بحاجات السلامـة الوطنيـة والمشاركة الخارجية — كحاجات الدفاع الوطني ، والدفاع المشترك ، تحالفات — وكالمساعدات الممنوحة للعالم الثالث — وكالمساهمات في تعزيز الاجهزة الاقتصادية والمالية الأممية .

الثانية — الحـــاجات الفردية ذات الطبيعة الاخلاقية — كضمان الترقية الفردية ، والترقية الجماعية ، وكاقامة علاقات اجتماعية صالحة ، واتاحة المشاركة السياسية .

الثالثة — حاجات الوقت الحر — كاختصار ساعات العمل « في شتى اشكاله وكاختصار اوقات التنقل بين المسكن ومقر العمل .

الرابعة – الحاجات اليوميـــة – كالأدوات الميسرة للحياة ، وكالخدمات بمختلف انواعها .

وإذ يتطير المتزمتون الليبراليون من طغيان مسؤوليات السلطات العامة التي يمثلها التخطيط ، على حقوق الفرد وحريته ، بما يضاف بين الحين والآخر الى نطـاق العمـــل الجماعي .. يجيب الليبراليون الاصلاحيون ، أن ليس الغرض من تولي هذه السلطات والمسؤوليات ، تنميط الحياة لتفرض على الأفراد ، بل بالعكس ، تحريرها من أجل تفتحها ومشاركتها الفعالة ، غير الاسمية . إن تأزم المشـاكل الاجتماعية المعاصرة ، يدل على أن سبيل حياة افضل ، وحرية اختيـار أكثر سعة ، منوط الى حد كبير بالاتجاهات الكبيرة المقررة في سياسة توظيف الاموال العامة والخاصة ، وتوزيع الدخول ، واصـلاح الاراضي والمدن . ويقول هؤلاء الاصلاحيون ، ان ليس ثمة من سياسة اقتصادية حيادية . فكل سياسة ، بمجرد أنها تأخذ ماتريد وتتجنب مالا تريد ، انما تعبر عن مفهوم ايجابي للحياة . « وانه لمن الأولى ان تعالج اهداف التوسع الاقتصادي ، في المجتمع ، بكل امتدادها ومتاعبها مع التشبث المستمر بمقاومة كل محاولة تفرض على المواطنين من فوق ، ازياء حياة ما وازياء تفكير ما(*) » .

ومن هنا ننتقل الى تحليل الاهداف الاقتصادية والاجتماعيـة في التخطيط الفرنسي ، وآلية هـذا التخطيط . ممـا يساعدنا على تكوين صورة كاملة لسياسة الخطة في البلاد الديموقراطية . واهدافها العاجلة والآجلة (**) .

(*) جماعة البحوث العمالية والفلاحية .

(**) الحلقتان الاولى والثانية من بحث التخطيط الديموقراطي ، في العددين ٤٧ و ٥٠ من المعرفة .